شاكر الأنباري
أنا ونامق سبنسر
منشورات الجمل
رواية

شاكر الأنباري، مواليد العراق ـ الأنبار ١٩٥٧، بكلوريوس هندسة مدنية ـ جامعة السليمانية ـ العراق. يعيش حالياً في كوبنهاغن. أصدر ثماني روايات: **الكلمات الساحرات**، ١٩٩٤/ ألواح ١٩٩٥؛ **موطن الأسرار**، ١٩٩٩؛ **كتاب ياسمين**، ٢٠٠٠؛ **ليالي الكاكا**، ٢٠٠١؛ **الراقصة**، ٢٠٠٣؛ **بلاد سعيدة**، ٢٠٠٨؛ **نجمة البتاوين**، ٢٠١٠. أصدر خمس مجموعات قصصية: **ثمار البلوط**، ١٩٩٠؛ **شجرة العائلة**، ١٩٩١؛ **أنا والمجنون**، ١٩٩٣؛ **تشكيل شامي**، ١٩٩٧؛ **أهواء غامضة**، ١٩٩٨. ترجم عن الإنكليزية مجموعة: **المريخ جنة** لري برادبري، ٢٠٠٦. له في التأليف: **أسوار أوروك**، ٢٠٠٤؛ **ثقافة ضد العنف**، ٢٠٠٧؛ **دولة على مفترق**، ٢٠١٢. شغل منصب رئيس تحرير لمجلة **تواصل** الصادرة عن هيئة الإعلام والإتصالات العراقية حتى مغادرته عام ٢٠١٣.

شاكر الأنباري، **أنا ونامق سبنسر**، رواية، الطبعة الأولى
كافة حقوق النشر والاقتباس باللغة العربية
محفوظة لمنشورات الجمل، بيروت ـ بغداد ٢٠١٤
تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ١ ٣٥٣٣٠٤
ص.ب: ٥٤٣٨/ ١١٣ ـ بيروت ـ لبنان

©Al-Kamel Verlag 2014
Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

(١)

سمعت خطواته وهي تتنقل من الغرفة الثانية إلى المطبخ، ومن المطبخ إلى الحمام، بعد أن فتح التلفزيون على قناة عربية راحت تبث أخبارا عن الشرق. فلسطين، العراق، لبنان، الصومال، أفغانستان، مع مشاهد لحوارات وانفجارات ومواجهات مسلحة، لم تكن جديدة عليّ بكل الأحوال. فأنا، ومنذ زمن، وطنت نفسي على حقيقة هي أننا اليوم نعيش في غابة، وهذه الغابة تحاول أن تجد لنفسها نظاما معقولا للعيش، إلا أنها تخفق كل مرة، وكل مرة تعاود الكرة من جديد. وهذا شيء جيد من وجهة نظري.

أُطبق نادر الباب وراءه، وخشخشت سلسلة الغلق الداخلي، وسمعت خطواته تتدحرج على الدرج الصغير الذي يقود إلى باب البناية الخارجي. عدا صوت التلفزيون كان الهدوء يغطي البنايات جميعا. لا أسمع أصوات أطفال ولا أصوات سيارات ولا نداءات. الحياة هنا تختلف عن بغداد كثيرا.

ورغم أن البرد ليس شديدا في الخارج إلا أنني أحسست بأن الشقة باردة، مع أن النوافذ والأبواب كلها مغلقة. ليست برودة صحية بالتأكيد، فنحن في نهاية الشتاء، ونهاية الشتاء عادة ما تكون مخدعة في هذا الحيز من الكرة الأرضية، إذ في نيسان قد ينهمر

الثلج، وربما في مايس، وإن لم ينهمر الثلج قد تهب ريح من القطب الشمالي، وفي هذه الحالة يصبح الجو أشبه بمروحة ثلجية ترسل سكاكينها الصغيرة لتتغلغل في الأجساد كما لو كانت نملا في منتهى الصغر.

منذ أن عرفته في مخيم كرج الإيراني راودني هذا الانطباع عن نادر. كائن يعيش في ظلمة روحه، في ذلك المكان الذي لا يسمح لأحد في دخوله. الزمن حوّل بشرته الشاحبة إلى بشرة كهل بعينين ما زالتا شكاكتين تخترقان الشخص الآخر.

الضحكة القصيرة المقهقهة الشبيهة بالنشيج، والنظرات النافذة، والصوت المتوتر.

نادر راديو.

الإسم الذي عرفناه به في ذلك المخيم.

نادر الذي يعيش في قوقعة.

كانت رائحة نادر القديم ما زالت معششة في هواء البيت. كان طريفا في دمشق، وزادت طرافته في مخيمات اللجوء التي اشتركنا فيها حين قدمنا إلى الدنمارك قبل عشرات السنين.

مددت يدي إلى المدفأة المائية المحاذية للتلفزيون فوجدتها باردة، وكذلك الغرفة الثانية والمطبخ، واستنتجت أن نادر أغلق التدفئة في بيته. هو يوفر التدفئة لأنها مكلفة، في هذا البلد كل شيء بنقود كما خبرت الأمر سابقا. حتى مضاجعة امرأة تكلفك الكثير. حسب قول نادر قبل عشرين سنة. لا يمكنك الحصول على امرأة إلا بثياب نظيفة وأنيقة وعطر جميل ينبغي شراؤه من سوبرماركت

تمكازين في شارع المشي، أو الفوتيكس، مع ابتسامة واسعة فوق وجهك ترفرف على الدوام حتى لو كنت حزينا.

نادر لم يكن يمتلك أيا من تلك المواصفات.

غرفة نادر غاصة بالأثاث، تلفزيون كبير، وبوفيه ممتلئة بالتحفيات، وثمة أيضا تلفونات من مختلف الأحجام، وكانت هناك راديوات عتيقة وكومبيوتران أحدهما موضوع على طاولة في الزاوية والآخر تحتها، وكانت هناك مقاعد من الجلد على طول الجدران. وفي زوايا الغرفة أضوية عالية وطاولات صغيرة حشرت حشرا بين الأثاث، وكانت السجادة من النسيج الصناعي الملون، وتحتل كامل مساحة الغرفة. يغلف كل ذلك صوت المذيع وهو يقرأ الأخبار، وكان صوته نشازا في هذه البيئة الغريبة.

لغة عربية على أطراف القطب الشمالي، في بنايات هامدة تنتظر المساء القطبي.

أمامي مشهد أخضر عبر النافذة والباب، وكانت تلك حديقة داخلية واسعة للمجمع السكني الذي تقع فيه الشقة. رأيت فجأة سربا من النوارس الجائعة تنقض على بقايا خبز وطعام نثرها رجل عجوز من حقيبة بلاستيكية، وبدأت النوارس تتساقط من حالق على الوجبة، وزعيقها يملؤ الفسحة بين البيوت.

نوارس جائعة في شتاء بارد.

نوارس الزمن المنقضة من حالق تتلقف عيشها من أرض مغطاة بالثمار البرية.

نهضت من مجلسي وفتحت الباب الزجاجي، ووقفت أتفرج على

الأشجار العالية، وجلها من السرخسيات، وشاهدت سياجات البيوت الأرضية الواطئة، والنوافذ المغلقة المسدلة ستاراتها، وكان هناك طيران أو ثلاثة تتنقل من شجرة إلى أخرى، وضوء الشمس ينحسر قليلا قليلا من السقوف القرميدية. شمس الدانمارك الشاحبة أنهت عملها في هذه البقعة من الأرض وغادرت نحو المحيطات البعيدة. العصافير نادرة بين السرخسيات والأشجار الدائمة الخضرة، قد تكون ندرتها هي الجو البارد هذا.

الستائر هنا تشبه الفروج. هل هي طريقة مقصودة من قبل نساء البلد في ترتيب الستائر على نوافذ البيوت؟ لا أدري. هي على شكل ثمانية، مع تجويف في المساحة بين ضلعي الرقم ذاك.

رأيت عجوزا تقف في حديقتها تشذب نباتات مطاطية وترتدي معطفا ثقيلا، تمج سيكارتها بقوة وهي منهمكة بعملها. أمام الباب تقع حديقة البيت، وهي لا تتجاوز الأربعة أمتار مربعة، ثمة سياج خشبي بنصف قامة الانسان، وكانت هناك طاولة خشب متروكة، ومنقلة عتيقة بانت عليها آثار شواء سابق. تلك المنقلة تشبه المنقلة التي كنت أستخدمها في بيتي الكائن في منطقة فالبي. كنت حينها متزوجا من ماري البرازيلية.

سمعت حركة المفتاح في الباب فسارعت إلى اغلاق باب الغرفة المطل على الحديقة والرجوع إلى محلي، ودخل نادر يلهث حاملا أكياسا صفراء مكتظة بالمشتريات، ثم دخل المطبخ ووضعها على الطاولة الصغيرة. لا بد أنك جائع، سأضع الدجاج في الفرن، وإلى أن ينضج جلبت قنينتي نبيذ فرنسي نتسلى بهما، قال نادر. عندك حديقة جميلة، قلت له. ما الفائدة، لا أحد يجلس فيها. هنا الجميع

يعيش في داخل البيوت خاصة في الشتاء. في الصيف عادة ما نجلس ن والأصدقاء في حديقتي الأمامية ونشوي اللحم أو الفروج ونحتسي النبيذ، وبالكاد نلمح أشخاصا يجلسون في الحديقة الكبيرة مع أنها جميلة ومرتبة. نامق ضيف دائم علي في يومي العطلة لاسبوعية. زوجته ربيعة تتصل به كل ساعة تستطلع عن الموجودين وذا ما كان هناك نساء في الجلسة. كما كنا نفعل أيام بيتك مع مدري في فالبي. هل تتذكر تلك المساءات الجميلة في حديقتكم؟ إنه عالم آخر يختلف عن عالمنا. أنت تعرفه من خلال خبرتك السابقة، وهذا العالم لم يتغير كثيرا منذ غادرته. حصلت تغيرات طفيفة فيما يخص الأجانب، لكن يبدو أن تغير المجتمعات يحتاج إلى زمن، قد يستغرق عقودا. هنا لا أحد يؤمن بالثورة كما نعرفها نحن. تطور بطيء.

فتح قنينتي النبيذ، ولاحظت أنهما من النوع الشعبي، وكانت ماركة نابليون الفرنسية هي الشائعة في السوبرماركتات الرخيصة. نحن زبائنها الدائميون وحافظ نادر على هذه الصفة. جلب كأسين من جوفيه المطبخ، ووضع كل ذلك على طاولة خفيضة أمام الأريكة، ثم ذهب ثانية إلى المطبخ وأخرج الدجاج المقطع، الجاهز والمتبل، من السيلوفان، وفتح نار الفرن وسكب كأسين. جلب كيسا من تفستق وضعه في صحن زجاجي، وشربنا نخب وصولي وأوضح لي بهجته المتلكئة المترددة أنني يجب أن أعتبر البيت بيتي، وسأقيم في لغرفة الثانية إلى أن يتضح وضعي. وانغمس في حديث طويل عن عزلة الناس هنا: "مجتمع غير قطيعي مثل مجتمعاتنا، لذلك عليك أن تكون فردا فقط، وتنسى أن لديك عائلة أو عشيرة أو حتى حزبا،

فاللبنة هنا هي الفرد البسيط، الفرد الذي يعتبر عالما قائما بذاته، عكس ما تعيشه مجتمعاتنا الشرقية. الفرد هناك، هو مفردة في قطيع، في بناء واسع، في برية تتصارع بها الأعراق والعشائر والأديان. لهذا تتفجر الحروب والنزاعات والعدوانية. هل رأيت في حياتك حربا امتدت ثماني سنوات؟ هنا الأمر مختلف، وهذا ما تعرفه أنت بشكل جيد، فتجربتك ليست قليلة في هذا الجزء من العالم.

تذكرنا بلمحة سريعة أيامنا في دمشق، وعملنا في معمل البلاستك، وقطف الفواكه في الغوطة، واستعاد مشهد نامق السكران حين كنا ذاهبين إلى المعمل. استعاده بحذافيره بما في ذلك الحوار الذي دار بيننا وبين نامق. حدث ذلك حين كانت رؤوسنا ذات شعر فاحم، ووجوهنا يانعة بنضرة الشباب. تلك قصص مرت عليها سنون. لم نكن متعجلين في استعادة الماضي، فأمامنا وقت طويل لذلك. ويبدو على نادر الرضى من حياته الرتيبة التي يعيشها في هذا الكهف، وهذا واضح من كثرة الأثاث الذي راكمه في بيته، وهي دلالة قرأت منها أنه لا يفكر بمغادرته. نادر لم يزر العراق حتى هذه اللحظة، وهو لا يفكر بذلك كما أخبرني. طلبت منه الاتصال بنامق، فتكلم معه قليلا وحول السماعة إلي. قال لي نامق إنه سعيد بعودتي، عرف بخبر وصولي من نادر، قال لي إنه يأسف لعدم قدرته على المجيء. سيراني غدا صباحا بكل تأكيد.

هذا هو صوت نامق، الصوت المرتعش، غير الواثق من نفسه، المعبأ بالتعب من الحياة، إن لم نقل الملل منها. في صوت نامق تعب ويأس، حتما سأعرف سببهما مستقبلا. جاءت هذه الخواطر إلى ذهني بعد لحظات من غلق السماعة، وكان ثمة دمدمة وصوت

عميق: نادر يغني. جاء صوته من المطبخ أثناء ما كان يقطع الصفوف، والخيار، والطماطم، وسيعد أطيب سلطة أكلتها في حياتك كما أخبرني من المطبخ.

عشر سنوات. أتأمل هذه المدينة ولا أصدق أنني عشت فيها سنوات طويلة قبل ذلك. جئتها لاجئا أنا ونامق ونادر من دمشق، وكانت الثلوج تغطي الأشجار والطرق والسماء والأبنية، وكان المقر خرافيا لنا، نحن القادمين من بلدان حارة. العيش في نفق من الثلج كان تجربة لم يفكر بها أحدنا ذات يوم. نامق رافقني منذ أن التقيت في ذلك المقر الصيفي التابع للثوار على مشارف الحدود بين السيمانية وإيران. ولكن نادر تعرفت عليه أثناء ما كنت لاجئا في محيط كرج في طهران. أي أعرفهما منذ أكثر من خمس وعشرين سنة. وإن حدثت انقطاعات بيننا، إذ لم أستقر طويل في أي بلد، حتى كحال ملايين المغتربين واللاجئين والمشردين في عصورنا الحديثة. لقد قرأت على النت خبرا يقول إن عدد اللاجئين في العالم يبلغ عام ألفين وخمسين إلى مئتي مليون لاجئ ومهاجر. رقم مرعب. والهجرة أصبحت عنوانا لحضارتنا الحديثة، وهي ظاهرة في جزء منها ليست سيئة. استبدال الوطن أصبح موضة رائجة في حياتنا.

أفكر بهذه الظاهرة أحيانا وأجد فيها كثيرا من الفوائد. لكن استبدال وطن يحتاج إلى روح مغامرة، متمردة، تجهز على حنين الروح مرة واحدة وإلى الأبد.

تخص لي نادر أحداث المدينة والأصدقاء والمعارف بجمل سريعة، تتنقل من موضوع إلى آخر، محاولا إدهاشي بمعرفته الغزيرة عما كان يدور بين الجالية. عرفت أن جرائم كثيرة حدثت، بعضها

يتعلق بالنساء، زوجات وحبيبات. بعض هاجر إلى بلدان أخرى مثل كندا وأميركا واستراليا، وبعض صار يتاجر بالحشيشة والمخدرات. قصص عن مشاريع تجارية فاشلة، وعن محلات تشترى ثم تغلق بسبب الغش في الضريبة وهكذا. إلا أن نادر أصبح أكثر قلقا وارتباكا من ذي قبل، كما لاحظت أن لغته العربية صارت متعثرة وبطيئة، وأفكاره بالكاد يوصلها إلى المقابل. لم أجد لذلك تفسيرا، واعتقدت أن نادر يعاني من مرض عدم التركيز، فهو ينتقل من موضوع إلى آخر، لا رابط بينهما. للوهلة الأولى حسبت أنه يمر بفترة زهايمر. المرض الذي نعرفه جميعا، ويصيب الشيوخ عادة. تأسفت عليه مع نفسي.

قال لي بخجل وتردد: رأيت زوجتك السابقة ماري مرتين، وكان بصحبتها نجمة وجميلة، وقد كبرتا وأصبحتا فتاتين مراهقتين. نجمة تشبهك كثيرا، وبالذات العينين الحادتين، والشفة المرتفعة قليلا تحت الأنف. جميلة قريبة الشبه من أمها ماري. ما زالوا يقطنون البيت نفسه في منطقة فالبي. في البيت الذي عشت فيه معها. سأحاول رؤيتهما في الأيام القادمة، قلت له، هذا واحد من الأسباب التي دعتني للروجوع إلى البلد. البيت الأرضي بحديقته الصغيرة وشجرة الكرز أمام الشباك، ونجمة التي كانت تلتهم القواقع من الحديقة في صيف مر في حياتي، كل ذلك أتخيله أمامي مثل فيلم سينمائي. نجمة وجميلة لم تشاركانا سفرنا إلى ساوباولو، لأنهما لم تولدا بعد. شربنا القنينة الأولى وابتدأنا بالثانية وهب نادر من مكانه وأطفأ التلفزيون ومشى إلى الكومدينو القريب من النافذة الزجاجية. اختار شريطا من بين مجموعة كبيرة من الأشرطة وضعها

في علبة معدنية وضغط على زر التشغيل فجاء صوت داخل حسن من العتمة ليغرق البيت بالحزن والآهات. كان نادر ينظر إليّ ويبتسم وكأنه يثبت لي قدرته على إدهاشي، وأنه يمتلك أشياء لم تخطر لي على بال.

مع أغاني داخل حسن الريفية، ومواويله السومرية القادمة من الأهوار البعيدة، أحسست وكأنني أعود إلى القصب، والليالي الريفية المقمرة، والنساء بائعات اللبن الرائب، والقرى الطينية التي تسبح في بحر من العزلة.[٧] نسي لغته البولونية والدانماركية والانكليزية، وهو يتكلم كل ذلك بصعوبة، نسي شقته الصغيرة في جنوب كوبنهاغن، وابنته كارين، وعاد إلى رائحة مدينته البعيدة التي قدم منها ذات يوم شتائي قبل خمس وعشرين سنة.[٨]

هذه الظاهرة عشتها في بغداد قبل مجيئي، مع سامر وسنان حين كنا نجلس في شقة سنان الشاعر، حيث كانت الأغاني القديمة هي محور الجلسة. هناك ميل لدى العراقيين إلى الماضي، إلى الأغاني القديمة، الشوارع التراثية، الشخصيات الشعبية التي تربت في أزقة البتاوين والفضل والشيخ عمر والصدرية والشواكة، وكأنهم باستحضار تلك الرموز والأجواء يهربون من حاضر حاد مثل شفرة، مميت مثل طلقة. هذا الحنين إلى الماضي لا نلمسه لدى الدانماركيين، فهم يعيشون الحاضر بعمق، ثم بعد زمن سرعان ما يتلاشى في ذاكرة جمعية لا تستكين إلى الموت. ما يهم هو الحياة، إما ما يهمنا نحن فالموت، سواء كان موت الأشخاص أو الأمكنة.

وليزيد في دهشتي أكثر جلب شريطا جديدا من الدرج وأسمعني أغنية يا ريم وادي ثقيف، لطيف جسمك لطيف، ما شفت لك

وصيف في الناس شكلك غريب، للأمير عبدالله الفيصل بأصوات كثيرة: بصوت حميد الشاعري، ونجاح سلام، وطارق عبد الحكيم وهو صاحب اللحن الأصلي، ومحمد عمر والمطربة الخليجية ود ومغنية فلامنكو إسبانية تغنيها وهي تجلس مع عائلتها في حفلة عرس. وأطلعني على درج كامل في مكتبته يحتوى مئات الكاسيتات لمغنين عراقيين وعرب ودانماركيين وانكليز وأميركيين وبرازيليين. لم يفوت حتى كيم لارسن المغني الأشهر في الدانمارك حين جئنا إلى هذا البلد في الثمانينات.

وكان بين ساعة وأخرى يكرر علي النصيحة ذاتها: أعرف أنك في شوق لرؤية البنتين، لكن إن أردت العيش ثانية في البلد فعليك بإيجاد عمل وشقة للسكن.

(٢)

نظرت إلى السماء فكانت صافية نجومها تتلألأ بوضوح. أكيد أن النجوم التي أراها الآن ليست هي ذاتها التي كنت أراها في سماء بغداد أو دمشق أو ساوباولو. رأيت غالبية الشبابيك مطفأة النور، وليس هناك سوى قليل من الثغرات الضوئية في البنايات. وكان الليل باردا. كم من المساءات رأيتها على هذه الشاكلة في هذا البلد، وكم من الليالي الموحشة قضيتها أفكر بمكان آخر يبعد آلاف الكيلومترات عن هذا المكان؟ كان صديقي سامر يقول عندما كنت في دمشق كنت أفكر في بغداد، وها أنا اليوم في بغداد وأفكر يوميا بدمشق. كان عادة ما يقول ذلك دون كلل، وقد عاد من دمشق بعد سقوط نظام صدام حسين بثلاثة شهور.

هل رأيت تلك النجوم، ذاتها، في ذلك الليل الشتوي الذي جئنا فيه الدانمارك، حين كانت الأرض في بكورتها الثلجية، والبشر مجرد أشباح قادمين من مجرة ثانية؟ وهل علي أن ابتدئ حياتي هنا من جديد كما ابتدأتها في تلك الليلة الجليدية قبل كومة من السنين؟

ليل شمال أوربا الكثيف.

الوحدة التي تدفع إلى الإنتحار.

مرات أفكر لماذا يختار البشر السكن في مناطق باردة قاسية مثل هذه، ولماذا لا يرحلون إلى الأماكن الحارة؟ راودني السؤال في بغداد، أيضا، عندما يحل الصيف وتتوهج الحجارة، والأشجار، والبيوت، والأرصفة، والنوفذ، والواجهات الحديدية، بلهيب الصيف الكثيف، الخارج من بوابات الجحيم. كانت الحرارة لعنة في ذلك البلد، حالها حال الموت والفساد والجفاف والهواء الملوث باليورانيوم المنضد.

اليوم عصرا، تركت نادر راديو في أسفل البرج، ومشيت أنا في الطريق الملتوي، صاعدا إلى السطح. هذه المدينة أعرفها منذ ثلاثين سنة. فندق الساس، البحر البعيد، بناء المحطة المركزية، أبراج حديقة التفولي، والكنائس الباسقة من مناطقها البعيدة. القرميد الأحمر في سقوفها يتوهج تحت شمس الأصيل مثل قطع بسكويت ملون. والحمام يطير في فضائها بسلام، وسعادة. لقد التهمت نصف عمري، وسأقضي النصف الآخر في تأمل ذكرياتها. في مقبرتها التي تتوسط الأشجار يرقد عشرات من أصدقائي، بعضهم رافقني منذ اليوم الأول الذي دخلت فيه البلد. هناك هم يرقدون بسلام، بعيدين عن الأهل، يتقلبون مع أحوال طقس سريع التغير دون أن يشعروا بذلك. رأيت الحمام يطير في مساحات شاسعة، كما لو كان أرواحا غريبة تروم الرجوع إلى منابتها. مات أصدقائي بعد أن سلبوا نصف ذكرياتي في هذا البلد. نصف غريب نصف مواطن، هذه هي حالتي إذا ما أردت وصفها بدقة.

الدرج الملتوي مثل مئذنة سامراء مكنني من الصعود إلى سطح البرج، حيث شعرت فعلا بالإعياء، وبأنني شارفت على الشيخوخة.

عدت هاجسا عميقا في نفسي لازمني طوال فترة ما بعد الظهر، وخلال تجوالي في شارع المشاة، الشارع الرئيسي في المدينة، لكي أتسلق الدرج، وأصعد إلى سطح البرج لأتأمل الفضاء من هذا العلو الشاهق.

ثم أشاهد المدينة من هذا الإرتفاع منذ أكثر من عشر سنوات، أو يزيد. هي أيضا تغيرت، ثمة شيء فيها يختلف، لم يكن موجودا قبلئذ. حينذاك كنت برفقة صديقي نامق، كان نادر في زيارة لبولونيا، وكنا في كامل القوة، وكان المشهد ماطرا، ولم يكن قرميد السقوف متوهجا كما هو الآن. ربما جاء ذلك وقتها بسبب المطر، والغيوم الرمادية المغطية لكامل الجهات.

بنى الملك كرستيان ملك الدانمارك، قبل قرون، هذا البرج كي يكون مرصدا للنجوم، خاصة في ليالي الصيف الخالية من الغيوم، وثبت في زاوية من البرج تلسكوبا ضخما ما يزال يجذب الزوار، ليلا، كي يراقبوا نجوم القطب.

يقع تحت البرج مقهى للطلبة، أتذكر أننا عادة ما نجيء إليه لاصطياد الطالبات الأجنبيات، القادمات من أوربا. كان المقهى يقدم الشاي والقهوة والبيرة، وطعاما خفيفا يناسب ميزانية الطلاب.

لاحظت أن المقهى زال عن الوجود، وافتتح في مكانه محل لأثاث الإسكندنافي، وهذا حال كثير من المعالم التي أعرفها، بعد أن مر عليها الزمن مثلنا، وحولها إلى تراث، أو مخلفات ستندثر بين أنقاظ ما يندثر من هذه المدينة. دخلتها أول مرة قبل خمس وعشرين سنة. دخلتها من مطار كاسترب، أو للأجانب مثلي مطار كوبنهاغن. دخلتها في ليلة ثلجية عاصفة، وبرد لم يكن مألوفا لي

على الاطلاق. دخلت إلى المطار قادما من دمشق، وكان برفقتي نامق سبنسر ونادر راديو، كان نامق يمتلك لحية كثة أضفت على وجهه سمات تشبه سمات الممثل بود سبنسر، وكنا نطلق عليه هذا الاسم تندرا بعض الأحيان.

وقتها كان الليل أبيض، والثلج يدوم في جنبات المطار، والشخوص العاملون في خدمات المطار ذوو وجوه شقراء وشعور ذهبية وعيون زرقاء، ويتكلمون بلغة سريعة، قاطعة، غير مفهومة لنا.

أول مرة نرى شرطيات على هذا القدر من الشباب والجمال، يضعن مسدسات ويحملن رتبا تشبه مربعات شطرنج صغيرة. وكانت شعورهن مذهلة الملاسة والجمال. يبدو أن الشرطة تعرف حكاية أشخاص مثلنا، فنقلونا بعد تحقيق أولي إلى معسكر لاستقبال اللاجئين لا يبعد كثيرا عن المطار.

كانت الحرب العراقية الإيرانية قد دفعتنا إلى هذا البلد مثل عاصفة هوجاء.

الاتجاهات اختفت، ولم يكن هناك سوى نفق البياض الذي كانت السيارة تجتازه ببطء.

الأشجار مصنوعة من الثلج، والطرقات فارغة، والثلج يتراكم على سقوف البيوت، وفوق أسفلت الطريق، والبرودة لا يمكن احتمالها. حياة قطبية بامتياز. لا طيور، لا حيوانات، لا بشر يسير، ليس سوى الصمت، والبياض، والبرودة التي تنفذ إلى الجسد عبر الملابس الخفيفة.

كنا صامتين، نحدق في شعاع الضوء المنطلق من مصابيح السيارة وهي تجتاز شوارع مشجرة، ومحلات سكنية، وزمنا آخر غير الزمن الذي قدمنا منه. ذلك يشبه السير بعربة الزمن نحو عوالم مجهولة، لكنها بالتأكيد تنتمي إلى المستقبل وليس إلى الماضي.

في عربة الزمن تلك كنا خائفين، نشعر بغربة عن المكان واللغة وبشر هذه الأرض، الخوف ذاك صنع جدرانا بيننا أيضا، فلم نتبادل أي حديث حتى وصلنا إلى بوابة عالية لبناء ضخم من الآجر الأحمر، يختفي بين أشجار عالية، غير أنها أشجار من الثلج.

منظر الأشجار تلك رافقني بعدها طوال عمري، في شتاءات ذلك البلد الذي صنع نصف حياتي.

رافقني في دمشق وبغداد وبيروت، لكنني في بغداد كنت أفتقده أكثر بسبب الحرارة القاتلة، في الصيف على وجه الخصوص.

في تلك الحقبة، التي أسميتها الحقبة البغدادية لم أعد أصدق خيالاتي تلك عن الثلج، لم أكن أتصور أنني رأيت ذات يوم تعريشات نجمية، وأغصانا بيضا، وحقولا عارية يغطيها الثلج.

بغداد كانت تنورا حقيقيا، محا صور الثلوج كلها من رأسي.

أحيانا أتساءل مع نفسي هل يشعر من مات منا في هذه الأرض بالبرد وهو يرقد رقدته الأبدية في تلك التربة الرطبة؟ هل يحس بالوحدة، بالبرد، بالندم لأنه غادر بيته وجاء إلى هذه البلاد الباردة، المصنوعة سقوفها من القرميد الأحمر، وتنثر النبيذ والبيرة في الطرقات كلما حلت ليلة عيد الميلاد؟

الأفق الإسكندنافي المبقع بالغيوم، والضوء البرتقالي، وذلك

الإحساس الذي ينتابني بأنني كتلة متحركة من الذكريات، لم تعد ترتبط بمكان بعينه. هذا البلد لا يرضى بأنصاف الحلول، لابد من الانتضام بايقاعه اليومي، العمل، والعنوان الثابت، والسهر في الويك اند مثل أي قرصان من قراصنة الفايكنغ. هناك تنتضم في إيقاع الموت وهنا تنتضم في إيقاع الحياة الآمنة لكن الرتيبة. إنه الإيقاع الكوني ثانية ذلك الذي طالما سمعته في شارع فلسطين، وفي باب توما، وشواطئ نهر دجلة، تحت أشجار النبق المحملة بالثمار، بين أحضان النساء، ولحظة سماع الدوي المرعب لإنفجار سيارة مفخخة، هو ذاته الذي يربطني بسماء الليلة.

الإيقاع الذي صنع مني إنسانا لم يعد ينتمي إلى مكان بعينه.

وكانت الأزقة فارغة، وليس سوى خطواتنا على الأسفلت الرطب، ونحن نقوم بجولة تمزق هدوء هذا الليل، وهدوء هذه البنايات التي تشبه نوافذها الفروج. وكانت معظم الفروج مظلمة، لقد نام الجميع تقريبا، بعد أن تجاوزت الساعة الثانية عشرة. أزقة المنطقة خالية من البشر، وهناك روح شبحية ترفرف على منطقة سوذهاون. آخر القطارات تغادر محطة سوذهاون إلى شمال الجزيرة. إلى حيث البحر الذي كان يلمع تحت عيني حين وقفت أتأمل المدينة من سطح ذلك البرج. لحظة زمنية خارقة. وكأن هذه الهنيهة من الوجود خالدة، لا شيء قبلها ولا شيء بعدها. لقد كنت انسانا كونيا، يعيش في بقعة نائية من الأرض، لا يهم اسمها البتة. أنا في حالة تجرد كأنسان. انسان عار، يعيش ويتنفس الهواء، ويرى الأضواء، ويسمع الضوضاء من بعيد، ويقترب من المطلق.

كنت في شوق إلى رؤية صديقي نامق سبنسر. إلى رؤية تاريخي

الشخصي الذي امتد معه إلى عقود. رأيت معه الجبل، وتنسمت هبوب الريح في أرومية وطهران، ضحكت معه في كوجه مروي. فاتني أن اسأل نادر عن ذلك الراديو الذي عاش معنا في مخيم كرج وغرفة دمشق، هل ما زال عنده أم باعه أم تخلص منه مثلما نتخلص عادة من الأشياء القديمة التي عاشرناها في الأزمنة الصعبة؟

هؤلاء الذين يمشون في الشوارع أخوتي، وتلك الروائح القادمة من مطاعم البيتزا بصمات لعالم ماض. ينبغي علي أن أعيد اكتشاف المدينة من جديد. ألا يحصل ذلك كل مرة مع المهاجرين، والعائدين، والمغتربين، مرة ومرة ومرة، من كل بقاع الأرض؟ لم ألحظ أي تغير في الشارع، وكأنه بلا زمن. المشاهد نفسها. الأشخاص ذاتهم، المحلات عينها. جنب الكنيسة القديمة يتجمع عدد من مدمني المخدرات حول نار خفيفة أشعلت في تنكة حديدية، وعلى دكة الباب تمددت امرأة ببنطلون جينز وهي نائمة تدثر رأسها ببطانية صغيرة من الصوف. شعرت وكأنني رأيتها على هذه الحالة قبل خمسة عشر عاما. قبل عشرين. قبل مئات السنين، منذ أن كتب على البشر التعاسة. المشهد ذاته. الشعر الأصفر المتهدل على الأرض، والأطراف النحيلة البارزة من بنطال الجينز، والحذاء الشتوي الثقيل من المطاط أو الجلد الرخيص.

إنها التعاسة البشرية المتكررة في الزمان والمكان.

هل نستطيع أن نحصي الفلاحين في القرى المهملة الذين ماتوا دون أن يذكرهم احد؟ أو الملايين التي ماتت في حروب منسية؟ من يتذكر اليوم موتانا في تلك الحرب التي استمرت ثماني سنوات؟ وإن تذكرناهم هل يمكن تذكر من مات في الحروب التي أعقبتها؟ هذا

السؤال عادة ما يرد إلى رأسي في جميع الأمكنة، وربما سيلاحقني حتى إلى القبر.

منظر الشارع الذي ينتهي بحديقة كبيرة كان مذهلا. الأضواء الملونة تحيله إلى نفق من اللذة. على جانبيه تبعثرت محلات للجنس، وتقف أمامها فتيات من كل لون وحجم. اعترضتنا واحدة من أفريقيا وعرضت علينا نفسها بسعر خمسمئة كرونة، وكانت تلبس تنورة قصيرة وتضع الأصباغ على شفتيها الضخمتين. سألها نادر عن المكان فقالت هنا، وأشارت إلى محل ينخفض خطوات عن مستوى الشارع.

أخبرني نادر أن المحلات تؤجر مكانا للمضاجعة بمئة كرونة، ولمدة ساعة، هذا لم يكن معروفا في زمني. لفت نظري، ونحن نتجول سكرانين بعد منتصف الليل وسط كوبنهاغن، تلك البيوت في الأزقة، تضع شموعا في النوافذ وتكتب على الأبواب أسعار اللذة. سألته إن كان جرب ذلك فأجاب نعم، أكثر من مرة.

ومن طرائف تجاربه في هذا الشارع، ذكر نادر ونحن نتمشى بين النساء، والزبائن، وتجار الحشيشة، والبحارة الوافدين إلى المرفأ، أنه أعجب مرة بفتاة ذات شكل تايلندي فتعامل معها واتفقا على مبلغ أربعمئة كرونة. أخذها إلى أحد المحلات القريبة ودفع خمسين كرونة للمكان وصعدا إلى هناك، وحين تعرت الفتاة، وهم بمضاجعتها تبين له أنها شاب، من ذلك النوع الذي يطلقون عليه بالمتحولين، ترانسسيكشول. فتوقف حائرا لحظات وهو لا يعرف كيف يتصرف. كان الشاب الأنثى قد فوجئ هو الآخر، إذ اعتقد أن زبونه يعرف سره، لذلك وقف مندهشا لتردد نادر، لكنه قرر استثارته

بمؤخرته الملساء، وحركاته الداعرة، إلى أن نجح بإغرائه، وظل
ـدر أسبوعا وهو يخشى من عدوى الأيدز.

حدثني نادر عن تجربته تلك كما لو كان يحدثني عن أنواع البيتزا
تي توفرها مطاعم كوبنهاغن. ربما كثير منا مر في تجارب مماثلة
كن لا أحد يجرؤ على الحديث عنها.

لم يتغير الشارع كثيرا عن الفترة التي عشت فيها هنا. كثرت
بولونيات بعد انهيار المعسكر الاشتراكي، وكذلك الأفريقيات،
والقادمات من بلدان البلطيق. تذكر سابقا لا نجد سوى
دانماركيات، قال نادر. والحشيشة هل ما زالت رائجة في الشارع؟
حشيشة والكوكائين والهيروبين، خاصة بعد غلق منطقة كرستيانيا.
تذكر كرستيانيا أليس كذلك؟ بالتأكيد، زرتها عشرات المرات. الجنة
محاطة بالبحيرات وبحر البلطيق. التي عادة ما تنتشر في جنباتها
صوات المجاذيف لقوارب العشاق. أغلقتها الشرطة، وأجلت
سكان إلى مناطق أخرى، حدثت بها كثير من الجرائم، كما صاروا
يتاجرون بالمخدرات. سابقا كانت هناك الحشيشة فقط، إلا أن بعض
لأشخاص صار يتاجر بالحبوب والمخدرات، وتحولت كرستيانيا
ى خطر يهدد العاصمة فأغلقوها. يقال إن وراء العمل دوافع
سياسية، فأغلب سكان كرستيانيا هم من اليسار، الذين لا يدفعون
ضرائب، ويعيشون شبه استقلال ذاتي، والحكومة اليوم لليمين منذ
كثر من عقد.

كوبنهاغن، كوبنهاغن، كوبنهاغن. الموسيقى التي لن أنساها.
مرأة التي علمتني أسرار النساء. كوبنهاغن الكنيسة والمتحف
والتيفولي وهو.سي. انسن. مقبرة فالبي. سوق نوربرو. شارع استيد

كاذا، وفيلسوف الوجود سورن كيركغورد. ماري زوجتي، وإبنتاي نجمة وجميلة. نامق ونادر. حياة نامق مع ربيعة كما أخبرني نادر لم تكن رخية دائما. ما جعلها تستقر أخيرا هو مولد عشتار، لقد ولدت في بيت استد كاذا. لم يمر على زواج نامق وربيعة سوى سنة حتى ولدت عشتار. إشتار في الدانماركية. عشتار باللغة العربية، وهو اسم شائع، ويحيل إلى آلهة الحب، في الأساطير السومرية أو البابلية، لم أعد أتذكر. الاسم هو تأكيد وإصرار على الرابطة الأزلية بين نامق والعراق، هذا ما قاله نادر لي. وربما نامق هو الذي أخبره عن سبب تسميته لإبنته ذات يوم. كنت أستغرب بعض الأحيان من تعلق البشر بهذه التفاصيل الشكلية، حول علاقتهم بالوطن. يطبخون الطبخة ذاتها، يسمون الأسماء السابقة التي كانت سائدة في بلدهم، يستخدمون الأمثال التي تربوا عليها أطفالا، وهكذا. كل ذلك من أجل الإثبات لأنفسهم أنهم ما زالوا في البلد الأم، لم ينسوه، ولن ينسوه.

أنا نفسي، سميت ابنتي الكبرى نجمة، والثانية جميلة على اسم أختي. ولدتا بعد سنة من سفرنا إلى ساوباولو.

أعتقد أن رؤية مثل هذه، وبوجود عشرات الملايين من المهاجرين بين القارات، هي ما سيصنع الحضارة الكونية الجديدة، أي الحضارة المتعددة الأسماء، والأديان، والأطعمة، والألوان، واللغات.

لكن نامق الذي رأيته بعد يوم من وصولي إلى كوبنهاغن، لم يكن هو ذاته نامق الذي التقيته في الجبال. ولا هو ذاته الذي عاش معي في مساكن برزة وسط دمشق. كما يختلف عن الشخص الملتحي،

مخاتف المذعور من الحياة الجديدة في تلك الليلة الثلجية ونحن في معسكر اللاجئين وسط العاصمة كوبنهاغن.

تخلص من اللحية، وأصبح أكثر أناقة، رغم الحزن العميق في ملامحه. هل ما زال نامق يفاخر بأصله البغدادي وتحضره كما رأيته حين التقيت به وسط الجبال؟ أشك في ذلك، لأن صفة البغدادي لم تعد امتيازا وأنت تعيش في بارات كوبنهاغن، وملاعبها، وحدائقها، وتلامس أسلوب عيشها الأنيق الذي لم نعرف له مثيلا في حيواتنا السابقة.

هو يعيش اليوم بين نساء، خلافا لعقود من حياته كذكر متوحد جاء من ظلمات التقاليد والأخلاق.

لقد أعطاني نادر فكرة عامة عن أسرة نامق، لذلك كنت متوجسا من الدخول في الخصوصيات حين زرته في البيت. عشتار مصابة بالسرطان لكنني لم ألمح ذلك في حركاتها، حين جاءت وسلمت علي وأنا جالس في صالون نامق المطل على حديقة واسعة تنتشر فيها المراجيح والدواليب المعدة للعب والقواطع البلاستيكية المعدة للزحلقة، وكانت نظرات نامق تنم بالعمق عن قناعة بالحياة التي يحياها. كان يوم سبت، وكان نامق يهم بعمل جولته المعتادة كل سبت على السوبرماركتات المشهورة. ماكازين والفوتيكس والنيتو القريب من بيتهم وفيسكتورف المجاور لمحطة كوبنهاغن المركزية. زوجته ربيعة تحاول أن تغدق علينا بأنواع الفواكه والقهوة والمعجنات، وكانت ترتدي تنورة قصيرة تكشف ركبتيها السمراوين. وجهها المدور الأسمر صار أكثر نضجا، وعيناها السوداوان فيهما تعبير عميق عن خوف ما متأصل فيها. ربما خوف من فقدان عشتار

أو نامق أو عبير، أو حتى الراحة العائلية التي تمتعت بها طوال السنوات الماضية. الغريب هو أنني لا ألمح ذلك الخوف العميق في عيون الدانماركيات.

لكن ماذا يختلف نامق سبنسر الذي أجلس معه في بيته المطل على استد كاذا، محاطا بزوجته وبنتيه، عن نامق سبنسر الذي زارني في بغداد وكنت أقطن وقتها قريبا من بين صديقي سامر في حي المعلمين؟ وماذا يختلف عن نامق الذي رافقني بين الجبال مرورا بطهران ودمشق؟

هو الآن يمتلك شعرا أبيضا مثل الثلج، وكأنه سجل للحياة الصعبة التي عاشها منذ الولادة وحتى هذا السبت. كنت أقطن في حي المعلمين قريبا من بيت صديقي سامر، وسامر هو الذي وجد لي ذلك البيت، وهو وزوجته قاما بمساومة الدلال وبعدها تنظيف البيت وترتيبه وتأثيثه بشكل معقول. جاءني نامق إلى ذلك البيت حين زار بغداد بعد عشرين سنة من الخروج منها، وفي ذلك المساء أمضينا الجلسة بتذكر كوبنهاغن وأشخاصها ومنهم نادر. كان نامق وقتها بمزاج طيب، بعد أن التقى بأخوته، وقد أوصله ابن أخيه حيدر إلى بيتنا بسيارته الخاصة. لم يكن شعره أشيب بهذه الطريقة، لكنه كان يدخن بافراط. لم يكن قد مر على دخول القوات الأميركية إلى العراق سوى سنتين، وكان نامق متوجسا مما يجري، خاصة سيطرة الإسلاميين على السلطة. سهرنا حتى العاشرة ليلا وغادرني نامق مع ابن اخيه قبل حلول منع التجول، لكنها كانت ليلة أعادت إلى ذاكرتي نامق الذي عرفته في السابق.

لقد تغير نامق الآن، لا شعره الأبيض فقط، بل تلك النظرات

الثائهة، التي زاد من زوغانها مرض ابنته عشتار بالسرطان، وطبيعة العلاقة بينه وبين زوجته الجزائرية ربيعة. أما نامق الذي رافقني بين الجبال، وفي طهران، وعند بساتين التفاح والدراق في دمشق، فقد أصبح صورة شاحبة بعيدة، لا تتطابق مع هذا الجالس أمامي. حتى الإهتمام بالأحداث السياسية راح يتضاءل، وتحول إلى كائن شبحي يتجول كل سبت بين البضائع والعروض المغرية لآخر ما تنتجه معامل أوربا والصين واليابان وأميركا.

ما أن نتحدث عما يجري في العراق والمنطقة حتى ينكفئ صوته وتنعثر سلسلة أفكاره. لكن ما أن يقودنا الحديث إلى أنواع العطور، وأسعارها على سبيل المثال، حتى ينتصب شخص متحمس يسهب في الكلام. يقارن بين المحلات، يعدد أنواع الجبس، يغوص في الفروقات بين الطماطم في المحلات العربية بشارع نوربرو وأسعارها في النيتو، والفوتيكس، والفاكتا. حولته إلى مسوكجي، وصفه نادر ليلة البارحة، وكان يقصد ربيعة، حيث لا تكف طلباتها المطبخية عن الانداق فوق رأس نامق، سواء كان في الحمام أو يتمدد على الأريكة يتفرج على كرة القدم، أو يزدرد طعامه في المطبخ. البهارات نفدت، اللحم لم يعد يكفي، البصل شحيح، لم يعد لدينا قهوة، السكر لا يكفي أسبوعا، شوكولاتا لعبير، جبس لعشتار، كوكا كولا دايت لي، فأنا أخاف من مرض السكر، بوط رياضة لعشتار كي تمارس الجمناستيك في صالة الفيتنس، الصالة القريبة من محطة سوذهاون، وهكذا.

قال لي نامق لم أعد أقرأ كالسابق، رغم شحة الكتب هنا. تعرف كنت أحب قراءة الروايات، خاصة لنجيب محفوظ وفؤاد التكرلي،

وحنا مينا، وديستوفيسكي، لكن لم يعد لدي وقت. بل في الحقيقة لم يعد لي اهتمام.

نزلت ربيعة مع عشتار وعبير للتسوق من الفيسك تورف، وأغلقوا الباب وراءهم، وطلبت مني ربيعة قبل إغلاق الباب البقاء للعشاء سوية. قالت إنها ستعد لنا باميا باللحم مع الرز على الطريقة العراقية.

وبدأ نامق يبوح لي عن روتين حياته هنا، في كوبنهاغن. أكسباير، قال لي وهو يمص سيجارته بعمق، ويحدق إلى الشجيرات العارية في الحديقة أمام الشباك، وكان ثمة غربان ضخمة تقف فوق أغصان عارية مسودة من الرطوبة، ذكرتنا بمخيم كرج الإيراني الذي قضينا فيه سنة كاملة. أصبحت شخصا أكسباير، فائض الوجود على هذه الحياة، لم تعد الحياة تحتاجني، هنا ضمن هذا النظام الرحيم حتى لو مت يمكن لربيعة والبنات تدبر أمورهم المعيشية. تعرف أنهم يدفعون نقودا حتى للعاطلين عن العمل، وكذلك للطلاب، نقود تكفي لدفع ايجار البيت وشراء الخبز واللحم والمعجنات والدخان بقدر والملابس. حتى إذا كنت لا تستطيع شراء ملابس أنيقة من متجر ألم أو المكازين أو الفوتيكس يمكنك شراؤها من البالة، وهي منتشرة في كل مناطق كوبنهاغن. تتذكر ساحة فريدريكسبيرغ اليس كذلك؟ إنها تفتح أكبر تجمع لبضائع البالة كل يوم أحد وأحيانا في السبت إذا كان الجو صاحيا. اشتريت حذائي من هناك وهو جلد إيطالي أنيق، تراه وكأنه جديد، هل تعرف بكم اشتريته؟ بخمسين كرونة، حوالي عشرة دولارات فقط. إذهب إلى المكازين لن تجد حذاء إيطاليا جيدا بأقل من مئتي أو ثلاثمئة دولار. صرت أحس بخطل في يدي، وتوتر في عضلات الرقبة، وقال لي الطبيب إن علي

ممارسة الرياضة والتقليل من الدخان وشرب الكحول. تخيل ينصحك بترك شيئين هما متعة حياتي كلها، لكنني استمعت جزئيا لنصيحته، لا أدخن سوى عشر سجائر يوميا، ولا أفرط في الشراب سوى في نويك اند.

من خلال حديثه أحسست أنه لم يعد مدرس التاريخ الذي كان ممتلئا بالحماس للحوار والنقاش كما رأيته في جبال كردستان ذات سنة. وتلاشت عنده روح العبث والأحلام كما عايشتها معه في دمشق. بالمناسبة رأيت ماري قبل ستة أشهر تقريبا، هي ما تزال في نبيت نفسه، أما ابنتاك فقد كبرتا، كانت أياما جميلة حين كنت تسكن معها في فالبي. إنني اتذكر جلسات الشواء دائما، وكيف كان ذلك القط بيليه يجلس تحت شجرة الكرز وهو يرصدنا بعينيه الغامضتين ونحن نشك اللحم في الأسياخ، ونشوي أفخاذ الدجاج، ونحتسي النبيذ الشيلي المعتق. النبيذ القادم من جبال الأنديز، الذي كنا نشتريه من الفوتيكس وقتها بأسعار زهيدة، مقارنة بالنبيذ الإسباني والفرنسي والإيطالي. أين بيليه الآن؟ أكيد مات فالقطط لا تعمر طويلا. كانت لحظات جميلة أليس كذلك؟ ألا تحن إليها؟

لم أستطع الجزم في ما إذا كنت أحن إليها أم لا، فقد عشت حيوات أخرى بعدها، ومرحلة العيش في بغداد، أنستني كثيرا من اللحظات الماضية. كان الطموح هو الإحتفاظ بالجسد حيا، أما الجمال فصار ديكورا لملفات الموت.

أصوات النوارس قرب الجسور لم تعد جميلة، وأشجار النخيل تحولت إلى أشباح ليلية تعد بالخوف والقلق. ويلف كل ذلك هواء ملوث يراه المرء كل صباح وهو يطوق المدينة، بدءا من مآذن

الكاظمية وانتهاء بنخيل الزعفرانية. هكذا هي الحال. وهكذا هي الذكريات المرة.

لكنني أتوق لرؤية نجمة وجميلة بالتأكيد، فكرت مع نفسي.

سألني نامق عن صديقي سامر فقلت له ما زال يقطن في حي المعلمين، وهو يتنقل بين الجرائد مثل نحلة ضالة. هناك عشرات الجرائد الجديدة وعشرات من محطات التلفزيون والوكالات العالمية، وسامر يعمل أحيانا مع أكثر من مؤسسة. حين غادرت العراق كان ينجز تحقيقات عن الحياة السرية في بغداد إلى وكالة أنباء عالمية لها مكتب في الصالحية. تجار الحشيش، شباب الايمو، تجارة الأعضاء البشرية في البتاوين، الشركات الوهمية، عصابات التزوير، عصابات خطف الأطفال، تجارة الأدوية المنقضية الصلاحية، وما إلى ذلك من تحقيقات، قال إنها تجعله يطل على العالم السري الذي تعيشه بغداد، وهو يشحذ لديه القهر من المرحلة التي وصلنا إليها، رغم أنني حذرته كثيرا من خطورة الدخول في تلك الأجواء، فهي أجواء لا تطمئن إلى الانكشاف، بل تعشق الغرف المظلمة والأسرار والتضليل، وهي تعيش على كل ذلك. الكارثة كما أخبرني أنه اكتشف وجود علاقات متينة أحيانا بين بعض السياسيين ورجال الأمن مع عالم الجريمة السري، صفقات تدر ملايين الدولارات، وما فيها من نساء وخمور وسفرات وغير ذلك من امتيازات ومغامرات.

لا تظن أننا نعيش هنا في جنة قال نامق. قبل أسبوع تحول شارع نوربرو إلى جحيم، في مواجهات حامية بين الشرطة وأبناء الجالية العربية والمسلمة. كانوا يحرقون حاويات النفايات والجرائد

والإطارات تعبيرا عن احتجاجهم على المعاملة التي يتلقونها من الشرطة والجهات المتنفذة. ثمة عنصرية كامنة، عنصرية حضارية إن صح التعبير، لا تظهر في التعامل المباشر إنما بصور وأشكال منتوية. ثم نهض نامق وجلب لي جريدة عربية تصدر في الدانمارك اسمها الخبر، وأراني تحقيقا كاملا، احتل صفحتين مع الصور في تلك الجريدة، عن المواجهات التي دارت بين الجالية المسلمة والشرطة الدانماركية. كان أغلبهم من الجيل الجديد الذي ولد وتعلم وعاش في الدانمارك، لكنه يحس بوجود نظرة عامة تضعه في خانة غير خانة أبناء البلد. تحولت نوربرو إلى فرن من الغازات الساخنة والورق المحترق والبلاستيك الأسود كما لو كنت في أفغانستان أو الصومال أو بغداد التي قدمت منها سالما.

لكل مكان مساوؤه قال لي نامق. تعتقد حين تعيش في العراق أن الدانمارك والسويد والنروج وألمانيا وغيرها من بلدان أوربا هي جنة الله على الأرض، لكن ذلك مجرد وهم. الوهم ذاك يتطلب منك العيش هنا، ولفترات طويلة، لتكتشف أن الجحيم هو ذاته، جحيم الوحشة، والغربة، واللون، واللغة، والدين، والسلوك، وكل شيء.

رن جرس الموبايل فكانت ربيعة. فهمت أنها كررت لنامق دعوتي على العشاء، وأنها انتهت من جولة الفيسك تورف وهي ذاهبة مع البنات لزيارة شارع المشي، والتفرج على البشر هناك. ولم يكد نامق يضع الموبايل على الطاولة التي بيننا حتى رن الهاتف من جديد. وتوقعت أن تكون ربيعة، ربما تذكرت طلبا لنامق، إلا أن المتصل كان نادر هذه المرة. اقترح على نامق أن يأتي معي لنقيم حفلا صغيرا في بيته، وقد تأتي كارين أيضا، وبعد تداول طويل بيني وبين

نامق حول خيار البقاء لديه أو الذهاب إلى سوذهاون، اتفقنا على أن جلسة للنبيذ الأحمر، والدجاج المحمر في الفرن، مع أغاني محمد عبد الوهاب وداخل حسن ويوسف عمر أفضل من الباميا بلحم الخروف مع الرز على الطريقة العراقية.

(٣)

كنت أجلس مواجهة التلفزيون، أستطيع رؤية المدخل حيث وقف نادر ووضع عينه على العين السرية، وحسبت أن من قرع الباب هو نامق، جاء ليشاركنا الجلسة. انتفض نادر فجأة، بعد أن رأى ما رأى، وفتح الباب بسرعة. وكان ضوء النهار قد تلاشى في الخارج، وأضيئت نوافذ البيوت بمصابيح صغيرة شبيهة بشبكات صيد السمك. الشبابيك تحولت إلى فروج حقيقية، على رأي صديقي العتيق نامق، لكنها فروج تضيء وتنطفئ بعشرات الألوان، وكأنها دعوة لاستمرار الحياة بطريقة أكثر مباشرة.

رأيت فتاة جميلة ذات مظهر غريب تقف في فتحة الباب، عانقها نادر بحرارة، وراح يتهامس معها ويشير إليّ، سمعتها تحييني فرددت عليها التحية. ظلا خمس دقائق يتهامسان في المدخل، دون أن يدخلا الغرفة.

من خلال نور المصباح المضاء الذي يتدلى من السقف، فوقها بالضبط، استطعت رؤية وجه الفتاة وملابسها بوضوح، رغم أنني لم أسمع الحديث الذي يتبادلانه. أكيد هو يحدثها عني، ضيفه الطارئ الذي فوت عليه، ربما، فرصة للقاء هذه الجميلة. كان وجهها أسمر، أنفها دقيق وذات عينين صغيرتين مكتحلتين، وشعرها مرتب

حسب الطريقة الأفريقية بخصل رفيعة تنساب على كتفيها. شخصية غير مستقرة فكرت مع نفسي. قلقة. فاتنة. شهية. يمكن نيلها بسهولة. هذا إذا افترضنا الخلوة الكاملة معها في ليلة مضاءة بالشموع. كانت ترفع تلك الخصل بين الحين والآخر كاشفة عن رقبة ممتلئة.

تلبس تنورة قصيرة لا تصل ركبتيها وجوارب لحمية يميل لونها إلى السمرة وحذاء بكعب عال أظهرها أطول من نادر. شعرت بالاشتهاء لها، خاصة وقد وصل عطرها إلى مكاني، وهو عطر مثير للغاية.

عطر قادم من غابات إفريقيا أو مجاهيل الأمازون، ذكرني برحلتي إلى ساوباولو مع ماري، وأجنحة الفراشات العملاقة التي كانت تطير بين زهور شجرة البباي. عطر ذكرني بكل النساء اللاتي عرفتهن خلال عمري القصير الآيل إلى الزوال. توقعت أن تكون عشيقة لنادر، أو إحدى صديقاته العابرات. حدثني في الطريق إلى الشقة عن مغامرات نسائية عاشها في المدينة، فكرت أن تلك المغامرات مبالغ بها، ولا تتناسب مع وضعه الاجتماعي أو صورته الجسدية. هو ليس أنيقا، ولا تفوح منه عطور المكازين، ولا يضع ابتسامة مريحة على وجهه. أعرفه صديقي الذي لا يبتسم إلا بمقدار، ولا تعنيه كثيرا الملابس التي يرتديها. ونادر مخلوق قصير يمتلك وجها فأريا بشاربين أسودين وشعر مفلفل غير محلوق جيدا. لونه فاحم السواد لا يتناسب مع عمره الذي تجاوز الخمسين. كما أن ملابسه من الطراز القديم، وحذاؤه من النوع الرخيص. أبرز ما يظهر في وجهه أسنانه الصفر المغطاة بالقلح، في حين جعل إدمانه على التبغ نوع سنوس، الذي يوضع في الفم مباشرة، من جسده مغلفا على مدار

الساعة برائحة مزعجة. كل هذه المواصفات تجعل من المستحيل تصديق قصص المغامرات التي حدثني عنها. لكن كل شيء جائز، قلت لنفسي وأنا أرى الفتاة تقف في المدخل وتندمج معه في حوار هامس، وضحكات خافتة.

وتأكد لي أن علاقة ما تربطهما بعد أن بادر نادر وضم الفتاة إلى صدره وبادلته هي المشاعر ذاتها.

جاء نادر سريعا إلى الغرفة واتجه إلى الكومدينو. أخرج من تحت صحن مقلوب ذي لون أخضر أوراقا مالية، ثم عاد ليناولها إلى الفتاة. احتسيت كأسا من النبيذ، وسمعت انطباق الباب بعد أن رحلت الفتاة.

ما الذي جرى؟ فكرت مع نفسي. هل أن وجودي فوت عليه فرصة لقائها؟ هل هي عاهرة ناولها نقود المضاجعة السابقة؟

عاد نادر إلى الغرفة مبتسما، وقال بعينين ضاحكتين شاكتين: هل تعرف الفتاة؟ سألني. كلا. هل هي عشيقة جديدة؟ هذه كارين ابنتي. كان عمرها عشر سنوات حين غادرت أنت البلد، كبرت أليس كذلك؟ غير معقول! تلك الفتاة الصغيرة التي تركتها كبرت على هذه الشاكلة! تبدو جميلة، وأين تعيش الآن؟ مع أمها. استجدت أحداث كثيرة في غيابي؟ الحياة تبدو راكدة هنا لكن هناك دائما ما يحدث.

نحن نكبر، من دون أن نحس بالزمن، لكننا نراه على أجساد غيرنا.

حين أفكر بالوقت الذي كانت فيه كارين صغيرة أحس وكأن الأمر حدث البارحة. لكن أنظر هي الآن في السابعة عشرة من عمرها. كان

نادر يقطن حينذاك في شارع استد كاذا، وسط المدينة بعد أن انفصل عن زوجته البولونية، الباشا. أصبحت شقته مكانا لتجمعنا في عطلة نهاية الأسبوع، وهناك رأيت كارين. فتاة صغيرة حائرة بين لغات عدة، أبوها عربي، أمها بولونية، وتقطن في بيئة دانماركية، وكانت تجلس بيننا ضائعة بين اللغات تلك، حتى حولتها تلك الفوضى اللغوية إلى فتاة شبه خرساء. ونادر لا يتقن البولونية ولا الدانماركية، ويتكلم انكليزية ضعيفة جدا. وهي تتكلم البولونية المكسرة مع أمها، ولغتها في الروضة هي الدانماركية. لذلك كثيرا ما كان تفاهمهما بالإشارات، الأمر الذي أصبح مثار تندراتنا خاصة في لحظات السكر.

بعد مرور ساعة تقريبا اتصلت كارين بنادر على الهاتف الأرضي وقالت له أحبك، وجاوبها ضاحكا، ناظرا إليّ بنشوة: أحبك أنا أيضا. لم يتبادلا أية كلمة عدا هاتين الجملتين، مع قهقهات نادر المتقطعة. ثم أغلق الخط الأرضي، ومشى نحو الثلاجة وجلب قليلا من السنوس وضعه بين أسنانه الجانبية وجلدة الفم. حدثني طويلا عن فوائد السنوس، ومنها رخصه ويمكن للشخص استخدامه في جميع الأمكنة حتى تلك التي يمنع فيها التدخين، عدا عن طعمه اللذيذ كما قال.

خلال ذلك الحديث كانت عينا نادر الثاقبتين تخترقانني، كعادته، وكما خبرته قبل اليوم. وكأنه يقول لي دون كلام حدثني عن بغدادك التي جئت منها. لكن عن أي بغداد أحدثه؟ الجثث مجهولة الهوية في الشوارع، دجلة الملوث بنفايات مدينة الطب والمجاري الألف المنفتحة عليه، البيوت المهدمة بفعل القصف، آثار الرصاص على

لمجسرات، أم الكهرباء التي تحولت إلى شبح في مناماتنا؟ هناك بغدادات كثيرة في داخلي، أعرفها جيدا: شوارع المنطقة الخضراء، لأسوار العالية المحيطة بالمباني والحارات، زحمة السيطرات، صوات الأنفجارات المرعبة، أم ذلك العنف الذي كنا نتنفسه مثل لهواء، كل يوم وكل ساعة؟ وتلكما العينان غير الواثقتين تنتظران لمقابل أن يوافق على ما يقوله اللسان، والوجه، والأفكار، مهما كنت بسيطة وتافهة .

هذا هو نادر راديو، كما عرفته في طهران ودمشق، لم يتغير، لا شكلا ولا فكرا.

لكنني تغيرت كثيرا، وهذا ما أدركه بوضوح.

(٤)

بعد مرور اسبوعين من وجودي هنا لم أستطع رؤية جميلة ونجمة رغم محاولاتي للإتصال بماري. لكنني خلال ذلك حصلت على عمل في شركة دي أج أل للبريد السريع. وهذا ما يعتبر وقتا قياسيا. لقد تجاوزت مرحلة العيش على المساعدات الإجتماعية التي تقدمها الدنية للعاطلين عن العمل، ويفترض أنني سأعيش من عرق جبيني. كما أعرف من خبرتي السابقة في هذا البلد أن العمل هو قضية أخلاقية ولا ينحصر الأمر باستلام راتب فقط. العطالة عن العمل تعد نقيصة اجتماعية. لا الجنس أو التدين من عدمه، ولا الكرم أو البخل. العمل يعكس، بنسبة ما، شخصية الإنسان.

حصلت عليه عن طريق نامق، فله قريب يعمل هناك رئيس عمال، مما سهل لي الدخول في تلك الشركة. وكان أول عمل حصلت عليه في هذا البلد سنة ألف وتسعمائة وتسعين، وذلك في مدرسة اللغة المسماة كيس، قرب الكاتدرائية، وهو عمل يخص كل شيء في تلك المدرسة. في تلك المدرسة كنت أقوم بكل شيء كما قلت، عدا تدريس اللغة الدانماركية للأجانب الذي يتكفل به مدرسون مختصون باللغة. وهي المدرسة ذاتها التي تعرفت فيها أول مرة على زوجتي السابقة ماري، الفتاة السمراء القادمة من ساوباولو.

في ذلك الزمن لم يكن الحصول على عمل للأجانب سهلا، فعائق اللغة كان سيفا مصلتا على رقابنا، عدا عن وجود عنصرية تجاه الأجانب في سوق العمل. هم يفضلون دفع رواتب البطالة عن العمل على أن يفسحوا لنا مساحة لدخول السوق. لذلك اعتبره أصدقائي ضربة حظ موفقة لي، وكان منهم نامق ونادر، اذ دعوتهم إلى وليمة على حسابي حين تسلمت الراتب الأول، في غرفتي الواسعة، الكائنة في منطقة أوستر برو، ليس بعيدا عن بحر البلطيق.

كنت أفيق منذ السادسة صباحا، وأركب الباص نحو مركز المدينة، لأبدأ عملي حوالي السابعة. مسح الممرات بالماء والصابون، ترتيب الطاولات في الصفوف، تنظيف سلال المهملات واستبدال أكياسها البلاستيكية، عمل الشاي والقهوة ووضعها في مكان عند الممر، ثم التهيؤ لاستقبال الطلاب منذ السابعة والنصف، حيث يبدأ التدريس عند الثامنة. طلاب من مختلف بقاع الأرض، من العراق وايران ولبنان وتشيلي والصومال، ومن بلدان أوربا الشرقية، نساء ورجالا جاءوا لتعلم الدانماركية بطريقة مدرسة كيس، المميزة بسرعة تعليمها وفرادته، إذ كانت تعتمد على الحفظ الببغاوي، الجمل الطويلة، والكلمات الصعبة، والتمارين المباشرة التي تدخل المتعلم فورا إلى اللغة، إملاء ومحادثة وكتابة وقواعد.

وجدت نفسي مبهورا بهذا الوسط الكوزموبولتي الذي يحيطني، حيث يمكن للمرء أن يسمع اللغة الإسبانية والإنكليزية والسواحيلية والعربية والبولونية والفارسية أثناء تناوله للقهوة والبسكويت في الصباح. تلك الصباحات غيرت في داخلي كثيرا من المسلمات والبديهيات والتابوات التي كنت أحملها منذ أن خرجت من الوطن.

غتنا لم تعد أجمل اللغات، وبلدنا لم يعد أجمل البلدان، وديننا يس الدين الوحيد في هذا العالم الشاسع، وأفكارنا ليست بالضرورة ن تكون على صواب دائما.

حين يدخل المدرسون والطلاب إلى الصفوف أصعد إلى غرفتي في الطابق الثاني التي كانت بمثابة المكتب. غرفة مكتظة بامتياز. كانت هناك آلة الطباعة حيث أقوم باستنساخ محاضرات الطلاب عات النسخ، وماكنة الفوتوكوبي، ثم كارتونات البيرة والنبيذ التي تجلبها المدرسة لتقدمها أثناء الإحتفالات السنوية وحفلات التخرج لصفوف المنتهية، إضافة إلى أكياس المازة المتكونة من البسكوت لمملح وبعض المعجنات والجبس والفستق الحلبي. سألني مدير لمدرسة ينس في اليوم الأول من عملي إن كنت أحتسي الخمور قلت له نعم، فقال لي بإمكانك تناول البيرة والنبيذ في فترات لإستراحة، من المخزن. لذلك كنت منتشيا أغلب الأيام، أنوع بين بيرة التوبورغ والنبيذ الفرنسي أو الإسباني سواء منه الأحمر أو لأبيض. سمحت لي الإدارة كذلك بتعلم اللغة مشاركا طلاب لصفوف المبتدئة، مثل أي طالب آخر ومجانا. وهذا امتياز آخر أضيف إلى امتياز العمل.

ذات يوم وكنت أنهيت تنظيف الممرات والصفوف، وأنجزت إعداد الشاي والقهوة، فتحت الباب لأول الطلاب الواصلين وكانت أمامي فتاة سمراء متوسطة الحجم، ذات شعر أسود خشن، ووجه يحمل ملامح دقيقة، الأنف والفم واستدارة الحنك، تكاد تشبه ملامح النساء العربيات، ونحن كنا كالعادة نتخاطب باللغة الدانماركية أو الإنكليزية مع الأشخاص الذين لا نعرفهم. بدأت

الفتاة الحديث معي باللغة الإنكليزية، لم يكن كلاما متعثرا متحفظا بل كان حديثا أليفا كما لو كنا نعرف بعضنا منذ زمن طويل. كان اسمها ماري وهي قادمة من البرازيل، وتحديدا من مدينة ساوباولو. وطبعا في مثل هذه المواقف لا بد أن يكون جورج أمادو حاضرا، باعتباره الكاتب الأكثر شهرة في البرازيل والعالم، وكانت المرة الأولى التي أعرف فيها أن البرازيل تتكلم اللغة البرتغالية وليست الإسبانية كما في كل دول أمريكا اللاتينية، الإكتشاف الذي أذهلني حقا، وأشار لي إلى جهل في ثقافتي، وأن ثمة الكثير في هذه الحياة لا أعرفه.

وكما لو أنها ارتاحت إلى حواراتنا الصباحية، ونما فيها ود خفيف نحوي، قد يصل إلى حالة الإعجاب، لاحظت أنها بدأت تصل المدرسة قبل الجميع، وفي الموعد ذاته، لنتقاسم فنجان قهوة مع الحليب ونثرثر عن كل ما يخطر في بالنا. نقتنص ربع الساعة هذا بكلام فيه كثير من الحميمية والإلفة، عرفت من خلال ذلك أنها جاءت إلى الدانمارك صدفة، وعبر مجلة تعارف، كانت منتشرة بين الفتيات في مدينتها كابريوفا التابعة إلى ولاية ساوباولو البرازيلية، مجلة التعارف تلك هي مجلة انكليزية، تنشر عناوين لشباب وبنات من مختلف دول العالم، وقد عثرت ماري على عنوان زوجها الدانماركي في تلك المجلة، لتتم المراسلات بينهما، وتبادل الصور، وليتوج ذلك بالزواج.

كانت تسكن في بيت صغير في منطقة فالبي مع زوجها الدانماركي، لكنها بعد سنتين اكتشفت الحقيقة المرة، هي أن زوجها مدمن كحول، وعرفت كل تلك المعلومات من خلال أحاديثنا

صباحية القصيرة. كان أول موعد لنا خارج المدرسة اقترحته ماري، في مقهى الكليب تري، وهي مقهى أعرفها جيدا وتقع أمام المكتبة العامة لمدينة كوبنهاغن، ولا تبعد كثيرا عن برج المراقبة الواقع في شارع المشاة. أظنها لم تبلغ الثلاثين بعد، كنت أجلس معها وأمامنا فنجانان من القهوة بالحليب، أستمع فقط، وكانت ماري تأخذني بالحديث يمينا ويسارا، من مدينتها الصغيرة المسماة كابريوفا التابعة لساوباولو إلى الأمازون إلى الفافيلا، وهي حزام الصفيح المحيط بساوباولو المدينة، حيث تنتشر الجريمة والمخدرات وأطفال الشوارع، وانتهاء بعائلتها المكونة من أربع أخوات وأخ واحد يعمل طبيبا في مستشفى كابريوفا المركزي.

عينا ماري البنيتان قلقتان، فيهما خوف كامن من شيء لم أستطع تخمينه، وفي حركات يديها وشفتيها عصبية واضحة، وتضحك بعض الأحيان ضحكة مصطنعة لم أفلح بمجاراتها بها فكنت أحس بالإحراج لذلك فأميل بنظراتي إلى ساحة المكتبة العامة لكوبنهاغن. حشد من البشر يتجه إلى مكان ما، وحمامات تحت شجيرات برية تلتقط فتاة الخبز والصوصج التي يرميها لها الأطفال والمشردون، والضوء العكر لشتاء كوبنهاغن المسيطر على الجو في الخارج.

تعرفت على ماري في بداية الشتاء، وكانت تأتي إلى المدرسة بمعطف من الفرو يظهرها أكبر من حجمها، وهذا ما دعاني إلى الإستنتاج بأنها شخصية تريد أن تكون أمام الآخرين في حجم أكبر مما هي عليه. لم تشكل لي ماري في تلك الفترة من حياتي سوى حالة طريفة، تتكرر معي كل صباح، حيث ألتقيها في أيام الأسبوع عدا يومي السبت والأحد، يومي العطلة في الدانمارك. كنت وقتها

مشبعا بتأملاتي الروحية، خاصة حين أركب الباص صباحا فأنغمر في عالم الضباب المنتشر على البحيرة، والأشجار الصانتة التي لا يبين منها سوى السيقان، تلك الأشجار التي كنت أتخيلها بشرا مقلوبين إذ تمتص غذاءها من الأسفل وتتنفس من تيجانها المندغمة في الفضاء.

تلك السنة، وعبر تأملات صباحية عميقة، وعزلة متكررة، أجريت مراجعة تفصيلية لمسار حياتي منذ خروجي مع نامق سبنسر إلى الجبال وحتى لحظة تعرفي على الفتاة البرازيلية المسماة ماري. وكالعادة تعرف نامق ونادر على ماري في أكثر من مكان ارتدناه معا، مقهى السمر سكو ومقهى الكليب تري ومقصف باتانا ريبابليكا الواقع في بداية نوربرو. قالا لي عليك بها تمتع فهي تمتلك جسدا أسمر جذابا ومؤخرة راسخة، وكنت أحدثهم عن شخصيتها بالتفاصيل. وإن طبقنا عليها معايير الجمال كما قال نادر فهي جميلة لولا شعرها المكزبر الذي يظهرها كما لو أنها عراقية من البصرة.

وحتى في الأحلام لم يكن ليخطر في ذهني في ذلك الوقت أنني سأتزوج ماري ويصبح لدينا فتاتان وأنني سأسافر معها إلى البرازيل، وتحديدا إلى ساوباولو. ذلك لأنني نظرت إلى المسألة على أنها لهو فقط، وقضاء فترة قصيرة مع امرأة غريبة الأطوار. اعتبرتها مغامرة لن تأخذ وقتا طويلا، لكنها امتدت ما يقرب الثماني سنوات بكاملها. وقد أضيفت ماري إلى انجازاتي الفذة ومنها الحصول على عمل، فليس من السهل الحصول على امرأة برازيلية في هذا المكان. وكانت أولى مشاريع ماري هي أنها ستبدأ بتدريسي اللغة البرتغالية، وأنا تجاوبت مع المشروع كونه يسهل لي أمر استدراجها إلى

غرفتي، وهذا ما حصل بعد أقل من شهر من تعرفي عليها.

علمتني في غرفتي رقصة السامبا وأغاني الكرنفالات التي تقام سنويا في ساوباولو وروت لي قصصا عن رعاة البقر، وأشهر فواكه، واسم المشروب الوطني، وعالم القهوة والكاكاو والثراء الفاحش للطبقة العليا، وكانت بعض الأحيان تؤدي لي رقصة السامبا على موسيقا تجلبها في أشرطة نضعها في المسجل الصغير وتبدأ ماري بالتمايل البطيء ثم محاولة جري معها إلى حلبة الرقص، وهي المسافة المحصورة بين سريري والخزانة العتيقة التي أضع فيها ملابسي، وكانت مويجات بحر الشمال تتراءى مثل حقل من الحديد.

لذلك كلما أتذكر عملي الأول في الدانمارك أتذكر ماري، اندمجا سوية في حياتي، وشكلاها للسنوات التي تلت. من ضمن نظرياتي التي أرددها لأصدقائي في تلك الفترة هي أن العمل الذي لا يوجد فيه نساء لن يكون ممتعا، وهذا ما ظللت اؤمن به حتى استلام عملي الجديد في شركة البريد السريع. كان عملي فيه كثير من النساء وهذا ما أفرحني منذ اليوم الأول الذي دخلت فيه أبنية الشركة. وكان عملي في الشركة راح يستهلك وقتي كله. كنت خلال ذلك مثل حداد يشتغل في صناعة الساعات. الجميع يعرف شركة الدي أج أل، وهي شركة بريدية للتوصيل السريع، ولديها فروع في كل دول العالم، ومنها بغداد، وكان مقر تلك الشركة في فندق الشيراتون قريبا من ساحة الفردوس. كنت أمر بتلك الشركة يوميا أثناء عملي في بغداد مترجما بواحدة من جرائد العاصمة. كنت أتذكر ماري، وأمواج البحر، والسفن العائمة في الأفق، كلما مررت من هناك.

في هذه الشركة حصلت على عملي. حصلت عليه عبر شخص عراقي اسمه يوسف يشتغل هناك رئيس عمال. قال لي نادر إن أردت العيش برفاه هنا فما عليك سوى ايجاد عمل. بدون عمل لا تستطيع الحصول على بيت أو راتب لائق. هناك في الشركة قابلت جاوانا قرب مكب النفايات خارج البوابة العالية للشركة. جاوانا كانت تركب فرسها الحديدي، وأنا أيضا، للتخلص من الكارتون الفائض، والبلاستك، وبقايا الأوراق، والأخشاب التي عادة ما تتناثر في ممرات الشركة، وعند أماكن العمل. والفرس الحديدي آلة نقل تشبه الدراجة الهوائية، تعمل على بطارية كهربائية، نستخدمه للتنقل من صالة مخزن إلى أخرى، فالمسافات داخل الشركة أحيانا طويلة.

في بغداد كنت حين أتأمل أسرح بصري في السماء من السطح، وأراقب النجوم البعيدة وأنا مسحور بهذا الغموض الذي يحيط حياتنا، ولأن الموت صار هاجسا يوميا، يمكن مواجهته في أية لحظة، أتخيل روحي سابحة بين النجوم ما أن يحدث انفجار أو سيارة مفخخة أو تبادل لإطلاق نار قريب مني. أو أصفن في بار صغير هو الفارابي، لا يبعد كثيرا عن المكان الذي عملت فيه مترجما، وأنا أتملى في وجوه الجيل الجديد من الشاربين، الجيل الذي لم يسمع بهجرة نامق عبر الجبال، وبحثه عن حياة أخرى غير التي عاشها في شارع الرشيد وعلاوي الحلة وحي الدوريين، ولا عاش الحرب التي استمرت ثماني سنوات، وفي وقت هبوب الغبار على سماء بغداد، أقف في حديقت البيت الصغيرة مادا بصري في ذرات ذلك الغبار الأحمر الملتصق بسعف النخيل والمآذن وشبابيك البيوت والوجوه التي تتحول إلى أشباح. كانت تأملاتي تقودني إلى الموت دائما.

إما في الشركة، فقد دأبت على الجلوس خارج الباب، في فسحة عريضة لا يحجزها أي حاجز عن المياه، في أوقات الاستراحة التي تستغرق ربع ساعة فقط، كنت استثمرها في التحديق بذلك الموج الأزرق، أو البني، أو الشبيه بصهير الحديد حسب الوقت من النهار. أجلس متأملا أيضا. فأنغمر مع سيجارة برنس دانماركية في حيواتي الماضية، أنا المتمرد على الأمكنة، البحار السائح على أديم الأرض بين القارات، أتذكر تفاصيل حياتي في كل مدينة عشت فيها، ومع كل امرأة صادفتها في حياتي. توحدي في أوقات الاستراحة هي التي جعلتني ربما أشعر بأنني غريب بين عمال الشركة، وهم بدورهم بادلوني الشعور ذاته. إذ عدا يوسف، قريب نامق، نادرا ما كنت أتكلم مع أحد. أسمع توجيهات يوسف في العمل وأنطلق لتنفيذ واجبي.

في إحدى الظهيرات، وكانت الشمس مشرقة، والبحر هادئ، والنوارس تتطاير في الأفق كله، اقتربت فتاتان عاملتان معنا، وعرفت أن اسميهما سوزان وجاوانا، وجلستا قريبا مني على ثيل الأرض، وسألتاني عن اسمي ومن أي البلدان أنا، فبدأ بيننا حديث عام عن العمل، والدانمارك، والعلاقات بين العمال، وسهرات الويك ايند، ورحت أحدثهما عن البحر، والخط الرمادي البعيد الذي أراه مثل غيوم في حلم. كان ذلك الجانب الآخر من البحر، حيث تكون مدينة مالمو السويدية. سألتاني أين أعيش فأخبرتهما مع صديقي نادر، فبدأت جاوانا تحدثني عن صعوبات السكن التي تواجه البولونيين هنا، خاصة وأن معظمهم يأتون فترات محددة للعمل، جمع كمية من النقود، ثم العودة إلى بولونيا من جديد.

عرفت أنهما تعيشان في غرفة بشارع ياكتا وي، في منطقة أوستربرو، في غرفة واسعة في الطابق الثاني، وتطل على البحر من بعيد. قالتا لقد استأجرتاها بالأسود من شخص عراقي اسمه نائل، يعيش مع صديقته الدانماركية ويؤجر غرفته من الباطن. راودني إحساس أنها الغرفة ذاتها التي قطنتها قبل عشرين سنة. لكن ذلك يشبه الخيال إن صح التوقع. وخفت أن اسألهما إن كانت الغرفة تتدفأ عبر مدفأة على الفحم والخشب وتتوسط الغرفة، أو أن شبابيكها تنفتح على مشهد واسع من الأمواج البعيدة.

قالتا نبحث عن سكن، فالبلدية عرفت بأن نائل يؤجر الغرفة بالأسود وهي تهم بطرده، لذلك طلب منا المغادرة لأنه يريد العودة إلى غرفته. في وجه جاوانا تمرد نسائي ملحوظ، وفي وجه سوزان بلادة، رغم أن تقاسيمها تحمل مسحة من الجمال. لكنني هجرت الطريقة القديمة في التعامل مع المرأة التي أشتهيها، الطريقة التي مارستها مع ماري في تلك الفترة من حياتي. وهي تتلخص في أنني أثير إدهاشها، أثيره لدرجة أنني أنالها، أجعلها تتعلق بي، لذلك بينت لها اهتمامي بالموسيقى وخاصة السيمفونيات الكلاسيكية، واطلاعي على أحوال بلدها من خلال الكتب التي قرأتها عبر روايات، وسير، تناولت الغزو الأبيض للقارة البعيدة، معتمدا على ما حصلت عليه من تلك الكتب. أخبرتها عن حكاية ظلت عالقة في ذهني ووجدتها غريبة، وهي أن نساء المكتشفين أو الغزاة البيض، كن يستأجرن عددا من الهنديات لكي يتكفلن بمسح مؤخراتهن، وتنظيفها، كلما قضين حاجة وسط الغابات البكر تلك، بينما كن يرافقن الحملات المسعورة للسيطرة على البرازيل. وجدت في

لحكاية مفارقة غريبة قلت لها، فهن يعتقدن أن النساء الهنديات جنسا أقل من البشر. أما حكاية تقطيع الهنود الحمر وإطعامهم لكلاب المستكشفين فجعلت فمها يفغر بالدهشة، وأخبرتني أنهم في عائلتها المتحدرة من أصل برتغالي وجاءت مع المهاجرين لم تكن تتعرض لقصص وحكايات مثل تلك. الأكل بالشوكة والسكين، أكل لحم الخنزير، الاستمتاع باحتساء النبيذ والجعة، الإيمان الشديد بالحب عبر امرأة واحدة ورفضي لفكرة الإقتران بأكثر من امرأة، عدا عن التوق الشديد للبحر والطبيعة والعلاجات الروحية المستندة إلى التسامح والاستيعاب للناس وعدم الحكم عليه مسبقا، وغير ذلك من مواصفات استعراضية لشدها نحوي.

الإستعراض الذكوري لجعلها تتعلق بي كلفني تجربة حياة كاملة معها، وقادتني لاحقا إلى الارتباط بها، زواجها، والسفر معها إلى بلدها، ثم الطلاق لاحقا، وهذا ما لا أريده اللحظة في التواصل مع هاتين الفتاتين، خاصة جاوانا ذات الجاذبية الفائقة. طريقة الاستعراض اكتشفت لاحقا أنها تقود الرجل إلى غض البصر عن الآخر، ومساوئه وعيوبه وحجمه الروحي ومستقبل العلاقة معه. في حين ثمة طريقة أخرى توصلت اليها لاحقا، بعد طلاقي من ماري، وهي أنني ألتقي بحذر، وأنظر بعمق إلى المرأة التي تقترب مني، وأراقب سلوكها، وأقوالها، وكيف تفكر، وأحتفظ بحجمي الحقيقي في الداخل، بل وأتعمد أحيانا إظهار جزء ضئيل مما أملك، لأرى قدرة الآخر على تقدير حجمي هو بنفسه. وأظنها هي الطريقة الناجحة لاكتشاف المرأة التي يضعها الزمن في متناول يدي.

اقتصر حديثنا على أزمة السكن في هذا البلد خاصة للأجانب،

وتفاصيل العمل في الشركة، والربيع القادم، ومسراتنا في عطلة نهاية الأسبوع، وما تختلف به الفتاة البولونية عن الدانماركية والعربية. وسرقنا الوقت في الحديث، وكنت بين حين وآخر أنظر إلى ساعتي، إنها في بغداد وقت نهاية الدوام، سيخرج سامر وسنان الشاعر من الجريدة، كما دأبنا على ذلك قبل سنة، وسيتجهان إلى مشرب الفارابي، وسينتحيان زاوية قرب البار، وسيطلبان كالعادة ربع عرق زحلاوي، مع مزة مشكل، وينتظران مجيء الأصدقاء الباقين من جرائد ومجلات ومدارس وأعمال حرة لتنعقد الجلسة إياها، وليصبح الحديث ذا شجون، بالضبط كما كان يحصل لي معهم، وكان البحر مليئا بالنوارس والسفن المسافرة بين المحيطات، وكانت شمس بداية الربيع تتغلغل بين غيوم كوبنهاغن الكثيفة. ولم نحس بالوقت حتى جاء يوسف إلينا وطلب منا الدخول، فساعة العمل بدأت منذ خمس دقائق وأكثر. وغدا هو عطلة نهاية الأسبوع، وينتظرني نادر الليلة لنسهر مع نامق وربما تأتي كارين، بعد أن أعددنا كل ما يلزم للسهرة.

(٥)

مدخل الشقة ضيق ومعتم، والرائحة فيه معلبة، لها علاقة بهذا الشخص المسمى نادر، أو بما يجري في الشقة من طبخ، وشرب، ومضاجعات، وحتى أفكار، تحيل فضاء البيت الصغير إلى جحيم يومي من التأملات والأوهام والضغائن. وذلك في صغائر الأمور والأشياء. شباك غرفتي مغطى بستارة من القماش الداكن، مما جعل الرؤية شحيحة جدا. والشباك يطل على الشارع الفرعي، لكنني استطعت تمييز السرير الضيق تحت النافذة، والمكتبة العالية المرصوفة بالكتب، والخزانة الطولية التي رصت عليها تماثيل خشبية، وألعاب أطفال، وأجهزة تلفون عاطلة ذات أشكال مختلفة. أنا في مكان مجهول من هذه العاصمة الضاجة، الغريبة الأطوار. العاصمة التي اقتحمتها بعد غياب. عقد من الزمن. وهذا ما جعلني أؤمن أن رحلتي ليست سوى مغامرة. مغامرة وجودية لكائن يعود إلى مكان فارقه، مع قطيعة تكاد تكون شبه تامة.

هذا على ما أظن يحدث نادرا للبشر على كرتنا الأرضية.

ثمة أشخاص قد لا يتجاوزون الألف يمرون بحالة كحالتي، في هذا المكان على وجه الخصوص. لكن على أية حال لم أكن الوحيد على هذا الكوكب، وهذا أمر يجلب لي السلوى. أعتبر ذلك جزءا

من لعب الحياة القصيرة التي نحياها، تغادر مكانا ألفته ثم تعود اليه بعد سنوات وترى ما تغير في روحه. كنت أجد متعة في ذلك. أحيانا تتجدد المتعة مع أشخاص قريبين أيضا، حين نعود اليهم بعد عقد لنقع في حبائل الأسئلة ذاتها: ما الذي تغير فيهم؟ في أفكارهم، تعابيرهم، نظراتهم، جواهرهم التي طالما عرفناها ذات يوم. جزء مهم من الحياة التي عشتها طوال سنواتي الخمسين هي الأحلام. كنت أعتبرها وصلة لا غنى عنها في نسيج السنين والأعوام التي تشكل الكائن البشري، الكائن المدعو أنا. العراقي الحائر في حياته، الذي لا يعرف أين يجد الأمان. كنت أرى الأحلام في شارع فلسطين، وحي المعلمين، وفي شقة صديقي الشاعر سنان الذي عاش عشر سنوات في جحيم المعسكرات، وكان آخرها الجبهة المتقدمة في قاطع المحمرة التي تسببت له بشلل في يده اليمين، بعد سقوط قذيفة هاون قرب الساتر الذي يحتمي به.

قبل أن أفيق من نومي في غرفتي الموجودة في شقة بسيطة في منطقة اسمها سوذ هاون كنت أتمشى في شارع فلسطين، قرب المدخل الشمالي المؤدي إلى وزارة الداخلية. كنت أرى قبة النصب الخضراء المسماة نصب الشهيد، أمشي مستمتعا بشمس ربيعية وسماء صافية تطير فيها الحمامات صوب مدخل مدينة الثورة أو تغور في الجهة المقابلة نحو ساحة التحرير في مركز بغداد، حين أوقفتني دورية من الأشخاص الملثمين وطلبوا مني ابراز هويتي. منذ عشرات السنين وأنا أرتعب من الشرطة والجيش والميليشيات والعصابات، وهذا ما دفعني إلى الهروب، والركض باتجاه بيتي، وكان في ذلك الوقت يقع في حي المهندسين. وكانت ثلة الملثمين

تجري ورائي، واستغربت جدا لأنهم لم يطلقوا علي الرصاص. ركضت بقوة، وراح العرق يبلل رقبتي وصدري، وكنت أسمع دقات قلبي وهي تطرق بين الضلوع. أنا أواجه الموت لا محالة. ما أن وصلت قرب الكنيسة، واتجهت إلى مدخل الشارع المؤدي إلى بيتي حتى شعرت أنني بين مخالب الموت وأن لا فائدة من الركض. تحت شجرة الليمون المعرشة من وراء السياج توقفت لألتقط أنفاسي، وكنت في حالة استسلام كامل. في حالة تقبل كامل لفكرة الموت. في هذه اللحظة الفاصلة حدقت ورائي فلم أجد سوى شريط طويل من السيارات المارة في الشارع، وأبراج الكنيسة تنتصب في الفضاء. لم يكن ثمة أحد. لكنني كنت غارقا بالعرق، وبخوف بغداد التي ودعتها.

حين فتحت عيني لم أعرف لوهلة أين أنا.

هل أنا في منطقة حي المعلمين؟ في البتاوين، في بيت صديقي سامر، في الجريدة التي كنت أعمل فيها مترجما عن الإنكليزية؟ أين أنا؟ هذا أول سؤال تبادر إلى ذهني الخدر. ثمة ضوء مخادع ينتشر في الغرفة، وثمة صمت هائل يلفني. كان كومبيوتري الصغير يرقد على الطاولة المجاورة للسرير. جلست على الكومبيوتر، وألقيت نظرة على الجرائد العربية، ثم فتحت الإيميل وكانت هناك رسالة من صديقي سامر الذي يعيش في بغداد في حي المعلمين فتحتها بشوق. أخبرني فيها أنه استأجر شقة في حي البتاوين قرب مركز الشرطة، وهو في طريقه لكي يؤسس شركة صغيرة للتصميم. سماها تكوين. وعن أوضاع بغداد قال هي لم يتغير فيها شيء منذ أن غادرتها، ويعنيني أنا، الشيء الوحيد الجديد أن هناك حملة كبيرة على

الميليشيات. أخبرني أنه يقضي وقته كالعادة مع سنان، أما في شقته الصغيرة أو في مشرب الفارابي، وفي أحيان نادرة يمضي إلى نادي اتحاد الأدباء الواقع في ساحة الأندلس. تخيلت النخلة السامقة في البيت المجاور لحديقة الإتحاد، والطاولات المبثوثة على بساط من الثيل، وقطرات المطر وهي تنحدر من سماء غائمة لكي تحيل الشوارع إلى صفيحة واسعة من الطين والبلل.

انتقلت إلى الإيميل الثاني وفوجئت بخبر غريب لم أتوقعه أو أفكر به مطلقا. لم يكن هذه المرة من صديقي سامر، بل من أخي علي. كيف حصل على إيميلي لست أعرف. قد يكون حصل عليه من سامر، أو من جريدة من الجرائد، أو عبر أختي القاطنة في مدينة قدسيا القابعة على مشارف دمشق.

لم يرد ذلك الكابوس الذي رأيته ليلا على ذهني عبثا، كان استشرافا من بعيد. كان الكابوس رسالة بعثها لي كمال في لحظة موته. أو ربما في لحظة دفنه. رغم أنني لم أكن أراه كثيرا أثناء ما عشت في بغداد، لكنني كنت أزوره في بيته بين حين وآخر. كان بيته يقع في حقل زراعي ليس بعيدا عن نهر الفرات.

وقع الخبر علي مثل حائط حجري، لقد مات أخي كمال. وكان نادر غائبا، تواعد مع كارين في محطة كوبنهاغن المركزية كي يعطيها متني كرونة.

الغرفة معتمة وأنا أجلس على الكومبيوتر وحيدا في منطقة سوذهاون. إنها عطلة نهاية الأسبوع. وكانت الرسالة المقتضبة تقول إن أخي كمال مات في تفجير بسيارة مفخخة هو وإبنه زيد. ماذا علي أن أفعل وأنا أعيش بعيدا عنهم آلاف الكيلومترات؟ لم أصدق

نخبر، بل تعاملت معه، لأول وهلة، كما لو كان خبرا صحافيا يخص كائنا آخر. لكن عدم التصديق لا يعوض عن دوامة القلق والحزن التي استولت علي. هذا أخي. تذكرت طفولته، وتذكرت علاقتي به، وتعابير وجهه، وكلماته الأولى التي نطقها ما أن تجاوز السنة الأولى. تمنيت أن لا يرجع نادر في تلك اللحظة. أريد أن أبقى وحيدا في الشقة. وحيدا مع وجه كمال بعينيه الراقصتين كعميقتي السواد. لا يمكنني احتمال خبر مثل هذا. لكن أخبار بغداد السيئة لم تعد تفاجؤني. مسلسل العنف الذي يلاحقني من خلف البحار والمدن والجبال. علي أن أعبر حالة الصحو التي أنا فيها. نامق يستخدم الطريقة ذاتها، مرض عشتار قاده إلى الخمرة لينسى كما أخبرني البارحة في السهرة. قال إنه لم يعد يطمح إلى شيء في هذه الحياة، يعيش استسلاما كاملا، حياته محصورة في عائلته، إما عدا ذلك فيتركه إلى جيل آخر. جيلنا أكلته الحروب والهجرات قال، ثم أعد نامق الذي رأيته في الجبال وكوجه مروي ومخيم كرج ومساكن برزة. بكل صراحة مات ذلك الشخص، وما يشغلني اليوم هو مرض عشتار. لم يعد العراق يشكل لي أي هم، يعبر أحيانا كذكرى بعيدة ليس إلا.

أريد، أنا الجوال الأبدي، المسافر بين المدن والقارات، أن أصل إلى قناعة مثل قناعة نامق.

ركضت إلى سوبرماركت فوتيكس وجلبت قنينة من نبيذ نابليون الأحمر وعلبتين من بيرة كارليسبيرغ، وجلست في العتمة أحدق في ظلام الماضي. أخبرني نادر عبر التلفون أنه أعطى كارين النقود وهو الآن مع نامق، وهما يزوران مستشفى كوبنهاغن للإطلاع على حالة

عشتار. وكتمت خبر أخي عن نامق ونادر ويوسف، كتمته بجلادة نادرة، وقررت أن أعيش حزني لوحدي. لا أريد أن يشاركني أحد في أخي كمال. التعازي التقليدية في هكذا مواقف لا تعجبني.

تجلى الموت لي على شكل صورة قديمة لكمال، أو بالأحرى فيلم طويل بطله كمال، ينتهي دائما بتفجير هائل يضيء عتمة روحي. إنها قصة موت واجهها عشرات الآلاف من البشر في السنين الأخيرة. الموت واحد لكن حكاياته تختلف. السيناريو العنيف ذاته. منذ أن وطئت أقدامنا هذا البلد كلاجئين من الحرب مع إيران ونحن نعيش في حمأة ذلك الكابوس. كم مرة أفيق من النوم على أثر كابوس أجد نفسي فيه مطاردا من قبل رجال أمن وشرطة كونني هاربا من الجبهة؟ وكم مرة وجدت نفسي أغرق في ماء الفرات دون أن أجد يدا تنتشلني من وسط الغرين اللزج؟ الموت، بأنواعه كافة، إنه جزء من تفصيل صغير في أرشيف هذا العنف الذي نكتبه كل يوم.

حين هربت إلى الجبال مع نامق سبنسر تركته خلفي وسط أتون الحرب، يتنفس رائحة البارود منذ الصباح وحتى المساء، ويرى الجسد البشري وهو يقطع دون رحمة عبر القذائف والصواريخ والسلاح الأبيض. كان يشم رائحة التفسخ التي تنبعث من الموتى، خاصة أولئك الذين يتعطل نقلهم من خطوط التماس إلى المواقع الخلفية. كثيرا ما نام بين جثث، وأكل السندويش في برادات تنقل الأجساد المتراكمة بعضها فوق بعض كما حدثني لاحقا. فالحياة كما يقول، يجب أن تستمر، يجب أن نعيشها مهما كانت قاسية أو غير معقولة. اتصل بي، وكنت أعيش مع زوجتي السابقة ماري، في

منطقة فالبي، وكان صوته أشبه بنداء هابط من مجرة بعيدة. لم أميز صوته. حدث الأمر بعد عشر سنوات من مغادرتي البلد. وكان ذلك في نهايات الحرب، وكنت وقتها لم أعرف أنه كبر وصار يأكل السندويش مع الجثث في برادات لنقل الضحايا. لم أعرف ذلك طوال وجودي في أوربا.

لا أتذكر هل اتصل بي قبل أن أسافر إلى ساوباولو أم بعدها. أظن أنه اتصل بعد ذلك التاريخ.

وفيما كنت أنا أستمتع ببارات كوبنهاغن، وأمتص بيرتها السائغة، وأضاجع نساءها الشقراوات، وأغوص في أمواج بحر البلطيق الغاصة بالنوارس، وأتسكع في مخابئ كرستيانيا المحشوة بالحشيش والخمور والنساء، كان أخي كمال يعيش صفحة سوداء من صفحات أرشيف العنف.

ظل سنوات وهو يرى عيونا غائبة، وأيادي مقطوعة، ورؤوسا مشوهة، ونظرات معلقة في الفراغ، وشعورا محترقة، وملابس ملوثة بالدم وبقايا التراب العالق، والقش الذي كان مرة حقول قمح وذرة وشعير، ثم صار علامات على موت لا رجعة منه.

انتهت الحرب بهزيمة الجيش، وما أعقبها من انتفاضة عارمة عمت معظم المدن، فلبث في بيته منتظرا أن تهدأ الأمور، وتتضح الصورة. وهو في هذه الأثناء رزق بولد وبنت، ملبيا عبرهما عاطفة الأبوة التي يستمتع بها كثيرا. أكل الخبز الأسمر المخلوط بنخالة الطحين، وجلس على أضواء فوانيس قديمة، أسابيع وأسابيع، بسبب ضرب منظومة الكهرباء. رتق ملابسه العتيقة دون خجل، اذ لم يعد يتمكن من شراء ملابس جديدة، وزرع الأرض الصغيرة حول بيته

بالخضراوات كي يسد حاجات المطبخ. أيام لا يتمنى عودتها، ويلعن الذين وقفوا وراءها. يراقب ما يدور في البلد بحذر، وينتظر نهاية هذه المأساة التي لم تعد تحتمل. وصار شاهدا على وضع سياسي أسوأ، زاد القمع، وتشوهت الأرواح، وتلاشت الآمال بتغيير النظام، رغم أنه خاض حربين، ودخل في حصار خانق، وأصبح على عداء مع شعبه ثم مع العالم كله.

وصلتني ذات يوم رسالة منه وكنت في كوبنهاغن، أعيش مع ماري في منطقة فالبي، مع وجود بنت واحدة لدينا هي نجمة. كتب لي في تلك الرسالة أنه مشتاق لرؤيتي كثيرا، ويخشى أن أكون نسيت ملامحه، ولن أتعرف عليه. كم سنة مرت على فراقنا؟ وأرسل لي مع الرسالة قصاصات ورق عن خواطر كتبتها. قبل عشر سنوات، خمسة عشر عاما، عشرين، استلمت الرسالة، وكان الوقت صباحا. كانت ماري تطعم قطها بيليه في الحديقة، وتجهز الشواية لحفلة مسائية مع الأصدقاء. وما أن قرأتها واسترجعت القصاصات التي كتبتها ذات يوم وأنا في العراق حتى خرجت سريعا من البيت واتجهت إلى سوبرماركت فاكتا، القريب من شارعنا.

قررت حينها أن أسكر، لزوجتي، لنجمة، لكمال، لسنواتي الضائعة في الحروب، لغربتي، ولأحلامي التي لم أستطع الوصول اليها. قررت أن أرتقي بنفسي إلى عالم الخيال بعيدا عن الحاضر المليء بالأسئلة واللاوضوح والتوقعات.

نعم قررت أن أسكر حتى نهاية العقل الصغير الذي أمتلكه.

جلبت قنينة من نبيذ نابليون الأحمر الرخيص، وثلاث قناني من الكارليسبيرغ، وموالح، وكيسا من الصوصج، وعلبة من سجائر

برنس الدانماركية فئة عشرين سيكاره، مع أنني اعتدت على شراء فئة العشر سكائر. رغبت في أن أحتفل ذلك النهار برسالة أخي كمال. وهو ما فعلته حيث بدأت الشرب منذ الساعة الواحدة ظهرا حتى سكرت في الثامنة مساء على أصوات عدد كثير من المغنين العراقيين والعرب، أذكر من بينهم صباح فخري وفهد بلان وصلاح عبد الغفور، شلونك عيني شلونك/ شمخلي على عيونك/ شكد شفت عيون آنا والله ما شفت أحلى من عيونك/ ويوسف عمر وداخل حسن وأم كلثوم، التي سحرتني تماما بأغنيتها الفذة رباعيات الخيام. كانت ماري تحدق لي بذهول، وكيف صرت شخصا آخر غير الذي تعرفه. لم أعد ذلك الشخص الاستعراضي الذي طالما حاول إدهاشها لكي تحبه وتتعلق به. كنت معها على المحك. بضعفي وقوتي، بجمالي وبشاعتي، في بحر تفاصيل الحياة اليومية بين الذكر والأنثى التي تمتد سنينا ولا يعود ثمة أقنعة.

في تلك اللحظة قبل أكثر من خمسة عشر سنة كنت أجلس هناك في بيت فالبي، وكانت شجرة الكرز تتمايل في الحديقة، وإبنتي نجمة تحاول ازدراد القواقع تحت أشجار الآس. بين استلام رسالة أخي كمال وموته مرت السنون، وانفصلت عن ماري، وعشت في العراق مع صديقي سامر، وقطنت أكثر من بيت، وتعرفت على سنان الشاعر، وشربت حتى سكرت في مشرب الفارابي ونادي الإتحاد وبار السعدون القريب من شارع المشجر. وتوغلت ثملا في أمواج دجلة على ضفاف شارع أبي نؤاس، وحدقت مليا في أشجار المنطقة الخضراء التي تحكمنا اليوم هناك.

وها أنا اللحظة أتأمل بهذا الموت الذي يلاحقني في كل مكان.

الموت إذن يجول بيننا. لا نشعر به في الطفولة، وبالكاد نتحسسه حين نبلغ الرجولة، وفي الكهولة يبدأ صداه يتردد في الأذنين، وفي الشيخوخة، وبعد أن يتساقط الأصدقاء من حولك ميتين مثل أوراق الخريف، يصبح الموت حقيقة، بل يصبح حقيقة الحقائق.

دق التلفون أكثر من مرة فلم أرد، وقادني شريط يا ريم وادي ثقيف إلى دموع لم أكن أعتقد أنني أختزنها في عيني. أنا في النقطة صفر من وجودي، أجلس وحيدا وسط عتمة متراكبة، عتمة شقة نادر المطفأة الأنوار، وعتمة روحي الممتدة في سنوات الماضي. والكأس يصعد إلى فمي ثم ينزل. قضيت على ما جلبته من خمور وفتشت في أدراج المطبخ فوجدت بقايا من عرق دانماركي حاد الطعم يقطر من البطاطا اسمه سنابس.

ماري جاءت في رأسي تلك اللحظة، وكل حياتي التي عشتها معها في منطقة فالبي. كعادتي دائما حين تنساق روحي وراء ذكرياتي رجعت إلى الوراء. تلك السنة التي رحلت فيها مع ماري إلى البرازيل. توجت فترة معرفتي بها بزواج سريع، ثم رحلة إلى مسقط رأسها، حيث السرتاو، ورعاة البقر، والبيرة السرفيجا، والعرق البنكا المصنوع من قصب السكر. أية أيام كانت !!! شهدت عالما غير من رؤيتي للعالم من الجذور. عالم ليس بالأوربي ولا بالآسيوي، عالمي الذي جئت منه إلى برد الشمال. عالم جورج أمادو. أرض الخلاسيين والبنتي في الصادح على أشجار البباي. أرض السحر، والماكومبا، وباهيّا المشلوحة على المحيط. أرض الخلاسيين الذين يرقصون السامبا في كارنفالات ساوباولو وريوديجانيرو. أرض الأقنعة الأفريقية والتعاويذ السوداء، وخمرة

تقصب المقطر في حقول شاسعة تدعى السرتاو، يرعى فيها البقر والأحصنة والوعول، وتطير في أجماتها الببغاوات. أرض ثمارها من ذهب. كما وصفها روائي باهيا.

في هذه البلاد سأرى المنابع الخفية للسحر، وسأسمع الشعر ينابض بمعاناة الشعوب، هكذا حدثت نفسي ونحن نحط في مطار ساوباولو، بعد رحلة عجائبية تلعب على الزمن وحركة الشمس.

حذرني نامق ونادر وقتها من الرحلة. قالا لي تمهل، فالبرازيل قارة بعيدة، وسمعنا كثيرا من الحكايات حولها. قد لا تعود من تلك الرحلة. نسبة الجرائم فيها عالية، وأنت كمن يسافر إلى خارج المجموعة الشمسية. لكنني ركبت رأسي واندفعت باحثا عن المغامرة. فهي فرصة لن تتوفر لي إلا مرة واحدة في حياتي.

لا يسافر المرء، القادم من العراق، إلى البرازيل، إلى الأرض التي ثمارها من ذهب، إلا مرة واحدة في العمر. وهي فضاء آخر كما قالت لي ماري، يختلف عن أوربا وأكيد يختلف عن أي بلد عشت فيه سابقا.

استغرقت رحلتنا حوالي عشرين ساعة. أقلعت بنا الطائرة في السابعة مساء وأفقنا على شمس المحيط صباحا، مما يعني أن الزمن الحسابي يفترض أن لا يزيد على ست عشرة ساعة، فكيف حصل الأمر؟

سافرنا مع الشمس، لاحقناها عبر سماء غائمة تنسدل على أوربا، غير أنها راحت تشف وتشف فوق المحيط، لتصبح صحراء من الاستبرق، فوق سواحل باهيا المزروعة بسرطانات المحيط

وخلاخيل الخلاسيات. خرجنا إذا من خارطة الزمن البشري ما يقرب الأربع ساعات. علي أن أصبح هذه المرة نصف برازيلي. هل حقا كنت مغامرا لهذه الدرجة؟ هل كنت شخصا آخر غير هذا الجالس في غرفة وسط كوبنهاغن خائفا من ماضيه المليء بالعنف والموت؟ هل كانت الحياة أكثر جمالا في ذلك الزمن؟

كان الوقت هو الصيف حين رحلنا إلى البرازيل، لقد عشنا خلال عشرين ساعة فقط فصلين أرضيين. هناك ثلج وضباب، وهنا ثمار الباباي والجوافة وطائر البنتي في. سأرى المياه الجوفية لروح أميركا اللاتينية، أرض ماري، وألتقي سحرها وغرائبها وبشرها المعبئين بالثورات والرومانس وقصص الزنوج وحضارات ما قبل كولومبس. سأتنفس هواء الجزء الغربي من عالمنا، الجزء الذي كان ذات مرة جنة للهنود الحمر، وصار بعد أقل من قرن، مقبرة حوت جثمان أكثر من خمسين مليون هندي أحمر، واختفت بعدها حضارات المايا والأزتك والامبراطوريات التي تعبد الشمس وتضحّي بقلوب البشر قربانا للآلهة. الهواء سلس، لا يشبه هواء آسيا وأوربا، فيه عطر الغابات الأمازونية، كان يلعب بالفراش المداري المبقع الأجنحة، بين أغصان القصب وأشجار المانكا. له نكهة الراقصات، وطلاوة التماثيل، وجمال الجداريات الفنية المبثوثة على الطرقات.

في الساحات، وعلى أرصفة الطرق العريضة، أشجار لم أشاهد مثلها من قبل، ذات أوراق عريضة وسيقان طويلة، وتدلق ظلها على الزنوج والخلاسيين الذين يسيرون حاملين أمتعتهم، غير عابئين بالسيارات أو باصات النقل. من هؤلاء؟ سألت زوجتي. إنهم يبحثون عن الطعام. من أين يأتون ؟ قدموا من الشمال، من باهيا

والأمازون، مشوا آلاف الكيلومترات نحو الجنوب، حيث المصانع والمهن وتجارة المخدرات والدعارة، وسرعان ما يستقرون في تفافيلا. ماهي الفافيلا؟ مدن الصفيح التي تسوّر مدينة ساوباولو، لا يمكنك الدخول اليها حتى في وضح النهار، خاصة إذا كنت غريبا، أو لست فقيرا مثل سكانها. تفاجئك سكين من هناك، أو يد من هنا، تنتشل نقودك وحليك وحقائبك، حتى الشرطة تخشى الدخول اليها إلا في حالات نادرة.

أتذكر كل شيء الآن، بوضوح العقل الهارب من حاضره.

أتذكر الطيور وهي تعبر السماء وكانت ذات أشكال ملونة وتصدح بأصوات عجيبة، وكان ثمة طائر يتكلم، وببغاء تعطي الأوامر، وقط يأكل غطاء المائدة، وكلب يعابث السيدة. إلى أي جنس ينتسب أولئك البشر؟ سألت نفسي ورحت أدقق في الملامح، كي أقتطف توصيفا خاصا للمواطن، وكانت النتيجة مذهلة. لم يكن هناك أية ملامح موحدة بينهم، فالبرازيل مغطس للأجناس والحصيلة خلطة لا توجد الا في هذا البلد القارة: أنف زنجي وسط وجه اسكندنافي أشقر البشرة أصهب الشعر. شعر أصفر ينسدل على بشرة هندي أحمر له مؤخرة تشبه مؤخرات الأفارقة. شخص خلاسي يحمل عينين يابانيتين. جسد طويل بشعر مكزبر.

خلطة الجسد متحت من جميع الأعراق، فالبلد يحتضن الهنود، سكان البلاد الأصليين، إلى أن وفدت الشعوب الأوربية وجلبت معها الزنوج للعمل في الأرض أو للخدمة في البيوت. زوجتي ماري لم تكن أصولها من هذه الديار. هي متحدرة من البرتغال، عائلتها ربما من اليهود الذين تحولوا إلى المسيحية، أو ربما من المسلمين.

هي تشبه نساءنا العراقيات، نادر أول مرة رآها معي في شارع المشي في كوبنهاغن سألني إن كانت أختي جاءت لزيارتي. أن يعيش المرء حياة زوجية كان شعورا غريبا لي. الحياة الزوجية تعني الدخول إلى تفاصيل الشخص الآخر، تفاصيله الجسدية والروحية. واكتشفت آنذاك كم أن الأمر صعب ويحتاج إلى تسامح وتفهم واستيعاب، نادرا ما يمتلكها الشخص في هذا الوجود الكئيب. الآخر لي في مرحلة زواجي هو أغاني السامبا، والجوافة، والخلاسيين، وقصص جورج أمادو، وحكايات المهاجرين الإسبان، وطقوس الماكومبا المجلوبة مع الزنوج من القارة السوداء.

في تلك البلاد جاء اليابانيون متأخرين، ليحولوا قراهم التي قطنوها في الأرياف، إلى مدن عصرية تحاكي جزرهم البعيدة التي وفدوا منها. الشعوب الانكلوأوربية افتضت القارة، مدججة بالسلاح، حاملة إنجيلها المطوّب لخدمة الأسياد. تلامس قدماك الأرض التي ثمارها من ذهب، وتنطلق حولك الحكايات عن الماضي البعيد، عن الغزو الأوربي الأول والفظائع ضد الهنود. البرازيل من أقل البلدان في أميركا اللاتينية التي يوجد فيها هنود، إذ كانت الإبادة شبه كاملة. ومن تبقى احتمى بغابات الأمازون وحافظ على جنسه. الشعب الهندي في البرازيل لم يستسلم للغزاة، وفضّل خوض مقاومة شرسة حتى أبيد دون رحمة. في كتاب مصور عتيق كان هناك مشهد لا ينسى. لقد كانوا يقطعون أجساد الهنود الحمر ويطعمونها للكلاب توفيرا للحم الحيواني. لم يرض أي هندي بأن يكون عبدا للغزاة، وهكذا تم تنظيف شبه القارة هذه من سكانها الأصليين، وتحولوا بعد قرون إلى حكايات تقال للغرباء الباحثين في

منجم التاريخ. أما الزنوج فقد حملوا تاريخهم معهم، مثل صندوق باندورا، اختلط السحر لديهم بطقوس عبادة المسيح والسيدة العذراء. وفي زمن ما صنعوا لهم مسيحا أسود، فهو أكثر اقناعا لدخول الدين الجديد. جلبوا معهم عباداتهم الرعوية وأقنعتهم ورموزهم.

وذات يوم رأيت شارعا كاملا وسط ساوباولو لا يبيع سوى لأقنعة: منحوتات خشبية تروي تاريخ شعوب القارة البعيدة، وقد تحولت إلى حلم ضبابي وسط أحلام شعوب البرازيل كافة. آلهات ومحاربون وحيوانات مخيفة وعيون غير بشرية وأعضاء جنسية تعويذة للخصاء، وخرابيش محفورة بلغات بائدة وأواني مجسّمة عليها معارك حدثت في زمن سعيد. حين دخلت الدكاكين بصحبة ماري وأخيها الطبيب، ضعت في هواجس البشرية وديناناتها، ووجدت روحي منجذبة إلى ذلك الإنسان الضعيف، وهو يحاول تخليد روحه في منحوتة من خشب، أو في دعاء أو تعويذة لطرد الأرواح الشريرة أو مساعدة الخائفين.

في رحلتي البرازيلية، المياه الجوفية لتحولاتي القادمة، طالما سألت نفسي هذا السؤال: لم يرجع المقهورون دائما إلى الدين؟ وكيف يميّز الواحد ما بين الفن والعبادة؟ وهل تعني كل تلك الرموز شيئا أمام الأبنية العملاقة، والأسواق العصرية الضخمة، والمحلات بواجهاتا المذهبة؟

بعد يومين من وصولنا، ونحن نتجول في شوارع ساوباولو، تعلقت عينا زوجتي في السماء، ووقفت متأملة، هي ابنة هذه الأصقاع. قالت: علينا ايجاد مكان نحتمي به من المطر. لن تنفعنا

تعاويذ الهنود ولا أقنعة الخلاسيين. هل تمزحين؟ أين المطر، والشمس طالعة والسماء صافية؟ أنظر. ثمة بقعة سوداء في طرف المدينة، تسير فوق مدن الصفيح وأبراج العمارات وتمثال يسوع الذي يوزع بركاته من فوق الجبل على هذه المدينة العملاقة. لم تمض سوى دقائق إلا وصار المطر ينسكب على الرؤوس مثل قرب فالتة. لم ينزل على شكل قطرات إنما انهمر انهمار شلال مرعب. سالت الشوارع بالمياه، وغنّت الأسقف وفرغت الأرصفة من مشاتها، وهدر الماء نحو مسالكه. قضينا ساعة، في الكافتيريا ننظر إلى المطر والقطط ومزق الكارتون المنجرفة وبقايا الطعام الذي سرقه المطر من المشردين، وخلطة هذا الشعب المكتفي بعزلته. أشرقت الشمس على حين غرة، ضوء ساحر ينسكب على المحيطات والغابات. ماهي إلا دقائق حتى جفت الشوارع من جديد وعاد السائحون والأطفال المشردون وقطيع البشر إلى الشوارع. إنه المطر المداري، الذي تكلم عنه المغامرون الأوائل. يأتي فجأة ويمضي فجأة، أو يظل عالقا في السماء أياما.

على الأرصفة وفي زوايا الأزقة، عند البيوت المهملة وفوق الطاولات المتروكة في العراء، تراكمت علب كارتونية ضخمة، قربها أغطية وأطعمة وأعقاب سجائر وقناني. كائنات بشرية ممصوصة الأجساد كانت تشبه الديدان. خلال سنوات من عيشي مع ماري كانت تلك المشاهد تمثل بعدا نظريا قضت ماري ساعات لإيصاله لي. كانت تروي في ليالي الوحدة والبطالة تفاصيل حياتها التي تركتها وراءها. وكنت ألتقط تلك التفاصيل مثل تلميذ نجيب، مع جولات تطبيقية على أهم الفرق الموسيقية والكرنفالات والرقصات

التي عاشتها طوال عشرين سنة قضتها بين كابريوفا، وساوباولو، ومينيجيراوس، وريوديجانيرو. ودعت ماري كل ذلك وجاءت سائحة. أرادت أن تجد لنفسها مملكة هنا في هذا البلد البارد. مملكة بعيدة عن الأزتك والمايا والزنوج ومستعمرات اليابانيين وأسماك الأمازون القاتلة.

وكانت مملكة ماري بيتها. تلك الحديقة الصغيرة فارقتها عشر سنوات، بسياجها الواطئ المصنوع من الحديد، وشجرة الكرز القريبة من الشباك، ومنقلة الشواء. كانت دائما ما تأتي إلى خيالي، بعد أن عشت في أمكنة أخرى. يأتي ذلك القط بيليه قبل أن نودعه لدى الطبيب البيطري بلونه المرقط، وموائه الناعم، وكانت ماري تعامله كما لو كان طفلا صغيرا، فتبعد عنه السكاكين، والكهرباء، والأدوات الحادة.

خرجت من البيت وقد أصبح رأسي غائما من الأفكار والخمور واختلاطها. أريد أن أرى شجرة الكرز في حديقة البيت، وأسترجع آثار الجلسات الحميمة حيث كنا نشوي اللحوم ونحتسي النبيذ تحت شباك البيت. وربما أسمع مواء القط بيليه الذي كانت تحبه ماري.

تلك الحقبة التي ماتت، ألا تشبه حقبة أخي كمال وهو يحلق بعيدا في السماء، على أنغام انفجار ضخم، أمام بناية وسط المدينة؟

(٦)

شخص محشو بالذكريات.

لقد أعجبني هذا الوصف لنفسي، فمن دون تلك الذكريات أحس وكأن حياتي تكرر نفسها، وكأن السنين تتشابه، منذ شروق الشمس وحتى مغيبها، سواء كنت في شارع فلسطين ببغداد أو شارع ساوباولو الطويل المزين بالأقنعة، أو حي مساكن برزة في دمشق. مثل نائم يسير دون تفكير توجهت إلى ساحة البلدية. ركبت الباص رقم ستة من الساحة، وقررت أن أنزل في الموقف القريب من الشارع الذي يقع البيت فيه. ناكسكوفي ١٤، هو العنوان. وأنا خلال الرحلة أتخيل الموقد الموضوع في الحديقة وقد شوينا فيه اللحم والدجاج ذات سنة مع نادر ونامق برفقة النبيذ الأحمر، وأتخيل وجه ماري وهو يطل من الشباك مناديا على واحدة من البنات، نجمة أو جميلة، لقد كبرتا، سأراهما حتما، ربما ألمحهما صدفة في شارع نمشي أو عند أسواق فوتيكس أو حتى في نوربرو وسط زحمة الأسواق العربية والأجنبية.

خلال حياتي مع ماري اقتربت بعض الشيء من المزاج الشرقي في الطعام والشراب، وفي البهارات، وكثيرا ما تغدينا سوية في المطعم الإيراني المعلق في الطابق الأول في منتصف شارع نوربرو.

لذلك صارت تحب الكباب والشاورما والفلافل والكبة، بل وبدأت بتعلم كلمات عربية من الحوارات مع نجمة، وطلبت مني تسجيلها في مدرسة لتعلم اللغة العربية. اجتاز الباص سوبرماركت الفوتيكس، وعبرنا من تحت جسر القطار، وبدأ الطريق يصعد نحو منطقة فالبي حيث البيت، وبحيرة دامهوسن القريبة، والمقبرة، وبدأ قلبي يدق بين أضلعي. ماذا لو فاجأتني ماري وأنا أمشي أمام الحديقة؟ هل تتعرف على وجهي؟ وكيف أتصرف إذا ما كانت برفقة الفتاتين؟ وماذا عن جيراننا السابقين الذين عرفوا شكلي طوال سنوات قطنتها مع ماري في ذلك البيت؟ كريته كانت جارتنا المقابلة لبابنا، هي وعائلتها تنتمي إلى جماعة شهود يهوه المسيحية، كنت أراها تتعرى في حديقتها المجاورة لنا صيفا بلباسها الداخلي، وجسدها الأبيض الزهري. عادة ما تأتي إلينا لتشرب القهوة مع ماري، وتشتركان بحديث مسيحي حول العبادات، وكنيسة أميركا اللاتينية، وأحوال البشر. تقف أمام الظاهرة الغريبة التي نمر بها أنا وماري، وهي نسبة أطفالنا إلى دين معين، فهل هما مسيحيتان أم مسلمتان؟ هكذا كانت ماري تنقل لي الحوارات بينها وبين كريته.

وقتها لم أكن أعير أهمية لهكذا تساؤلات، فالمبدأ السائد آنذاك هو أن الطفل المشترك بين ديانتين سيختار، حين يبلغ سن الرشد، الدين الذي يلائم مزاجه ورؤيته. هل كريته اليوم على قيد الحياة؟ هل رحلت عن البيت؟ هل ما زالت تعيش هناك، وتنظر إلى البنتين على أنهما مسلمتان أم مسيحيتان؟ كنت أتساءل مع نفسي وأنا أقترب من شارع ماري.

كان علي أن أرفع يدي وأضغط على جرس النزول في المحطة

القادمة، لكنني تخاذلت وأحسست برجفة في قلبي. خذلني السكر ربما، أو خذلتني شجاعتي في مواجهة قطيعة دامت كل تلك السنوات. والماضي ينتصب سدا في وجهي، الماضي المرعب المصنوع من نساء أخر ومدن وبلدان وقصص وذكريات. الماضي المتحرك بأذرع كثيرة، أشبه بأخطبوط مداري. مواجهة الماضي تحتاج إلى شجاعة نادرة. لذلك لبثت في الباص حتى اقتربت من بحيرة دامهوسن، الواقعة بين فالبي وغذوه. البحيرة التي طالما زرناها أنا وماري في أيام السبت أو الأحد. هل تغيرت البحيرة أم أنا الذي تغيرت؟ البحيرة محاطة بأشجار الجوز البري والصفصاف، يحيط بها شارع اسفلتي صار قبلة للمتسكعين والشيوخ والعدائين. كانت البحيرة مكانا مفضلا لنا أنا وماري، مكانا للتأمل، وثمة هدوء يرين عليه، هدوء ينقل الانسان إلى مقامات روحية عالية.

اجتزت حدائق مزهرة، وبيوتا تشبه قطع الكيك الملون، وأزقة ضيقة، ودخلت البحيرة من جانبها القريب من منطقة فالبي. المكان الذي عادة ما ندخل البحيرة عبره أنا وماري، ولاحقا نجمة وجميلة. عشر سنوات مرت على آخر مرة رأيت فيها البحيرة. الأشجار المحيطة بالبحيرة استطالت وبدت عليها الشيخوخة. هي مثل ذكرياتنا. جلست على أول مقعد خشبي وجدته، وانفتحت أمامي صفحة الماء الزرقاء الساكنة، وثمة عداءون حول الماء، وثمة كلاب تتنزه مع أصحابها وكنت وحيدا أكثر من أيما وقت مضى. لا أملك شيئا في هذه الأرض، لا وطن ولا أصدقاء ولا مستقبل، وشعرت أنني غريب لا أنتمي إلى أحد. لا أريد أن أدفن هنا في هذه الأرض الباردة، فكرت مع نفسي، على الأقل أدفن جوار أخي كمال الذي

أحبه وأشتاق إلى ضحكته الهادرة.

ولكن أين ستدفن ماري وأين ستدفن نجمة وجميلة؟ هن أيضا كن جزءا من روحي. وماذا عن نامق ونادر؟ هل سيدفنان في مقبرة فالبي ذات سنة؟

وأنا أحدق في أضواء شمس خفيفة كانت تتسلل من قمم أشجار الصفصاف، وألمح في أعماق الماء صدف سمك ملون، وتتراءى في القاع محدبات صخور تغطيها أشنات عمرها عقود، عشت الفراغ الرهيب الذي يجد الكائن الضعيف نفسه فيه، وهو يخلو من أي ذرة إيمان. العيون تحدق بي من الصبايا والعجائز، أنا الغريب الجالس على ضفة بحيرة دامهوسن، ليس بعيدا عن مدينة تقع في جنوب القطب الشمالي. بحيرة دامهوسن، كابريوفا، باهيا، بغداد، دمشق، حسبتها فراشات ملونة، طائرة في سماء خيالي.

كنت أتأمل في مويجات الماء الناعمة، في هذا الغروب الشفيف، وتذكرت مرة أخرى ذلك العالم البعيد الذي عشته مع ماري قبل أن يخلق الأولاد. تذكرت نصفي البرازيلي. عشت رحلتنا ثانية بعد سنين من حدوثها. تماهيت مع الرحلة ونسيت بحيرة دامهوس التي أحدق بمياهها الزرقاء. أمر لفت بصري، ورأيته موجودا في أغلب الأمكنة. انهم الأطفال. الأطفال الذين ولدوا في الشوارع، ولايملكون أبا أو أما. يسرقون، يشتغلون في اللواطة وتجارة المخدرات، يمتهنون أحط المهن، ويموتون وحيدين. كانت هذه حالة أطفال البرازيل الذين شاهدتهم. هؤلاء يخشاهم السواح الأوربيون أشد ما تكون الخشية، اذ أن انقظاظهم على الانسان أمر طبيعي، وهم يحملون السكاكين عادة. أطفال يكونون أحيانا في

الثامنة أو العاشرة من عمرهم ويتحولون إلى قتلة. قالت لي ماري وقتها: الأطفال المشردون هنا مشكلة. لكن أنظر كيف فكرت الدولة بحلها. وجهت عليهم حملت واسعة من أفراد الشرطة الشرسين تغتالهم ليلا، ليجمعوا مثل الكلاب الضالة، ويوضعوا في شباك عملاقة تحملها الحوامات ثم تلقي بجثثهم في البحر. كل ذلك حصل أمام مرأى علماء الصواريخ الذين ينطلقون إلى المجرات، وأمام عيون السيدات المشغولات بموضات باريس، وأمام أعين الأساتذة لأنيقين الذي يدرّسون مادة التاريخ الخاصة بالشعوب المتخلفة. جرى كل ذلك تحت ذراعي تمثال يسوع الواقف فوق الجبل، وهو يتملى في ربوع هذه البلاد المعطرة بالقهوة والشوكولا وفوح خمرة البنكة المصنوعة من قصب السكر، وقد عطرت باليانسون.

أحيانا، وبعد هذا العمر الطويل أطول من نهر المسيسبي، تختلط علي الأمكنة والمدن والروائح وإطلالات الشوارع، ويمارس عقلي الفائر حالات من التنكر، ويقوم بوضع أقنعة من الماضي أحدها فوق الآخر، فلا أعود أميز بين الأزمنة، أو الأمكنة، مثلما أشعر للحظة وأنا أجلس على ضفة بحيرة دامهوسن، في وسط فالبي، إذ أن خيالي يحلق هناك، في مدينة بعيدة تقع وراء المحيط.

كأنني أتجول فيها بذهن مشدود إلى ماكنة الزمن. ألا تتكون البلدان من جسور وبحيرات وغابات وشوارع وأبنية وغبار؟ ألا تشترك بتغير الفصول وتغير حرارة الشمس من شهر إلى آخر؟ ثم هل من الغلط القول أن الكرة الأرضية تصبح متشابهة سنة بعد أخرى؟ وقد ينسحب هذا على البشر أيضا وأحلامهم وهواجسهم وكذبهم ومغامراتهم وتوقهم إلى المجهول. هناك لا هنا رأيت جسورا تربط

قمم الجبال بعضها إلى بعض، وأنفاقا تغوص في متاهات من البلور والجمشت والزمرد والعقيق. وليس بعيدا عن ذلك ببغاء تطلق أصواتا جارحة من على شجرة منكا. رأيت بشرا رؤوسهم صهباء ومؤخراتهم ضيقة وأنوفهم ذات سمات زنجية وعيونهم عيون يابانية.

غابات على شكل باقات ورود وأحلام جرت أحداثها قبل مئات السنين. حبيبات تلاشين من الذاكرة غير أنهن ينبعثن في الرأس مثل النبع.

قالت زوجتي: الجوع في كل مكان هناك، وثمة طبقة صغيرة مرفهة تعيش عيشة الأباطرة. البرازيل أغنى بلد في العالم، لكن الجوع يطال حتى القطط أحيانا. في البيت تمرح في الفناء الخلفي أكثر من عشرين قطة، تذهب الخادمة إلى الجزار يوميا لتجلب لها وجبة مكونة من قلوب ورئات وأكباد، تقطعها قطعا صغيرة، تلتهمها القطط بلمح البصر. كان ذلك الطقس يجري يوميا في الفناء الذي تعيش فيه أيضا سلحفاة عجوز وكلبان مدللان وغزالة مجلوبة من السهب. ذات يوم غابت الخادمة وجاعت القطط، وفي أقل من دقيقة هجمت علينا بغتة وراحت تعلك غطاء المائدة البلاستيكي، وراودني إحساس أن تلك القطط يمكن لها التهامي بأقل من ساعة، إذا لم تطعم قبل حلول المساء. وكان البيت، بيت ماري، مصنعا للحكي ورواية القصص عن غائبين منذ خمسين سنة، وبحارة عادوا من المحيطات البعيدة، ومناضلين غيبتهم زنزانات العسكر، ونساء أغتصبن في الغابات، ورهبان اعتنقوا الماركسية وخلقوا حركة لاهوت التحرير بعد ان رأوا كل ذلك البؤس. فعلاً لا يوجد شعب مثل هذا يعشق رواية القصص. شعب لا يتوقف عن الكلام

والرقص، وكانت زوجتي مطحنة كلام في الباصات التي تنقّلنا فيها، وعلى ساحل المحيط ، وفي الكنائس التي زرناها. تثرثر مع الرجال داخل الباص، وتسأل امرأة عن عنوان ما، تطلي شفتيها بالأحمر، وترتدي فستان سهرة فاقع الورود.

تقرأ كتابا في الحديقة وتسمع صخب الموسيقى المجلجلة عبر الشارع. وكانت الكنيسة التي تاقت زوجتي لرؤيتها، كي تتذكر صباها وقصص حبها القديمة، قد بنيت من قبل المهاجرين البرتغاليين الأوائل، يتجسد فيها ذلك البذخ الكاثوليكي، والأبهة الدينية. تقع على تلة تشرف على مدينة كابريوفا، مدينة ماري.

الكنيسة مركز جذب للجميع، للعباد والخطاة، للصبيان والبنات، للسلطة والمعارضة، تدور فيها وحولها قصص تشبه الخيال. لفت نظري رجل مقعد يزحف صاعدا التلة نحو باحة الكنيسة، كان يكرج على الأرض ويبذل جهدا شاقا. تخيلته شخصا مليئا بالإيمان وإلا ما أقدم على كل تلك المشقة كي يصل الكنيسة. الرجل يزحف إلى الأعلى والنساء يدخلن الكنيسة مثل فراشات ملونة. زنوج وخلاسيون وأوربيون ويابانيون، وحين وصل الرجل باب الكنيسة قبّل الخشب ورسم علامة الصليب، ودوّى تصفيق من الجميع. صار مركز الحضور. سألت زوجتي عن الأمر، فقالت إنه ليس مقعدا، بل يؤدي نذرا فقط. قدم من قرية بعيدة زحفا كي يصلي هنا. عجبت لهذه الروح الإيمانية. شعب متدين عموما لكنه منفتح على الحياة. يرقص، يحتسي الخمور، يمارس الجنس بحرية، لكنه لا ينسى الكنيسة، ملاذ الخطاة والمضطهدين والفقراء. من هنا أيضا انحازت قطاعات واسعة من الرهبان إلى صفوف الفقراء وشكلوا احراجا للكنيسة

الرسمية، إذ أصبح قسم منهم ثوارا ومناضلين، أيام الحكم العسكري.

مدينة زوجتي ماري المسماة كابريوفا كانت ذات فراش ملون، أصفر وأبيض وأسود ومرقش. فراش بأحجام مختلفة، أكبرها الليلي الداكن اللون. الأرض متموجة والتلال مغطاة بالعنب وقصب السكر. من قصب السكر ينتجون شراب البنكة، الذي يستمتع في شربه الزنوج والهنود. الأشجار دائمة الخضرة، والبشر يحبون الأطعمة. مدينة كابريوفا تلتم على تلك الكنيسة التي بناها البرتغاليون، أجداد ماري، سكانها مولدون وأفارقة ويابانيون وشقر من أصول جرمانية. الاكتظاظ في كل شبر من الأرض، والأبيض كل من هو غير زنجي.

كابريوفا مدينة ماري: عنكبوت سامة كادت تلتهمها كلاب البيت. الكلاب تنبح بأسى، الهدوء قلق لكنه كثيف. وقع قطرات المطر على ورق الأشجار كأنه خطى تدب في الظلام. وقع المطر مرعب، كما لو أن ثمة مخلوقا غامضا يتجول بين الشجر المعتم. الغصن ينحني حتى يلامس الأرض، إنه يحمل أكبر وردة في البستان. وفي الكارنفال آمنت أن كل ما هو غريب يمكن أن يتواجد في هذه الأرض المصنوعة من روايات وأقنعة وزنوج وغابات وورود مدارية وأمطار.

وفي ليلة صيفية ماتعة، وسط ملعب المدينة العملاق، ارتدت الألعاب والرقصات والناس شكل أسطورة تحيل الواقع إلى سحر وأقنعة. كانت الفرق تعبر على سيارات غريبة الهيئات. والراقصون عليها لهم سمات غير أرضية. تحولات الكائن البشري وهو يخوض في الخيال. فرق من السرتاو، تمثل رعي البقر، يمتطي الرعاة أفراسا

من الخشب ملتمعة بالأضواء. الباربكيو يرتفع دخانه في الهواء نطلق. فرق من باهيا، صيادوها متعتعون من السكر والجوع. فرق من ريو دي جانيرو، مع عرض لأزياء قام به الخلاسيون المدهونو نجسد بزيت اللوز. ريش ونبال ودخان ينطلق عاليا كي يعانق نصواريخ الضوئية التي ترش ساوباولو بألوان قوس قزح.

قالت زوجتي: لا تحمل الكاميرا معك فربما يسرقها اللصوص. ضع نقودك في جيوب داخلية. انتبه إلى ساعة يدك الثمينة. هذا التحذير يسمعه الغريب في كل مكان. الفقراء ينظرون بعين الريبة إلى الأغنياء. والغني هو كل من يمتلك سقفا وعملا يوفر له لقمة العيش. البيوت تغطى نوافذها عادة بأعمدة غليظة من الحديد كي لا يتسلل اللصوص اليها. الجياع في كل مكان، والأغنياء يسفحون النقود على متعهم، محولين بيوتهم إلى جنّات محروسة بأشخاص أشداء. ثراء خرافي يراه المرء في تلك البيوت، لكنه مهدد بالسرقة أو الثورة ليل نهار. الفقراء لا يشتركون مع الأغنياء إلا بسحر الطقس وجمال الطبيعة. حدث لي ذلك مع ماري قبل أن تأتي نجمة إلى الوجود. نجمة التي أتطلع إلى رؤيتها، هي وجميلة، بعد كل هذه السنوات بشوق، كما أتطلع إلى رؤية بيتنا السابق، الحديقة، وموقد الشوي، وهل مازالت هناك نباتات فراولة تحمل ثمارها الحمراء؟

كان الليل القطبي الخفيف قد درج على بحيرة دامهوسن، واختلطت وريقات الصفصاف مع ظلال النجوم الغائبة خلف طبقة خفيفة من الضباب. أفقت من رحلتي الداخلية على رنين الهاتف، وكان نامق يحدثني من بيت نادر، وكنت قد نسيت أننا اتفقنا أن نقضي اليوم سوية في شرب النبيذ الأحمر، وتناول الفخذ المشوي

الذي جلبه نامق من سوبرماركت فوتوكس بسعر مخفض. لكنني قررت مع نفسي أن أخفي حزني، وأشارك في الوليمة رغم أنني متعتع من الخمور، وأشعر بالنضوب الروحي الذي عشته وأنا أتذكر رحلتي مع ماري. ودعت بحيرة دامهوسن، وأنا دامع العينين، ضائعا بين عوالم عشتها فيما مضى، وخبت مثل برق، ولم أعد قادرا على استرجاعها. ملأ الحزن قلبي حتى الحافة.

وعند العودة إلى سوذ هاون، وفيما كنت أجتاز ساحة موزارت، وأتأمل بذلك الخليط البشري المنزوي تحت أشجار الجوز البري، المنشغل باحتساء الخمور وتدخين الحشيشة، تخيلت نفسي، أنا الآخر، قطارا ضالا، يسير دون هدف، ولا يعرف المحطة القادمة.

إنه يسير فقط، وهذا ما يهمه أكثر من أي شيء في الحياة.

(٧)

انحدرت الأشعة المتخفية خلف الغيوم الداكنة، وراحت خيوط المساء تتكاثف شيئا فشيئا، فخرجنا، كالعادة، إلى ساحة موزارت نتصيد النساء المدمنات الجالسات هناك. وقلت لنادر أن جاوانا أخبرتني صباحا، بعد ساعة من وقوفي معها على الحزام الناقل للبضاعة، أنها وسوزان طردتا من المسكن الذي تقطنان فيه، ويقع في أوستر برو كما أخبرتني سابقا. أوصتني جاوانا إن كنت أعرف أحدا يؤجر غرفة أو شقة صغيرة، ثم طلبت مني بلطف أن أخبرها اليوم أو غدا. جاوانا وصديقتها تشتغلان مثلي تحت أمرة صديقي يوسف. وبما أن الفتاتين من بولونيا فقد اهتم نادر كثيرا للأمر، ونادر مهووس بالبولونيين ربما لأن زوجته الباشا بولونية، إضافة إلى معرفته القليلة باللغة البولونية.

قال لي: اجلبهما غدا أو بعد غد إلى هنا، قد نقنعهما بالسكن معنا. كيف ونحن لا نملك سوى الغرفتين؟ نحاول اقناعهما بالسكن المزدوج، واحدة معك والثانية في غرفتي. فكرت باقتراح نادر ووجدته غير منطقي. كيف تسكن جاوانا أو صديقتها في غرفتي نفسها؟ هل نتقاسم السرير سوية أم تجلب لنفسها فراشا آخر تضعه على الأرض؟ إذا وافقت واحدة منهما بالسكن معي فلا أظن أن

الأخرى ستوافق على السكن مع نادر.

وجلسنا نخطط للإيقاع بالفتاتين.

نجلب قنينة من الفودكا، وقنينتي نبيذ وأربع قناني بيرة من نوع توبورغ، هما تشربان بالتأكيد، والبولون يحبون الفودكا. أما إذا فضلتا النبيذ أو البيرة فهما موجودان، ينبغي أن لا نترك لهما أي خيار، قال نادر وهو يبتسم ابتسامته الجامدة التي تكشف أسنانه الصفر. الطعام سهل لكن ينبغي أن نعد لهما وجبة شرقية. لكن هل من المعقول أن نجهز لهما الدولمة العراقية مثلا، أو الباجة، أو تشريب اللحم؟ لا أظن أنهما تستسيغان أكلات مثل هذه. يمكن لنا جلب دجاجة من السوبرماركت وشيها في الفرن مع البطاطا والبصل والطماطم، مع علبتي نقانق. هاتفني وسأحضر المشتريات كلها ثم نتقاسم التكاليف. ينبغي أن نعيش ليلة حمراء، وربما أتصل بكارين علّها تأتي للسهر معنا. كلا، فكرة غير موفقة، سنتقيد بوجودها، خاصة ونحن مقبلون على جلسة سكر، اعترضت على اقتراحه. ونادر لم يكف عن الحديث عن الليلة الحمراء التي تنتظرنا قريبا.

ونحن نتجه إلى الساحة، في ضوء سماوي ناعم، بخطى حثيثة نحو فرائسنا، بدأ نادر يحدثني عن مرض كارين، وكيف أصيبت بانهيار عصبي، تطلّب نقلها إلى المستشفى. قال بألم: لم يقف معي في محنتي سوى نامق، كان يترك زوجته ربيعة وابنتيه عشتار وعبير ويمضي معي لرؤية كارين، وأحيانا نبقى هناك حتى منتصف الليل. تعرف أن العلاقات بين أبناء الجالية تغيرت كثيرا، أصبحنا شبيهين بالدانماركيين، أي أن كل فرد يهتم بحيزه الشخصي والأسري فقط. تذكر كيف كنا نجتمع في غرفتك في أوستر برو، تلك الغرفة المطلة

على البحر، كان يصل عددنا بعض الأحيان عشرة أشخاص، ولا نترك البناية حتى يسفر فجر كوبنهاغن عن نفسه؟ تلك الأيام ولت، انتهت. أصبحنا جروما تائهة في الفضاء لوحدها. حتى نامق حشر نفسه في جدران أسرته، ولم يعد يمتلك أية دوافع للقاء أحد. أصبحت حياته دون طموحات أو أحلام.

ما هو سبب انهيار كارين العصبي؟ سألته ونحن نجلس على مصطبة في الساحة، نتأمل بجمهور المدمنين قرب ذلك الكوخ. ونافورة ساحة موزارت تدفق ماء يسيل على الحافات الدائرية للحوض. تنعكس على صفحتها أضواء البنايات القريبة. كلما حدثت بها أتخيلها عجينة من الألوان. كلاب وسكارى وباصات تمرق بين الحين والآخر، وعالم يتحرك إلى الغد من دوننا. وكانت انعكاسات الأضواء تتماوج في البحيرة الصغيرة، ورائحة الحشيشة تفوح في المكان. صمت نادر لحظات وظننت أنني تماديت في السؤال، وتوقعت أنه لن يجيب. رحت أنظر إلى تجمع من الكرينلانديين، والزنوج، والدانماركيين، يتناثرون حول البحرة المائية، وهم يحتسون البيرة ويدخنون الحشيشة، وثمة أشخاص يمرون مع كلابهم للرياضة، أو لأخذ تلك الكلاب إلى الخلاء للتغوط. شدما كرهت هذا الطقس عندهم، وبسبب الاهتمام المبالغ فيه بالكلاب كرهتها من أعماق قلبي. كانوا يحتاطون لهذا الأمر فيحملون أكياسا بلاستيكية يعبئون بها البراز ما ان ينتهي الكلب، ثم يرمون الكيس في أقرب برميل نفايات.

ضوء السماء كان ذهبيا، وثمة برودة خفيفة في الجو، ولكن لون ذلك المساء حوّل البنايات وزجاجها إلى عالم حلمي، أو على

الأقل هذا ما أحسست به وأنا أتلفت حولي وأنظر إلى روحي الجالسة على هذه المصطبة. كل ما في هذا العالم الإسكندنافي من جمال إلا أنني لم أستطع التآلف معه. اللغة غريبة والوجوه غريبة والطعام لا يناسبني والطقس بارد خاصة في الشتاء. وماري لا ترد على اتصالاتي، فبعد مباشرتي بالعمل حاولت رؤية البنات، لكنها تحججت بانشغالهم بالدراسة، وأن لا جدوى من ذلك طالما تركتهم وصار لدي حياة أسرية أخرى. طلبت من نامق التحدث معها ووعدني بذلك. وأنا في هذه التأملات فجأة تنحنح نادر، وتململ جسده، وتحت ضوء القطب الشمالي المعبأ بالسحر، أخبرني عن سبب الإنهيار العصبي الذي عاشته ابنته كارين.

قال: أنت مثل أخي، ما زلت أتذكر لقاءنا الأول في طهران، كنا شبابا آنذاك، هذه هي الحياة. حين أقارن بين صورتيكما أنت ونامق اليوم، مع تلك الصورة التي انطبعت في ذاكرتي لحظة مروركما قربي ونحن في ذلك المخيم، لا أصدق أنكما الشخصان نفساهما. لقد تغيرت ملامح، وغارت عيون، وتبدلت أفكار، وتحول الزمن إلى غلالة تنسدل سميكا على الأرواح. أثق بك، لذلك قلت لنامق إن مسكنك اذا عدت إلى كوبنهاغن سيكون في بيتي. لقد غيرت كثيرا من إيقاع أيامي. كنت أعيش وحيدا رغم وجود كارين في حياتي. تعرف أن الأبناء لا يفكرون مثل آبائهم، كان الليل عدوي، أستلقي على الأريكة ساعات مفكرا بحياتي، أسمع صعود الأقدام على الدرج، وأتنبه لغلق الأبواب وانفتاحها، وكنت أخاف من التحديق إلى دواخلي، إذ يواجهني السؤال ذاته، لماذا أعيش؟ ومن أجل من؟ حتى أهلي في البصرة لم يعد يربطهم بي أي شيء بعد أن مات

أبواي وتزوجت أختاي وسافر أخي إلى أميركا. إما البلد فلا يرجى منه شيئا. لقد عشت أنت التجربة وكانت مؤلمة، لا تشجع على العودة. الحقيقة أنني أجمع سقط المتاع من مزابل المنطقة لكي أسلي نفسي، ولكي أحس أنني أنتظر أمرا جديدا، طاولة غالية الثمن، بساطا جلديا للطاولات، مسجلا ما زال يعمل رغم أن الموضة تجاوزته، كومبيوتر يعمل، ولوحات يستغني عنها مالكوها كونها لم تعد تناسب جدرانهم. كل ذلك يمنحني قليلا من الأمل. هل هذه حياة؟ كلا، أنا أعيش في الوقت الضائع، حال نامق ويوسف وأصدقائنا الآخرين الذين جاءوا معنا في تلك الليلة الثلجية التي دخلنا فيها الدانمارك. أرجو أن لا تخبر أحدا بما أقوله لك. الوحيد من الجالية الذي يعرف هو نامق، وهذه الأمور تؤذي مشاعر كارين بالدرجة الأولى إذا ما عرف بها أحد آخر.

قالت لي كارين في لحظة هدوء إنها كانت تعيش مع أمها في البيت، كانت علاقتي شبه مقطوعة مع الباشا، وقبل سنة أو أكثر تعرفت على شاب لبناني لا يمتلك إقامة، وعن طريق الصدفة. وقعت في حبه أو اشتهائه، وبعد أيام فقط جلبته للعيش معنا. كان شابا رياضيا وسيما، هرب من حروب لبنان ومآسيها عن طريق البحر، وكان يروي قصصا غريبة عن كيفية وصوله إلى كوبنهاغن. يبدو أنه مر ببولونيا، وعاش في وارشو فترة، وتعلم قليلا من لغتها، لذلك كان هذا عاملا آخر لانجذاب أمي. المهم أصبح عشيق أمي، ولأنه لا يملك إقامة أقنعها بالزواج منه، فذهبا إلى البلدية وتزوجا. بدأت أمي تصرف عليه، من راتب العاطلين، وكنت أنا أنظر إليهما بغيرة، وبدأت أحس بأنوثتي. كثيرا ما كانت تتركني وحدي في البيت ثم

تذهب معه للسهر في البارات. زارت معه بارات شارع المشي ونوربرو واستدكاذا وفيستربرو. كان سامر، وهذا هو اسمه، يحب السهر في البارات، وأعتقد أنه كان يغازل الفتيات من وراء ظهر أمي، ويبدو أنه مهووس بالنساء. وكان أحيانا ينظر إلي نظرات غريبة تبعث القشعريرة في روحي، ويتعمد الإحتكاك بي كلما سنحت له فرصة. أمي لا تلاحظ شيئا من هذا، ظلت مشغولة بالخمرة والعشق والسهرات، لكنني كنت أحس أنه غير مريح، وليس وفيا لأمي. مرة رأيته يغازل صديقة أمي البولونية ساشا، في المطبخ بينما كانت أمي وضيوفها يعدان عشاء في عطلة نهاية الأسبوع، وقد صار طقسا أسبوعيا لبيتنا. وذات ليلة، وحين عادا سكرانين من المدينة، نامت أمي مباشرة، وكنت أنام وحدي في سريري بغرفة مجاورة، فما هي إلا لحظة بين النوم واليقظة حتى شعرت بجسد يندس ورائي، وحسبتها أمي في البداية، وهي كثيرا ما فعلت ذلك سابقا. لكنني شعرت بيد خشنة ليست يد أمي تتسلل إلى لباسي الداخلي، وبقضيب صلب يحتك بمؤخرتي. قفزت من الفراش بقوة، وأضأت النور ووجدت سامر واقفا قرب السرير عاريا إلا من لباسه الداخلي. قال لي وهو يرتعش من السكر، جئت لأقبلك قبلة المساء، ثم وجدتك بلا غطاء فغطيتك بالبطانية، وما إلى ذلك من كلام، لم أفهم سوى نصف عباراته وجمله. وقفت مذعورة وسط الغرفة إلى أن غادرها. شعرت بالخوف، بل بالرعب، وبقيت ساهرة أبكي حتى طلع الصباح. وكنت أخشى اخبار أمي، قد لا تصدقني، لكنه أخبرها هو على طريقته، فاقتنعت أمي بروايته. منذ تلك الليلة صرت أخشاه، جديا، وأشعر بالرعب كلما رجع إلى البيت. كنت أجد الحجج للبقاء خارج البيت، أنا وصديقاتي وبعض الشبان المراهقين من

أنصاف الدانماركيين أو أبناء المهاجرين. كل ذلك تفاديا من الرجوع إلى البيت. بعض الأحيان هو يطلب من أمي أن تدعوني إلى غرفتهما والجلوس في السرير معهما، وكنت لا أستطيع الرفض، فأندس خائفة جنب أمي وأبحث عن أول فرصة مناسبة للفرار إلى الصالون أو إلى غرفتي. شعرت أنني لا شيء، وأنني ضائعة، خاصة حين قررا السفر إلى جزيرة ميوكا الإسبانية لمدة أسبوع وتركاني مع عائلة بولونية تقيم في البناية نفسها. في ذلك الأسبوع أحسست أنني وصلت إلى حافة الهاوية، ولم أعد أعرف من أنا، وماذا أريد من حياتي، ومن لي بهذه الحياة المملة. أنت بعيد عني، ومن ثقافة ثانية، وأمي لديها عشيق، وأنا وحيدة في هذا العالم. ما الذي تفعله مراهقة في غابة من الوحوش؟ ليلتها لم أعرف ما الذي حصل لي إلا حين وجدت نفسي في المستشفى.

قال نادر: هتفت تلك العائلة ليلا، وأخبرتني أن كارين مريضة وشبه غائبة عن الوعي. اتصلت بنامق وجاء إلي بعد نصف ساعة. ذهبنا فورا إلى هناك. بيتهم خلف بحيرة فالبي، بحيرة دامهوسن، ليس بعيدا عن بيت زوجتك السابقة ماري. توقف نادر عن الحديث وكان الظلام بدأ يحل، وانصرف معظم السكارى إلى بيوتهم، وأصبحت ساحة موزارت مقفرة سوى من بعض المارة المسرعين. صمت نادر طويلا وصمت معه، وكانت بحيرة دامهوسن تستطيل في رأسي لتغرقني بين أشناتها، وصخورها، وذكرياتها البعيدة. هل يصبح التأمل زادا محببا كلما تقدم الإنسان بالعمر؟ ثم ضحك نادر ضحكة خفيفة وقال لي وهو يرتشف من فم القنينة بيرة باردة: كل ذلك صار من الماضي. أنت رأيت كارين أكثر من مرة، أصبحت

شابة وجميلة. هل ما تزال تعيش مع الباشا؟ أجل، طلقها سامر وعاد إلى لبنان بعد أن اكتسب الجنسية. بعد هذا البوح الطويل أخذني نادر في رحلته المسائية المعتادة. أي المرور بمحلات النفايات في منطقة سوذهاون، واحدة بعد أخرى علّه يقع على غرض مفيد. مررنا بنفاية المكتبة العامة القريبة من الغابة، فلم يعثر على شيء. ورجعنا إلى الثانية القريبة من السوبرماركت فوجد راديو عتيق لا يعمل فحمله بيده ثم قبل أن نصل البيت قال لنشاهد، مزبلتنا، كما يسميها، أي مزبلة البنايات السكنية التي نقطن فيها وتقع خلف باب خشبي مفتوح على الدوام. وهناك وجد سجادة ثقيلة فتحها وقلّبها، وقرر أنها صالحة للاستعمال. طلب مني مساعدته في حملها. لم تكن السجادة ثقيلة كثيرا لذلك أوصلناها إلى باب البناية بسرعة ودون جهد كبير.

أمام باب الشقة طلب مني الإنتظار لحظة، وحمل السجادة على كتفه ثم صعد الدرج. سيضعها في المخزن العلوي وينزل. وسمعت أقدامه الثقيلة وهي تتلاشى في الأعلى، وأنا أقف أمام بابه الخشبي. ورغم أن نادر حدثني بقصة كارين المؤلمة إلا أنه لم ينس جاوانا وصديقتها حين دخلنا البيت. تناول التلفون وأخبر كارين بالقصة. قال لها ربما غدا أو بعد غد ستأتي الفتاتان للعشاء معنا، وإذا كان لديها وقت فلتحضر للمشاركة. نسي توصياتي على ما يبدو. لم أعرف ماذا قالت له كارين غير أنه ردد أكثر من مرة كلمة أوكي أوكي، وقفل الخط. استثنينا نامق من الدعوة أيضا، وقضينا بقية الليل ونحن نخطط للحدث السعيد، استقبال فتاتين في البيت ومن أصل بولوني! كان نادر متحمسا للحدث. وأكد لي أنه سيشتري كل شيء غدا صباحا خلال وجودي في العمل، لذلك يجب أن لا أقلق. المهم

هو اغراؤهن بالمجيء. وهذا ما قمت به أنا على أكمل وجه.

لا أكتم سرا إن قلت أنني بحاجة إلى مضاجعة امرأة أوربية. لذلك ما إن لمحت جاوانا في صالة كاميرات الفيديو، وهي تودع بالة من الكاميرات في المخزن ذي الترقيمات، حتى اقتربت منها وحكيت لها عن مشروع دعوتهما إلى البيت. نوهت لها أن ثمة مكانا للمبيت فلا تقلق. رأيت عينيها تشعان بالسعادة وأخبرتني أنه يمكنهما المجيء اليوم بعد العمل. حقائبهما أودعتاها في المحطة المركزية للقطارات، بعد أن طردهما نائل العراقي من تلك الغرفة ذات المدفئة العاملة على الخشب والفحم. ومن فوري اتصلت بنادر وأخبرته بالنتيجة. وكاد يطير من الفرح. قال لي وهو يقهقه بنبرة انتصار: سأنتظركم في المحطة. ينبغي أن نساعدهما بحمل الحقائب.

فعلا وجدنا نادر في ساحة المحطة الداخلية في الثالثة والنصف. أجزم أنه كان ينتظر قبل ساعة، وربما أكثر. وكانت ليلة جاوانا وسوزان ليلة تؤرخ في أرشيف منطقة سودهاون التي نقطنها أنا وصديقي نادر. تلك ليلة لن ننساها، فبعد أن وصلنا إلى الشقة مع حقيبتين كبيرتين للفتاتين البولونيتين، رصف نادر قناني البيرة والفودكا والويسكي والنبيذ على الطاولة الصغيرة المركومة بمواجهة الباب الزجاجي المطل على الحديقة. ليس من الصعوبة قراءة توتر نادر، التوتر الكبير في داخله، ثمة فتاتان تجلسان في شقته، وثمة خمور وفراش معد للمضاجعة. وراح يتناوب الحديث بين عدة لغات، البولونية والدانماركية والإنكليزية، وما أن ينسى نفسه، وهو عادة ما يفعل، يتكلم مع سوزان أو جاوانا باللغة العربية.

في غيابي أعد نادر نوعين من السلطة، الأولى السلطة العادية

والثانية السلطة الإيطالية بالمايونيز، وضعهما على الطاولة. وجنب ذلك جهز نقانق من لحم الخنزير، سلقها بالماء الحار، ووضع جنبها صلصة حادة وأخرى حلوة. كان كلما وضع صحنا يحدق إلى الفتاتين كما لو كان ينتظر تعبير إعجاب في وجهيهما. أخبرتني جاوانا أنها سمعت شائعة في الشركة مفادها أن فرع الشركة سيغلق أبوابه بسبب الخسارة، وهو خبر لم يهتم له نادر وكان مشغولا بالتقرب من سوزان، محدثا إياها عن قصة مرض كارين وبقائها في مستشفى الأمراض العصبية. كالعادة وضع نادر الدجاج المقطع في الفرن وأضاف له الطماطم والبصل والفلفل الأخضر، مع بهارات شرقية اشتريناها من سوق نوربرو. وعلى وقع أحاديثنا غير الخاضعة إلى سياق كانت رائحة الشواء تدوّم في الشقة، وتتسرب إلى الجيران. وكانت السماء تعتم قليلا قليلا، وتندغم ظلال أشجار الجوز البري في الحديقة مع ظلال السقوف القرميدية في الأبنية المحيطة.

صوت جاوانا، الأنثوي، الناعم، المنغم، شرع يتسلل إلى أذني بإغراء، عكس ما خططت. لسوزان وجه مدور، ممتلئ، ببشرة ناعمة وعينين تميلان إلى السمات القوقازية، إلا أنها بضة ذات عجيزة ممتلئة، كنت كثيرا ما أضع عيني عليها كلما صادف وقوفي جنبها على الحزام الناقل، أو اثناء وقوفنا على جهاز الكومبيوتر لتنظيم خروج البضاعة. شعرت بوجود ميل بيننا، خاصة وهي تتعمد المرور جنبي لتصدم ساعدي بثدي من ثدييها الممتلئين، أو تتعمد الإحتكاك بي، في أوقات الاستراحات. عدا ذلك لم يكن هناك بوح، وأظنها هي من سألتني قبل فترة عن ايجاد شقة لهما هي وجاوانا. لكن رغم

ميلي إلى سوزان الا أن قرب وجه جاوانا مني، وحديثها المتواصل بإنكليزية جيدة عن حياتها، وتنشقي لعبيرها الخفيف، وتحديقي في عينيها العسليتين شعرت وكأنها تستولي عليّ، وتثيرني.

عدت إلى تلك العادة السيئة في شخصي، ما أن أقترب من امرأة تلفت انتباهي حتى أبدأ بتخيلها في وضع آخر، وفي ظرف غير الذي نحن فيه. على سبيل المثال أنظر إلى شفتيها أثناء الحديث وأتخيلهما وهما تنفتحان وتنغلقان في لحظة الايلاج، أو كيف تكونان حين تصل إلى الرعشة الجنسية. أو أتخيل رأسها تحت كتفي وأنا أتحرك فوقها جيئة وذهابا. أصل بعض الأحيان إلى تخيل فرجها وشكله وإحساسها بدخول القضيب، ولكن ما ظل لغزا لي، مع أنني أؤمن بفكرة التخاطر الروحي، وعشت أياما في ورش تعقد في هذا المجال أيام زواجي بماري، هو هل يصل ذلك التلبس الصارم بالخلاعة في عينيّ إلى روح المرأة التي أجالسها أو أخاطبها؟ هذا ما لم أتوصل إليه بشكل قاطع. بل واعتقدت حينا أن هذا الأسلوب المخادع في التفكير والخيال ما هو إلا آلية دفاعية أمام العجز في تواصل حقيقي وشجاع ومباشر مع المرأة. هذه الخيالات والتهويمات حضرت إلى روحي وأنا أجلس قرب جاوانا على الأريكة المواجهة للحديقة، فيما كان نادر وسوزان يجلسان على الثانية المواجهة للخزانة الأنيقة الغاصة بالتحفيات. تلك التحفيات التي جمعها صديقي طوال سنوات من التجول ليلا بين المزابل.

خرجت من سطوة عيني جاوانا وانتبهت إلى نادر وهو يتكلم في التلفون الأرضي، ومن خلال خلطه للمصطلحات البولونية والإنكليزية والعربية عرفت أنه يتحدث إلى كارين. ناول السماعة إلى

سوزان وجعلها تكلم كارين، بالبولونية، فرأيت الإرتباك في وجهها، لكنها مضت باللعبة إلى نهايتها. وبعد دقيقة ناولت السماعة إلى نادر وراحت تبربر مع جاوانا باللغة البولونية وتضحكان. في كل ذلك كانت كؤوسنا تتناوب بالصعود والنزول، شربت البنتان فودكا وبيرة دانماركية، وشربت أنا بيرة مع قليل من الويسكي، فيما اكتفى نادر بعب النبيذ الفرنسي الرخيص، نابليون، وتناول السلطة ونقانق لحم الخنزير بلذة فائقة.

وقف نادر حاملا كأس النبيذ محدقا بعينين نافذتين إلى سوزان وجاوانا، وثمة ضحكة صغيرة تلتمع تحت شاربيه وقال: نخب بولونيا والعراق، ورفعنا كؤوسنا وشربنا، ثم مضى إلى المطبخ وجلب صينية الدجاج المشوي ووضعها على الطاولة. بدأت سوزان وجاوانا بوضع قطع اللحم والبطاطا في صحنيهما، مع قليل من السلطة، وتنحى نادر جانبا وهمس لي بأنه خارج عشر دقائق وسيرجع. عرفت أنه لم يعد يستطيع الصبر على تفقد مزابل سوذهاون، فسمعت خطواته على السلم، وسمعت الباب الخارجي ينغلق خلفه. رغم تفاهمنا باللغة الإنكليزية بشكل جيد، لكنني أدركت أن بونا شاسعا يفصلنا، تجاه حياتنا كأجانب. لهما طموحات غير التي نمتلك، فسرت ذلك بسبب فارق العمر وفسرته بسبب الخلفية الحضارية لنا، لكننا كنا نشترك في تلك اللحظة بالتلذذ بأفخاذ الدجاج، وبطعم المايونيز في السلطة الإيطالية ونسمع أغنية للمغني الدانماركي كيم لارسن، الذي نحبه كلانا، كوننا نعيش في البلد ربما. ونتلذذ بالحديث عن شركة الدي أج أل، التي تقع على بحر البلطيق في منطقة نورثهاون، وهي المنطقة المعاكسة للمكان الذي أسكن فيه.

دق تلفون نادر الأرضي فقمت من جنب جاوانا وأجبت على الاتصال، أخبرني شخص لا أعرفه اسمه بهاء، وهو لبناني، يسكن في منطقة آما، قال إن نادر اتصل به حول شقة لفتيات بولونيات، قلت له أجل لكن نادر سيرجع بعد دقائق، قال اتفقت معه أنني سأمر إلى البيت وأصطحب البولونيات لرؤية الشقة والاتفاق على السعر. قلت له سيأتي نادر وأخبره بهذه التفاصيل. أغلقت التلفون وأخبرت البنتين انهما وجدتا شقة للسكن في آما. فرحت جاوانا وسوزان بشكل غير متوقع، وسألتاني أين ذهب نادر، فقلت لهما سيرجع قريبا أظنه ذهب لجلب قليل من الحشيشة، من ساحة موزارت. طبعا اختلقت قصة الحشيشة من خيالي، كي أرى ردة فعلهما. لا يمكن مقابلة مدخن حشيشة كل يوم حتى وإن كنت تعيش في كوبنهاغن. ضحكت سوزان وتساءلت هل يوجد هنا ساحة باسم موزارت، قلت أجل وهي تحتوي على نافورة وحوض مياه تحتها، وهي عاجة بالأجانب من أمثالنا، وسردت لهم حكاية ساحة موزارت وولع صديقي نادر بجلب الفتيات السكرانات من هناك. سوزان علقت على اسم الساحة تعليقا ذكيا، قالت لا بد أنهم يعزفون السمفونية التاسعة للسكارى. أي دلال هذا. ضحكنا بنشوة الخمرة وسحر الليل المنفرش خارج الباب الزجاجي. فكرت أن نادر رتب كل هذه التفاصيل دون أن يخبرني.

من هو بهاء، وكيف تعرف عليه نادر، وهل يمت بقرابة أو صداقة إلى زوج الباشا الذي حاول اغتصاب ابنته كارين؟

تساءلت مع نفسي متأملا بليلتنا هذه، صوت كيم لارسن، وأضواء نادر الخافتة، وهاتين الفتاتين اللتين جاءتا من مكان ما في

بولونيا للعمل، والتقيتهما في شركة دي أج ال التي وظفني بها صديقي يوسف. موزارت يصدح في الخارج على شوارع سوذهاون، ويجلل الزهور البيتية، ويتصاعد نحو نجوم لا نراها تتدلى في نهاية الأرض. موسيقى كونية تجلجل على الأزقة وستائر الغرف. ودفء نسائي يتمطى على جدران الكهف. ربما بسب انقطاعي لفترة طويلة عن المرأة، وربما بسبب خليط الويسكي مع البيرة، أحسست بانجذاب شديد إلى جاوانا، وإلى ميل للإلتصاق بها ونسيان سوزان في عتمتها القريبة من الباب.

بعد ما لا أعرف من الوقت، وغيبة نادر عنا، سمعنا جرس الشقة، واستغربت من ذلك، فنادر يمتلك مفتاحه، وكذلك كارين. من يدق علينا الباب في هذه الساعة؟ فتحت باب الشقة وحاولت النزول إلى الأسفل. قبل أن أقوم بذلك دخل نادر ومعه شاب في الثلاثينيات، ذو وجه فينيقي، عرفت حين ألقى السلام أنه ليس عراقيا. قال نادر صديقي بهاء، إنه من لبنان، سنذهب لرؤية الشقة للبنات. اقترحت على نادر أن نبقى أنا وجاوانا في الشقة ويذهب هو وسوزان إلى جزيرة آما، فوافقت سوزان وجاوانا على الإقتراح.

سمعنا صوت السيارة وهي تبتعد بهم إلى مجاهل المدينة. لبثنا وحدنا، ثملين، ننتظر ذلك الهواء الشفيف للوامس تتخاطر فيما بيننا. قالت جاوانا إن السكن مشكلة للأجانب، فوافقتها الرأي. وقالت إن مواطني الشمال منغلقون أكثر من اللازم فوافقتها. وافقتها الرأي على كل شيء حاورتني فيه، حتى حين تكلمت عن يوسف وأسلوبه العصبي والفظ في التعامل مع العمال. وأنا أقترب منها قليلا قليلا، أتحسس يديها وأغازل عينيها وأتشمم عطرها، وهدتني حاستي

ذكورية إلى محاولة مضاجعتها فهي فرصة سانحة. في العتمة خفيفة وقد غاب الضوء عن الغرفة إلا ما يهدي إلى الباب اقتربت من شفتيها في حوار عميق بين نظرة الشرق إلى المرأة ونظرة الغرب. شاحت فمها قليلا فوقعت شفتي على خدها وجيدها والجزء الظاهر من كتفها، وكانت ترتدي قميصا جوزيا يكشف عن مساحة واسعة من المنطقة المحيطة بالعنق.

كنت أقرأ في عينيها قبسا من الشهوة، ذلك القبس الذي يراه رجل حين يحس بالمرأة جاهزة للفراش. قالت لي جاوانا وهي تتنفس ببطء ليس الآن، ليس الآن، لست مستعدة. اللحظة التي لا يعرفها الذكر. لكن يدي كانت تمسك بيدها الناعمة، البيضاء، وتكيل لها القبل بين فترة وأخرى، دون أن أفقد الأمل بتقبلها المضاجعة. نسرير في غرفتي عدلته منذ الصباح حتى قبل أن أذهب إلى الشركة، وعطرته برذاذ الورد، وجعلت الشراشف مهيئة لاندساس امرأة تروم الذكر وتريده بشدة. الشيء الوحيد الذي لم أكن أحبذه بجاوانا، رغم استعالي بالرغبة هو ضآلة مؤخرتها، هي تملك ثديين عارمين، ووجها جميلا، وطولا متناسقا لكنها لا تمتلك عجيزة رصينة، عدا أن شعرها البني قصته بطريقة ذكورية غير موفقة.

صوت جاوانا يمتلك عمقا وسحرا وأنوثة، وعيناها مريحتان، هادئتان تريدان إغراق من يحدق فيهما داخل بحيرة نسائية بلا قرار. طالما آمنت أن هناك نفقا سريا يربط بين عيني المرأة وفرجها. فكرة شاذة، وقد تكون شرقية بامتياز. وربما ذكورية. هل يوجد ممر شبيه بين عيني الرجل وقضيبه؟ تساءلت وأنا أجلس على الأريكة واضعا جاوانا الثملة في حضني، جائلا بيدي على خبايا جسدها، الجسد

الذي رأيته في الشركة يزاول أعمالا لا يقوم بها سوى الرجل. تمنيت أن لا يعود نادر أبدا من جزيرة آما، وتمنيت أن نقضي الليل سوية على صوت بوب مارلي الذي وضعته في المسجل ورحت أتمايل مع الإيقاع الكاريبي وجسد جاوانا الممتلئ، وأنا أضغط بوسطي على وسطها، وهي تضغط بوسطها على وسطي دون منحي فرصة الذهاب إلى الفراش. تصدني كلما حاولت جرها إلى الغرفة الثانية. نسيت نامق ويوسف ونادر، نسيت شركة الدي اج ال، نسيت صديقي سامر، ومكتب تكوينه، وصديقته سرى الساكنة في محلة العطيفية، بعد الجسر بقليل، ولم يبق في الغرفة سوانا. أنا وجاوانا، الذكر والأنثى. وتلك الأغاني التي رحت أغيرها كل حين لترضي مزاجها المتقلب.

كيم لارسن، داخل حسن، فيروز، بوب مارلي، ناظم الغزالي الذي قالت إنه يذكرها بغناء الهنود الحمر، وداليدا التي لم تحبها، مايكل جاكسون ملك البوب الذي صرع لب الفتيات البولونيات كما قالت. رقصنا على عود عراقي، وناي لبناني، ذكرها بكتاب النبي لجبران خليل جبران الذي قرأته باللغة البولونية، وطبلة حلبية وغيتار سويدي، وسكرنا بخمرة سهوب فرنسية، وتلال روسية، وصحاري شيلية، وغابات كريولية، وممرات أعناب كريتية، ومضيت مثل ملك أسطوري نحو الخزانة الأولى في المطبخ لأخرج عود بخور من الرزمة التي اشتريناها من سوق فيستربرو قبل أسبوع. معظم المغتربين ينصاعون إلى نزوة عرض غرائبهم على النساء، كما لو قرأوا رواية الطيب صالح موسم الهجرة إلى الشمال بدقة. تراهم يهتمون بالبخور، والكباب، والفلافل، والأغاني الشرقية، والملابس الحلبية

والعراقية والإسكندرانية والطنجية، ويعرضون بهاراتهم في المطبخ كما لو كانت سرا من أسرار علي بابا.

أخرجت عود البخور وأشعلته، في انخطاف كحولي عادة ما أغوص فيه كلما خلطت بين المشاريب، ثم طفت به في الغرفة والممر والمطبخ والحمام والصالون. وفتحت الباب المطل على الحديقة ووضعته في غصن شجيرة برية، وسط دهشة الجارة العجوز الواقفة في شباكها تراقب صالون نادر وأشباح من عاشوا هنا. ينبغي لي أن أعطر الفضاء الإسكندنافي برائحة ألف ليلة وليلة، قلت لها، ضحكت متهتكة ومنحتني شفتيها برغبة لكنها لم تمنحني فرجها وكنت قاومت نزوتي بشدة. وهبط نادر وسوزان على البيت مثل ملاكين قدما من الجحيم.

قالت سوزان لقد أعجبتني الشقة وقبلت بسعر الإيجار، من الغد يمكننا المبيت هناك، ولاحظت الحبور في وجه جاوانا، وسحبت يدها من يدي ومالت مبتعدة قليلا عني، وكان نادر يحتسي البيرة بلهفة ويحدق في وجه سوزان بإعجاب. قلت لنادر بالعربية: شيء مؤسف، سنفقد البنتين. عرضت على سوزان البقاء في الشقة، لكنها رفضت، قالت إلا بشرط وحيد هو أن نسكن أنا وجاوانا بغرفة واحدة، فرفضت أنا بدوري. قلت لها تسكنين معي وجاوانا تسكن مع صديقي فرفضت، قالت صعب. سرى الليل إلى نهاياته دون أن نتوقف عن سماع الأغاني، ودون أن نتوقف عن احتساء الخمرة. كل ما أتذكره أنني كنت متشبثا بخصر جاوانا، وكان نادر يؤدي لنا رقصة بدوية وسط الصالون، على أنغام أغنية صلاح عبد الغفور شلونك عيني شلونك، شمخلي على عيونك، شكد شفت عيون آنا

والله ما شفت أحلى من عيونك، والدنيا كانت تدور بي وبجاوانا، ولاحظت أشباحا في الحديقة تتفرج علينا، والتلفون الأرضي دق مرات عدة دون أن يجيب عليه أحد. وكان هناك تداخل بيني وبين جاوانا، واشتباك للأيدي والأرجل والشفاه، أعقبه صمت طويل يشبه الغيبوبة. استيقظت منه في الصباح لأجدها بين أحضاني، على فراشي المعطر بماء الورد في الغرفة الثانية. الحقيقة أن ذلك اللقاء مع جاوانا وسوزان لم يتكرر بعد ذلك أبدا.

(٨)

أثناء ما كنت أدور بحصاني الحديدي في بهو المخزن، ناقلا كاميرات، أو مفرغا أكياس النفايات خارج المبنى، تشيح جاوانا بصرها عني كما لو كانت لا ترغب في تذكر تلك الليلة. ربما انتبهت في اليوم الثاني إلى فارق العمر بيننا. بنت جدارا بيني وبينها، حتى أنها لم تبادلني الكلام طوال اليوم. كما دأبت على الجلوس وحدي أمام البحر، فلم تعودا تقتربان مني مرة ثانية. فكرت أن ذلك النفور بسبب السهولة التي حصلت فيها على جاوانا، أو ربما بسبب عدم ملائمة نادر لسوزان. ربما شعرتا أننا أوقعناهما بكمين ايجاد الشقة أو السكن معنا. ومن جانبي شعرت أن جاوانا التي أراها أمامي في العمل ليست الفتاة التي سحرتني أثناء ما كنا في بيت نادر. هل للقرب سبب في هذا الشعور؟ أكيد حين تكون المسافة الفاصلة بينك وبين المرأة سنتيمترات لا غير، تختلف حين تكون على مبعدة أمتار. وقد نفعت أيضا تلك النظرية التي طبقتها وهي أن أكون مراقبا أكثر مما أكون مستعرضا نفسي لجلب اهتمام المرأة. يجب أن لا تستولي علي امرأة بسهولة، وتجربة ماري لن أكررها ما حييت. لذلك كنت غالبا ما أقضي فترة الغداء بمواجهة البحر منغمرا بذكريات بعيدة عن بغداد. كانت تأتيني كثيرا في الأيام الأخيرة، شيء ما يشبه الشوق أو الحنين، فترتسم لي بعض الأحيان مويجات من غبارها الأحمر الذي

كان يملؤ الخياشيم في الصيف ويغطي بطيقة حمراء أشجار أبي نؤاس، وشبابيك البيوت في حي البتاوين، ويغلف المنارات بوشاح من الذرذرات الحمراء التي تتطاير في الفضاء بعد سويعات.

أروح أتذكر سوق الميدان يوم الجمعة، حين كنا أنا وسامر نمر به في طريقنا إلى شارع المتنبي، باعة الملابس العتيقة والخردة والأجهزة الكهربائية، والشيوخ المتهالكي الهيئة والسمات الجالسين على مصاطب خشبية يحتسون الشاي ويحدوق في الساحة. وتأتيني رائحة الأكباد المشوية والكبب والكباب المعشش عليه الذباب، تأتيني الرائحة كثيفة كأنما تدخل في جسدي عبر ممرات سرية تمتد آلاف الأميال.

هل أشتاق فعلا إلى بغداد أم أنه وهم اللحظة، حيث أجلس متوحدا مع ذلك الفيض من المياه الزرقاء الهادئة، ورائحة السمك القادمة من السواحل المرملة. كنت متلهفا لانقضاء يوم الجمعة حين اتصل نامق بي اثناء فترة الغداء، حين كنت جالسا أمام بحر البلطيق، وأخبرني أنه رتب لي موعدا مع ماري. واليوم أيضا سرت شائعة بيننا نحن العمال بأن الشركة قادمة على الإفلاس، وربما تغلق أبوابها أو تستغني عن عدد كبير من العمال. كان مصدر الإشاعة قسم البريد الداخلي، ويصدر البضاعة إلى أوليورغ وفايلا وآهوس وأسبيا، وبقية مدن البلد، وتعمل فيه غالبية دانماركية لذلك صدقناها. سأعود إلى البطالة مرة أخرى.

رحت أتخيل شكل ماري وقد نال منه الزمن، وشكل نجمة وجميلة وقد سارتا نحو النضوج. كان لقاؤنا يوم السبت، كونه عطلة، وسيتم في الساعة الثانية عشرة ظهرا تحت ساعة برج البلدية.

هكذا أخبرني نامق. فذهبت إلى الموعد وحدي. ارتديت أفضل ما عندي من ملابس، وتعطرت، ورتبت شعري حسب النمط الإسباني، أي تسريحه إلى الوراء. لا أرغب الظهور بمظهر زري أمام البنتين وماري. لا أريد أن أبدو شخصا قادما من العراق، حاملا على سيماته ذلك التصور من أننا بؤرة للقتل والعدوانية والجريمة وتفجير الجسد وتفخيخ السيارات. كانت هذه هو الصورة النمطية الشائعة لنا نحن العراقيين هنا في الدانمارك، بين النساء خاصة. لذلك صار من الصعوبة على العراقيين إيجاد علاقات رصينة مع النساء الدانماركيات، كما أوضح لي نادر. لا يجدون سوى المدمنات، والضائعات، والمختلات، من أمثال اللواتي نراهن في ساحة موزارت، عند الغروب. كان وضعنا يختلف في بداية وصولنا إلى البلد، كنا نثير الفضول، بشعورنا السوداء وسمرتنا الخفيفة، وعيوننا السود، والعاطفة المتوهجة التي نبديها للنساء حتى في أول لقاء.

كنت هناك، في الحادية عشرة والنصف. ساحة البلدية تعتبر رئة للمدينة. حين أعود إلى الوراء أحسب عشرين سنة حين رأيت الساحة لأول مرة. هي لا تبعد عن التيفولي، وها أنا أرى دواليب الهواء العملاقة من مقعدي. كما أرى بوابته العجيبة المليئة بالزخارف والرسوم. والأبراج اليابانية والصينية لا تظهر سوى رؤوسها المدببة. لم تتغير الساحة كثيرا عن ذلك الزمن الذي شاهدته فيها قبل عقدين. ما زالت الباصات تنطلق من طرف الساحة، وساعة البرج تدق كل نصف ساعة، وباعة النقانق يركنون عرباتهم في زاوية شارع المشي. رائحة طعامهم المتبل تصل إلى أنفي، وكان هناك جيل جديد من الفتيات الجميلات نما ونضج خلال غيابي. الحياة تستمر معي أو

بدوني، هنا وفي بغداد وفي ساوباولو وفي كل مكان على هذه الأرض. لا رابح سوى الموت. ترى هل تتذكر ماري زياراتنا الدورية إلى التيفولي؟ هل تتذكر تلك الصورة التاريخية التي صورناها معا؟ أم أنها مسحت ذكرياتها معي كلها؟

في لحظة خدرة، وسهوم في الوعي سببته الساحة، رفعت عيني أمامي بغتة لأجد امرأة صغيرة الحجم معها بنتان صبيتان، والثلاث يقفن محدقات بي. عرفتني ماري إذن ما أن وقعت علي عيناها. كانت لحظة محرجة، السلام بارد، ونجمة وجميلة تقفان تائهتين وسط المشهد. نهضت وقبلتهما لكنهما تجاوبتا مع قبلتي بشيء من الجفاء. جلست ماري على المصطبة وجلست جنبها فيما بقيت الفتاتان واقفتين. لا اعتقد أنهما تتذكران ملامحي، تركتهما بعمر الثلاث سنوات تقريبا. أنا بالنسبة لهما رجل غريب. كانت حواراتنا مقتضبة، سألتني ماري عن عملي ومشاريعي ولماذا عدت، وكأنها ترغب في معرفة هذا الكائن الهابط عليها من غياهب السنين مرة ثانية. ماري لم تنس صدمتها معي، فأنا من تركها ومضى. وهو شعور جارح لأي امرأة. لا تغفر لرجل تركها.

قالت لي في نهاية اللقاء الكئيب: عليك أن تواجه الحقيقة عارية، البنتان لم تعودا تخصانك. وعليك الإقتناع بهذا المصير. لا جدوى. لقد ذهب كل واحد منا في طريق. وبعد أن ساد الصمت بيننا، أخذت إيميليا وتبادلنا وداعا باردا أيضا، ثم مضت باتجاه باص فالبي في نهاية الساحة.

لماذا لم أسألها عن القط بيليه، وجارتنا كريته، وأشجار الكرز والتفاح التي زرعناها في الحديقة؟ لماذا لم اسألها عن نهاراتنا على

ضفاف بحيرة دامهوسن؟ لماذا لم اسألها عن أمها المريضة الراقدة في بيتهم الواقع في مدينة كابريوفا على أطراف ساوباولو؟ هل ما زلت تحتفظ بألبوم الصور التي جلبناها معنا بعد عودتنا من البرازيل؟ فاتتني أسئلة كثيرة أوجهها لماري، ماري التي ضاعت في زحمة البشر المتواجد في ساحة البلدية. في الليلة ذاتها أرسلت رسالة إلى ماري على الإيميل، لمجرد الربط بيننا. حاولت فيها أن أذكرها بحياتنا معا التي امتدت نحو عقد. ولكنها كررت علي الأفكار والقناعات ذاتها. أنا الآن خارج حياتهم، وينبغي لي أن أتقبل هذه الحقيقة. لقد تغيرت ملامح البنتين كثيرا، كنت بالكاد أقرأ تقاطيع القديمة حينما كانتا طفلتين. نجمة كانت تحمل ملامح أمها وجميلة تكاد لا تختلف عن واحدة من بنات أخواتي أو أخوتي. خاصة أبناء أخي كمال، كنت دائما أقارنهما بملامح جميلة.

أخبرت نادر عبر الموبايل بما حصل معي ولم يستغرب النتيجة. قال لي: أنت لم تعش معهما مثلما فعلت أنا، كارين ظلت مثل ظلي حتى وصلت إلى هذا العمر. كثيرا ما حممتها طفلة، ورافقتها إلى التيفولي، وأخذتها إلى طبيب حين مرضت، وجلبت لها هدايا عيد الميلاد. لكنك لم تفعل. هذا أمر طبيعي. لقد كنت غائبا كأب، أما أنا فكنت شاهدا على نمو كارين، ونضوجها، لذلك ما زالت تحتفظ بمشاعر الأبوة نحوي.

كلام نادر منطقي، لكنه جعلني أمتلئ بالحزن. كانت واحدة من أهداف رجوعي إلى هذا البلد هو رؤية البنتين. أثناء زيارتنا لساوباولو قدمتني ماري لأهلها باعتباري الزوج الأبدي الذي ستقضي معه بقية حياتها. وكنت مقتنعا بذلك في وقتها، حتى أنها ذات يوم

جاءت لي بقصاصة من الورق وجعلتني أكتب تعهدا بأنني سأدفع لها مليون كرونة إذا ما انفصلت عنها، كنا نجلس في الصالون المطل على شجرة الكرز، ونجمة وجميلة تلعبان في الغرفة. وقالت لي أنها ستتحول إلى شبح وتغزوني في مناماتي وصحوي إذا ما تركتها وتزوجت امرأة ثانية. وتذكرت وقتها سحر الماكومبا، والأفارقة، والهنود الحمر، وأيقنت أن ماري قد تمتلك قدرة التحول إلى شبح. وقد تأتيني لابسة واحدا من أقنعة ساوباولو المجسدة للأرواح الشريرة، تلك الأقنعة المخيفة التي شاهدناها ذات يوم على رصيف الشارع. اتصلت بنامق ووجدته في بيته، فقلت له أريد أن أراك، فاتفقنا على اللقاء في الساحة بعد نصف ساعة.

كانت هناك خيمة في الساحة تجمع عددا من الأطفال يحتفون بالطبيعة، وعلى مقربة من باب البلدية الخشبي الضخم كانت هناك فرقة من أميركا اللاتينية تعزف أغاني من الأورغواي وسرتاو البرازيل وسهوب الأرجنتين، هم وآلاتهم الغريبة ونایاتهم وصنوجهم، ويتجمع حولهم عدد من الدانماركيين والسواح اليابانيين، وهم يلقون لهم بالعملة في بساط صوفي مصنوع من وبر اللاما. زرت مع نامق عددا من السوبرماركتات للتفرج على البضاعة، وتنقلنا بين المحلات الفخمة في العاصمة، وكان نامق مولعا بالنظر إلى العطور الرجالية، والأحذية، والملابس، وهو يتابع أوقات التنزيلات عبر الصحف التجارية المتوفرة في محطات الباصات والقطارات وحتى داخل البيوت. عالم يحركه الإعلان كما يقول نامق. إعلانات عن كل شيء. عن البيوت، السيارات، الشاليهات، اللحوم، السفرات، من يمتلك النقود سوف يعيش في جنة. لكن ما كان يهم نامق من كل ذلك هو

البحث عن البضاعة المناسبة لعائلته كما يقول. تحول إلى نحلة في غابة كوبنهاغن الوارفة. يشتري الحليب من فوتيكس، واللحوم من فاكتا، والخضار من سوق العرب في نوربرو، والبسكويت من آلدي. يشتري أنواع العصائر والمثلجات والكريمات والبهارات لمطبخ ربيعة العامر دائما. المطبخ الذي تناولنا فيه أنا ونادر ألذ الأطعمة. بالمناسبة مطعم ربيعة ينتج أكلات تعود لأكثر من شعب، أكل جزائري، عراقي، دانماركي. ويظل شيء واحد يحرص عليه نامق كل الحرص هو توفر أنواع الخمور تحت يديه. النبيذ والبيرة والويسكي والمارتيني والفودكا البولونية والسنابس الدانماركي. لا يستطيع صرف وقته دون خمور.

ذهبنا سوية لتسلم تقارير طبية من مستشفى كوبنهاغن المركزي الكائن في منطقة أوستربرو حول تطور مرض عشتار. وكانت الضربة القاصمة التي أصابت نامق هو تأكيد التقارير كلها على أنها مصابة باللوكيميا. كيف ذلك، كان يقول لي أثناء رفقتنا في كوبنهاغن. طفلة لم يتجاوز عمرها الثلاث عشرة سنة وتصاب بالسرطان؟ لا تدخن، لا تشرب الكحول، تعيش عيشة صحية في البيت، وتصاب بهذا المرض الخبيث؟ أمر غير مفهوم. ولأنه أمر غير مفهوم، لذلك غرق نامق ببحر الشراب محاولة للبحث عن خطأ ما ارتكبه هو أو ربيعة بحق عشتار. قد يكون السبب تناولها لمقدار كبير من الأغذية المصنعة أو المسلفنة، يحدثني أحيانا بهذه الهواجس، مثل الجبس والأندومي والكوكاكولا والمعلبات والشوكولاتة. ولإعتقاده أن الخطر جاء من هنا ترك نهائيا جلب مثل هذه الأطعمة إلى البيت. أخذ يبحث عن الأطعمة والأشربة الطازجة فقط. لكنه لم ينقطع عن الغوص في لجة الخمور لنسيان

المرض. كيف لي أن أحتمل رؤية عشتار تخطو إلى عالم الموت يوميا ولا أستطيع عمل شيء لها؟ لا أستطيع إنقاذها؟ ليتها كانت بحاجة إلى كلية مثلا، أو دم جديد، أو عضو يمكن استبادله كي تواصل الحياة. كنت دفعت حياتي ثمنا لذلك.

هذا التناقض الإنساني يمزقه ساعة بعد ساعة. العجز. يحس أنه عاجز تماما. وفيما نحن نسير على كتف البحيرة، قرب ذلك المطعم الياباني الواقع في وسط الجسر بقبابه وسقوفه الشرقية وأعمدته البيض، أخبرني نامق عن صديقنا القديم مراد قامشلو. مراد الذي كان مذيعا في إذاعة كوبنهاغن العربية التي كانت نافذة مهمة لنا نحن اللاجئين لكي نعرف ما يصدر من قوانين تخص الأجانب. كانت تبث في الساعة الخامسة عصرا، وننتظرها بفارغ الصبر في أي مكان نتواجد فيه. كانت مدة البث باللغة العربية لا تتجاوز النصف ساعة. نامق يسير على مهل محني الظهر، شعره راح يغزوه الشيب بكثافة، وينفخ دخان سيجارته البرنس إلى الفضاء الرطب، وأنا أمشي جنبه أتأمل ببحيرات طالما مشيت حولها في العقود الماضية، مشيت حولها وحدي أو برفقة نساء أو مع أصدقاء.

نامق مجهد، من المشي ربما أو من عبء داخلي لم أستشفه، يلهث بصوت مسموع وينقل خطواته كمن يبذل جهدا، أو كأن الأرض تناديه لكي يرتاح بعد هذه الحياة الطويلة. وبين الحين والآخر يسعل بصوت عال ويبصق كتلة لزجة إلى ماء البحيرة، ويمسح عينيه بباطن كفه التي يمسك بها السيجارة. وحين يتكلم معي أرى ارتجافات خفيفة على زاويتي شفتيه، ورغم ما يبديه من برود ظاهري وتماسك إلا أنني أحسست بأن دواخله مأزومة متوترة، ولم

شأ العودة إلى ما يعانيه من مرض عشتار.

في العلوم الباطنية التي درستها ذات يوم حول لغة الجسد، فكرت أن انحناء ظهر نامق وهو يمشي، دلالة على استسلامه الكامل للحاضر الذي يعيشه، وخوف قابع في روحه من الماضي، الماضي وهو ينيخ عليه مثل من يحمل كيسا ثقيلا. البجع في البحيرة يسرح متأملا في عالمنا نحن البشر، ساكنا ينساب على ظهر الموج مثل موسيقى شرقية خفيفة. هذا الجمال المستولي على ضفاف البحيرات، والضوء المنبلج من بين الغيوم، قد لا يتحسسه نامق، أو على الأقل لم يعد يجذب مشاعره. فجأة سألني نامق سؤالا وجدته غريبا، قال هل تعتقد أننا لو كنا متزوجين بعراقيات لوجدنا سعادة أكبر في حياتنا؟ أنظر إلى نفسك تزوجت من برازيلية وخلفت منها بنتين، وهي تنكر عليك حتى اللقاء بهما، ونادر تزوج من الباشا البولونية، ولم يعد يعيش سوى لإبنته كارين، وأنا تزوجت جزائرية، ألا تجد شيئا ناقصا في هذه السيرة؟ هل تعتقد أن الفرق سيكون كبيرا؟ ألا ترى حالات الطلاق في العائلات العراقية؟

أكثر من ثمانين بالمئة من العائلات العراقية شهدت حالات طلاق. قال نامق ألا تذكر كيف كنت تتكلم مع ماري باللغة الإنكليزية، ومع طفلتيك بالعربية، وهما تعيشان في مجتمع دانماركي؟ وحالة نادر لا تختلف كثيرا، لقد فقد اللغات جميعا، بما في ذلك العربية. أخبرني كيف تكون العلاقة بين أب وابنته وهما لا يستطيعان التفاهم بلغة بعينها؟ ألم تلاحظ نادر حين يتكلم مع كارين؟ يخلط الكلمات البولونية القليلة التي تعلمها أثناء عيشه مع الباشا بالكلمات الإنكليزية والدانماركية لكي يوصل لها الفكرة؟

وماذا عنك أنت؟ ربيعة جزائرية وهي تتكلم العربية، هل تعانيان أيضا من مشكلة التواصل؟ المسألة لا تنحصر باللغة فقط، هناك اختلاف العادات، واللهجات، والرؤية للحياة والأسرة، في الزواج المزدوج كحالنا نحن، يفقد الشخص الحائط الذي يتكئ عليه، أي العائلة الكبيرة من الأخوة والأخوات والآباء والأجداد والعمات والخالات، إضافة إلى الهموم المشتركة. أظن الزواج من عراقية كان ليكون أفضل في وضعنا، على الأقل يظل البلد، العراق، متكأ للجميع. أسر كأسرنا لا تعيش الإنسجام، بسبب اختلاف هوية الأبوين. قلت لنامق هذه ليست مشكلة العراقيين لوحدهم، إنها أصبحت إشكالية عالمية، خاصة والشعوب تعيش مرحلة غريبة من الهجرات، وتغيير الأوطان والديانات، وتبني ثقافات ثانية غير ثقافة الأم. قد تكون الحالة غريبة على مجتمعنا العراقي، الداخل حديثا إلى نفق الهجرة والإغتراب. الحالة التي أسميها ظاهرة، تفاقمت كما تعلم منذ أن نشبت تلك الحرب الملعونة بيننا وبين إيران.

كان نامق يلهث من خلال الكلام وكأنه يزيح هاجسا فكر فيه كثيرا فيما سبق، ويستل سيجارة جديدة من علبته كلما انتهت واحدة. قال لربيعة التي اتصلت به عبر الموبايل إنه على بحيرة نوربرو، معي، وظل يستمع إليها برهة أثناء المشي ثم أنهى المكالمة، وما أن صعدنا إلى الجسر حتى طلب مني نامق الدخول في شارع نوربرو لشراء بضاعة شرقية للمطبخ كما أوصته ربيعة. شارع نوربرو يختلف عن شوارع كوبنهاغن الأخرى، هنا يشاهد المرء خليطا من البشر، من قارات عديدة، وإن كان العرب يشكلون الجزء الأكبر منهم. افتتحوا دكاكينهم الصغيرة، ومحلاتهم التي تبيع الخضرة والبهارات والرز الشرقي والحلويات التركية والإيرانية والتمر السعودي المغلف

بأناقة والدبس العراقي والراشي اللبناني والمتبل والحمص بطحينة، وغير ذلك الكثير.

لا يمكن لشخص شرقي الدخول إلى واحد من تلك المحلات دون أن تغريه حاجة ما فيعمد إلى شرائها، وثمة ما يغري دائما كما يقول نامق. تجولنا في المحل المكتظ بالبضاعة واشترى نامق خيارا شرقيا، وهو ذو أحجام صغيرة وطعمه لذيذ ليس كما الأوربي الضخم الحجم والممتلئ بالماء والهارمونات الزراعية. وكذلك اشترى كيسا من الحناء نربيعة، وبطيخة صفراء كون عشتار تحب البطيخ الأصفر، وكارتونا من الكباب التركي المجمد، وعلبة الحلاوة الطحينية، وبقلاوة عراقية، وكيسا من الكرزات المخلوطة بزنة كيلو غرام. وتقدم نامق لدفع الحساب، ولفت نظري جريدة بالعربية كانت مكدسة قرب الحاسبة توزع مجانا، اسمها جريدة الخبر، فتناولت نسخة منها وخرجت إلى الشارع منتظرا مجيء نامق. قال لي نامق، أثناء ما كان يحمل أكياسه ويتجه بنا نحو الباص رقم خمسة الواصل إلى ساحة البلدية، هذه هي الجريدة التي يرأس تحريرها صديقنا مراد قامشلو، المذيع في إذاعة كوبنهاغن العربية، تذكره أليس كذلك؟ في اللحظة ذاتها وقف نامق بذهول وأشار لي إلى الجهة الأخرى من الشارع وقال بهمس، كما لو أنه لا يريد لكارين أن تسمعنا: أنظر، كارين إبنة نادر، تمشي مع شاب أفريقي. نظرت إلى الجهة التي أشار إليها فشاهدتهما وقد وضعت كارين يدها في يد ذلك الشاب، وكانا يتجهان نحو إيلما كادا، المشهورة بتنوعها الإثني والديني.

قال نامق حدث الأمر قبل سنة تقريبا، قبل مجيئك، كنا في ضيافة نادر أنا ويوسف، وفي حوالي الثامنة مساء سمعنا جرس

الباب يدق بعنف وفتح نادر الباب مرعوبا، وإذا به يجد كارين منهكة مدماة، وهي تبكي بحرقة، وفهمنا منها أنها تعرضت لإعتداء من قبل مجموعة من أصدقائها، من بينهم أفارقة، قريبا من البيت. كانت حالة كارين لا تسر، الدماء تسيل من وجهها، وثيابها ممزقة، وبالكاد تعبر عن نفسها، شككت أنا أنها تناولت مخدرات، ليس هناك رائحة للخمر منها، وقد سرقوا منها موبايل غالي الثمن من نوع نوكيا. خرجنا أنا ونادر محاولين تعقب الشلة في أزقة سوذهاون لكننا لم نقع لهم على أثر. وحاول نادر إبلاغ الشرطة لكنها رفضت، قالت لا تريد أن تثير فضيحة، عدا ذلك هم أصدقاؤها، وكانت في تلك الفترة تعيش مع الباشا، وترافق عددا من الفتيات المراهقات من أصول أجنبية، أو من عائلات دانماركية منحرفة، عادة ما تكون الأم مدمنة كحول أو عاطلة عن العمل، أو حتى عاهرة من عاهرات إستيدكاذا. تعرف هنا كثير من الشباب المنحدرين من أصول أجنبية عادة ما يدفعهم المجتمع إلى الإنحراف بطريقة من الطرق، الإدمان على سبيل المثال أو تناول المخدرات، وهم يعانون من عنصرية خفية من قبل المجتمع، بسبب أصولهم الأجنبية. وكردة فعل على تلك المعاملة يتكتلون سوية، ولا يعترفون بالقوانين، بل يتعمدون أحيانا خرقها أو التحايل عليها. طوال تلك الليلة أراد نادر معرفة ما جرى حقيقة معها لكنه لم يوفق، إلا أنني فسرت الأمر على أن كارين ماشية بصلادة في طريق منحرف، ونادر لا يريد أن يعترف بذلك. ما زال يتعامل معها كونها تلك الطفلة الصغيرة البريئة التي لا تعرف شيئا عن الجنس والمخدرات والتسكع الليلي دون هدف. هو لا يعرفها جيدا، فقط حين تحتاجه في النقود تأتي إليه إما عدا ذلك فلا تتعرف عليه، بل هي وكما أحس أحيانا تخجل من كونه أباها.

(٩)

لم أكن أعلم أن تلك الجريدة ستردني ثانية إلى ذلك البلد. وتقرر لي انتقالة أخرى في مسيرة حياتي القلقة التي لم تعرف الركون منذ تلك الرحلة الجبلية التي قطعتها مع نامق خارج لهيب المعارك.

تفحصت العدد، وهو العدد الثاني، بدقة، مستكشفا المستوى الصحافي للعرب في أوربا. وهي بطريقة ما تكشف تطور صديقنا القديم مراد قامشلو، وهو وإن لم يكن صديقا شخصيا لكنني التقيته في عدد من المناسبات التي جمعت الجالية العربية في كوبنهاغن. جاءت إلى ذهني صورة غامضة، بعيدة، عن شاب حنطي الوجه، ذي عينين واسعتين، وشعر معتنى به، وكان يرتدي عادة ملابس بيضاء، ويحمل مظهره العام شيئا كثيرا من الأناقة. بصوته العميق، ولكنته السورية، كنا ننتظر منه، طوال سنوات النصف الأول من التسعينيات، كل يوم، أخبار الأجانب في الدانمارك، عند الساعة الخامسة مساء. لمراد قصة مشابهة لقصصنا نحن، لقد تزوج من فتاة قامشلية ولدت له بنتا وصبيا، ثم طلقها بعد ذلك مباشرة وأعادها إلى سوريا، وبقي وحيدا مع الطفلين منذ ذلك الحين. ورد إلى ذهني فكرة أن الزواج المختلط ليس هو الوحيد سببا لتعاستنا وقلقنا

وتفكك حياتنا كما يعتقد نامق، فحالة مراد قامشلو تكذب هذه النظرية. ثمة سبب آخر للتعاسة.

كان نادر خارج البيت، يدور على المزابل في منطقة سوذ هاون، فهذا هو الوقت المناسب له كل يوم، عند الغروب تحديدا، حين تبدأ الشوارع بالخلو من المارة، وتأوب العائلات الدانماركية إلى بيوتها لتناول وجبة العشاء. وجلست أنا في غرفتي أقرأ الجريدة بتمعن. هناك ملخص لأهم أحداث الشهر في الدانمارك، وباب للثقافة والفنون يلخص نشاطات أبناء الجالية العربية، ومعارضهم التشكيلية، ومناسباتهم الوطنية، مع صور لفتيات أنيقات وشباب من الجيل الجديد، الذي يصعب تمييزه عن الشباب الدانماركي الأصيل، وباب للأسرة، وما تعانيه الأسر الأجنبية في تعاملها مع الموضة والهوية الدينية وتربية الأطفال. وباب للمنوعات، ومقابلة مع صاحب مطبعة عراقي نجح في عمله وصار نموذجا للمغترب الناجح كما تقول مقدمة اللقاء. محاولات الصحافة العربية في الدانمارك لم تولد اليوم، عاصرتها منذ دخولي البلد في تلك الليلة العاصفة، عشرات النشرات السياسية أسسها المعارضون لأنظمتهم ومجلات أدبية تصدر عددا أو عددين ثم تموت وصحف تهتم بالشأن الدانماركي تغلق أبوابها ما أن ينتهي التمويل الحكومي. ورأيت عددا لا يستهان به من الأشخاص الذين يحلمون بأن يكونوا رؤساء تحرير حتى لو كان ذلك من خلال اصدار بصفحتين أو أكثر بقليل. الحرية المتاحة هنا تجعل تحقيق رغبة أي كاتب أو صحفي من الدرجة العاشرة سهلة التحقق. فكرت بهذا الهوس منذ فترة طويلة، وفسرته أن هؤلاء المغتربين عن بلدانهم يطمحون إلى خلق وطن بديل حتى

لو كان ذلك على الورق. وهي عقدة الجيل الأول منا، في حين بدأ هذا الهاجس يخفت لدى الجيل الثاني والثالث، حيث صار الإندماج في المجتمع وثقافته ولغته هو السائد اليوم.

الجيل الثالث لم يعد يجيد حتى لغة الكلام العربية، والشيء الوحيد الذي بقي له هويته الدينية، وتتجسد في حجاب البنات الصغيرات والكبيرات، كما أشاهده في مختلف مناطق العاصمة.

لكن أكثر ما جذب نظري تقريرا أخذ صفحة كاملة من الجريدة حول مقبرة المسلمين، وبعض الشخوص الذين دفنوا فيها في السنوات الأخيرة، وهي مكان صغير يقع في مقبرة فالبي الشاسعة. في بداية التقرير يقول الكاتب إنه دخل المقبرة من بابها القريب من محطة شلور، وكان ثمة مساحة واسعة تنتشر عليها الصلبان، لآلاف الضحايا من القبور هم شهداء المقاومة الدانماركية الذين قتلوا في تصديهم للإحتلال النازي للدانمارك، والدانمارك الرسمي فتح الباب لجيوش هتلر دون مقاومة، لكن اليسار والوطنيين قاموا بتنظيم مقاومة شعبية كان لها سجل حافل من البطولات ما زال التاريخ الدانماركي يمجدها. وكانت تلك القبور المجهولة بصلبانها البرونزية تواجه الداخل إلى المقبرة كما لو كانت تذكره بصفحة مشرفة سجلت قبل عشرات السنين.

يختفي الباب الرئيسي للمقبرة تحت خيمة واسعة من الأشجار العملاقة، فيما تنتظم الطرق المعبدة في قلب الغابة تلك وتقود البصر إلى مئات، وآلاف القبور، ذات الشواهد الفسفورية والرخامية وضع على بعضها طيور رخامية أو شدات من الورد أو الأغصان الجافة، وفسقيات تجاور القبور، وثمة من زرع شجيرات في

الفسحات المحيطة بالقبور. كانت مقبرة المسلمين تقع في الركن الغربي من المقبرة، تظللها أشجار السرو والجوز البري، وقد التمت على بعضها خائفة من غربتها الباردة. عراقيون ولبنانيون ودانماركيون مسلمون ومغاربة وفلسطينيون، قبروا هنا في سلام بعيدا عن بلدانهم، وقد تأسست المقبرة بعد فترة قليلة من دخول موجة اللاجئين في الثمانينيات، ودشنها أول مسلم عراقي وجدوه ميتا في غرفته الواقعة في منطقة آما. اسمه ماجد عرسان، وقيل إنه كان من محبي الشعر والأدب، قدم من ايران إلى الدانمارك بعد أن أمضى عدة سنوات في السجون العراقية كونه من التبعية الإيرانية. الشخص الآخر الذي ورد اسمه في التقرير هو أبو علي، وكنا نطلق عليه اسم الشايب لأنه كان أكبرنا سنا نحن الجيل الأول الذي قدم إلى الدانمارك، فارق الحياة وهو بعمر قارب الثمانين، وقد التقيته صدفة في بغداد حين كنت اشتغل في واحدة من الصحف كمترجم مع سامر الصحافي وسنان الشاعر المدقق اللغوي. وحدثني وقتها عن معاناته مع الدوائر الحكومية في استرداد بيت مصادر من أيام الحرب العراقية الإيرانية كونه كان مناضلا شيوعيا هرب إلى إيران واستقر هناك.

وأغرب ما قرأت في التقرير أن هذه المقبرة الإسلامية يطلق عليها عادة مقبرة الليبراليين، وهي تبعد حوالي مسافة أربعة شوارع عن المقبرة الإسلامية الثانية المجاورة للسياج الحجري من الجهة الشمالية، والتي يدفن فيها المسلمون عادة بطقوس اسلامية تقليدية، وفيها يدفن أيضا الأتراك والإيرانيون والفلسطينيون وغيرهم من المسلمين. وجاءت هذه التسمية، أي مقبرة الليبراليين، بعد أن دفنت

بها الممثلة العراقية سناء محمد، التي توفيت بالجلطة الدماغية، وكون زوجها ذا عقيدة شيوعية طلب من إحدى الجهات الدنماركية دفنها في مكان آخر غير المقبرة التقليدية للمسلمين، فاختاروا هذه البقعة الصغيرة لقبرها، ثم جرى بعد ذلك دفن أي شخص غير سلامي في هذه البقعة. وكان في الصفحة صور لقبور وشواهد مكتوبة باللغة العربية، وصور قديمة للراحلين، وأصص من الزهور نثرت على تلك القبور.

حين أنهيت التقرير أعجبتني الجريدة وأخرجت رقم مراد قامشلو المرفق مع العنوان وصفة مراد كرئيس تحرير واتصلت به. لم أزل أتذكر صوته العميق حين كان يقرأ نشرة الأخبار في راديو الدانمارك العربي، غير أنه أصبح أكثر عمقا ربما بسبب العمر، وأبطأ من ذي قبل. أشدت بالجريدة، والتقرير الصحافي عن مقبرة المسلمين في الدانمارك، وبينت له ضرورة وجود صحيفة عربية تهتم بشؤون الجالية، وكان سعيدا لهذا المديح والإطراء. تذكرني بغموض، لكنه سمع عن عودتي إلى العراق، وطلب مني الكتابة للجريدة، وتواعدنا على اللقاء ذات يوم. ثم سمعت صوت الباب ينطبق، لقد خرج نادر وبقيت وحيدا أتجول في حدائق الإنترنيت، ليس هناك أي هدف معين في رأسي. قرأت رسالة مطولة لصديقي سامر وهو يخبرني فيها عن حالة صديقنا الشاعر سنان بعد أن تدهورت مع إدمانه للعرق، لم يعد يخرج إلى عمله في الجريدة، وإن جاء فتسبقه رائحته الخليط من العفن الجسدي ورائحة الخمور والتبغ. قال إنه يستمتع بعزلته، أي سامر، في مكتب تكوين، ويعتبره ملاذا لروحه.

وكانت حياتي في هذه الأيام على الشكل التالي: بدأت أستلم

راتبي من نقابة العمال، راتب بالكاد يكفيني للعيش، وعلاقتي مع يوسف صارت باردة، لا أتصل به ولا يتصل بي، ونتفادى الجلوس سوية. زاد نفوره مني حين اكتشف ما قمنا به أنا ونادر مع سوزان وجاوانا في تلك الليلة المجنونة. قد يكون شعر بالغيرة، كوني نلت واحدة من البنتين. يوسف من الصعب التعامل معه. وما ربحته من تركي العمل هو الوقت، أصبح فائضا، وأصبحت في عطالة دائمة. لكن هذه العطالة أفادتني من جهة أخرى. تفرغت لملاحقة قضية الحصول على شقة، فزرت معظم شركات السكن، وأدرجت تفاصيل عني لديها عسى أن تجد لي شقة مناسبة يوما. سكني مع نادر صار مرهقا. ولوجود وقت فائض لدي، بعد أن أغلق فرع الدي أج أل، وصرت عاطلا عن العمل، قررت الكتابة للجريدة، وبدأت بأول تحقيق عن سوق البراغيث في منطقة فريدريكسبيرغ، باعتبارها منطقة تمازج عرقي، وديني، ولوني، يستثير الخيال.

نادر رحب بمرافقتي إلى هناك، وقال إنه لم يزر السوق منذ سنة تقريبا. كان عادة يذهب كل أسبوع إلى هناك للبحث عن محولات مستعملة، وهواتف نقالة، وراديوات من طرز قديمة، وسخانات للخبز، وكاميرات، وكومبيوترات محمولة، وأخبرني أنه يبيعها في بولونيا كلما سافر إلى هناك، حيث ما زال على علاقة جيدة مع جد كارين، الذي يعيش وحيدا في مدينة صغيرة في شمال بولونيا.

في واحدة من الصباحات المشرقة وصلنا أنا ونادر، إلى سوق فريدريكسبرغ، وكان السوق في بداية حركته. حين أعود إلى سنوات ماضية، أستعيد أياما كثيرة جمعتني بماري في زيارة السوق. كان ذلك في فترة الحب التي امتدت أشهر. هل كان منظر السوق، وكما

أشاهده أمامي يشبه ذلك السوق قبل عشر سنوات؟ لعبة الزمن مع الأمكنة فكرت فيها كثيرا، كيف تتغير الشوارع، والبيوت، والحدائق عبر الزمن؟ هل الطيور المحلقة في فضاء السوق هي ذاتها التي راقبتها قبل سنين وسنين؟

ثمة سر في تغلغل الزمن في الأشياء، سواء كانت جمادات أم أحياء. جربت ذلك في أكثر من مكان، لكنني لم أستطع الوصول إلى سر قدرة السنين على تغييرنا. في زمن ماري كان العراق أشبه بحلم غامض لا يمكن إمساكه. ذلك الحلم تلاشى اللحظة وفي رأسي خارطة مختلفة، واقعية، وفجة. الدرس الذي تعلمته في حياتي هو أن الزمن يقشر أوهامنا بقسوة. تقشير متواصل لا ينتهي إلا بدخول القبر. حتى سوق فريدريكسبيرغ كان له طعم آخر. الزمن نقار خشب لا يني عن الحفر. الحفر في أجسادنا الرخوة المصنوعة من عجينة السليلوز.

نقار الخشب مر بالتأكيد على سوق فريدريكسبيرغ هذا. هنا، في هذا السوق العجيب، يمكن شراء كل شيء، قال لي نادر الذي جلبني منذ الصباح إلى سوق الخردة هذا، لأن أفضل السلع تباع باكرا، لذلك ينبغي التواجد وقت الافتتاح إذا ما أردنا الوقوع على شيء رخيص وثمين، قال.

كان السوق يقع خلف كاتدرائية فريدريكسبيرغ، في ساحة واسعة جنبها حديقة تحيط ببحيرة صغيرة مليئة بالبط. كان نادر يبحث عن مذياعات قديمة، قال ربما سيبيعها في بولونيا، حين يسافر إلى هناك، بأسعار مغرية. هم يحبون مثل هذه الأشياء القديمة التي حرموا منها عشرات السنين. راديوات بمختلف الأحجام، أشرطة

موسيقية لفرق أوربية ودانماركية على سيديات، معاطف شتوية، أحذية، مظلات للمطر، كتب باللغة الانكليزية لأشهر كتاب القصص البوليسية ومنهم أجاثا كرستي، وري برادبري، ونسخ قديمة لكتاب إسكندنافيين، وألمان. شراشف للأسرة وجاكيتات فرو وجلود. وعلى طرف السوق كان هناك باعة للسجق والقهوة والشاي، والبحيرة الصغيرة ما زالت تنتصب هناك محاطة بالورود والشجيرات الصغيرة. فتيات مراهقات، عجائز، نساء بدينات، لم أكن اتصور أن المجتمع الدانماركي يأتي إلى سوق الخردة هذه للتسوق، وبهذه الكثافة. كان هناك أيضا أجانب ذوي شعر أسود وعيون سود، ونساء محجبات ينتمين إلى الجالية المسلمة.

لا أعرف لماذا جاءني خاطر أنني سألتقي بماري في سوق فردريكسبيرغ. وحين تصورتها ترافق نجمة وجميلة وكيف أقف أزاء هذا الموقف دب الذعر في جسدي وراح قلبي يخفق. بالصدفة البحتة رأيت جاوانا مع شاب أشقر طويل عند محل القهوة، فتفاديت الإلتقاء بها. نادر لم يلحظ وجودها وكان مشغولا بتقليب أجهزة تلفون ذات شاشات تسجل رقم المتصل. لم أر جاوانا أو سوزان منذ إغلاق الشركة. انقطعت أخبارهما. قال لي نادر أنه عازم على السفر إلى بولونيا في الأسابيع القادمة، عبر الباخرة الموجودة في ميناء نورثهاون، وسيأخذ معه الأجهزة الموجودة في البيت. قال إنه سيبيعها هناك وسيسترد تكاليف السفرة. اتصل قبل يومين بوالد الباشا مخبرا إياه بنيته للتوجه إليهم. اتصلت بنامق ووجدته نائما، قلت له نحن في سوق فريدريكسبيرغ إذا ما رغب في المجيء. قال إنه لم يزل نعسان، لقد رجع متأخرا من مستشفى كوبنهاغن الوطني.

كنت تابعا لنادر، أمشي وراءه دائما، أنا لا أهتم كثيرا للبضائع المستعملة، عكسه هو. ما يشغلني هو التقاط أهم ما يحتويه السوق من أجل كتابة التقرير. في نهاية السوق الملاصق لمبنى البلدية اقترحت على نادر مغادرة متاهة السوق، والعودة إلى البيت، وكان خالي اليدين من البضاعة، فهو لا يمتلك النقود للشراء، ولهذا من العبث البقاء في السوق. وكنت أنظر إلى المظلات المنصوبة، والنساء الجائلات بين البضاعة، وأشجار الجوز البري عند المنتزه، والسماء الملبدة بالغيوم، والشوارع الغاصة بالسيارات، ووجه صديقي نادر المنشغل بكاسيتات عتيقة تحت يديه، وأنا أقر بأنني في بلد غريب، ومع بشر لا يهمونني، وأشجار لا أعرفها، وشوارع منظمة أكثر مما أحتمل، وذبذبة أفكار تشع من الرؤوس لا تخصني ولا أتواصل معها.

(١٠)

شعرت أنني غريب تماما. هذه مدينة ليس مدينتي، لم أعش طفولتي فيها، ولا أعرف أصدقاء المدرسة فيها. هذه مدينة تعتقد أنني مختلف، ولا أنتمي إليها. ربما بسبب هذه المشاعر لاحظت أن كثيرا من المغتربين يتحولون في أخريات حياتهم إلى مدمنين على الكحول. كانت هذه اللحظة هي الأولى التي فكرت فيها بترك هذا البلد مرة أخرى. بدأت الفكرة تنخز عقلي في الصباح حين أفيق من الفراش، وأفتح عيني، لأقول لنفسي ما الذي تفعله هنا. ليس سهلا تقبل فكرة العودة إلى أرض العنف والدماء ثانية. لكن بعض الأحيان هناك مؤثرات سرية تفعل فعلها في قرارات الشخص، وفي سلوكه. مؤثرات يسميها البعض الصدفة، الحظ، القدر، المصير، لا أعرف. لكن الدفعة الكبرى لتقبل هذه المهمة جاءت بعد قراءة القصة التي كتبتها نجمة، إبنتي الكبرى، وأرسلتها على بريدي الألكتروني. كانت مفاجأة صاعقة بحق، لم أكن أتخيلها. رأيت المقت والكره في عينيها حين التقيتها في ساحة البلدية. ورغم وجود ملامح وبصمات شبحية لسمات عائلتي في وجهها لكنني أحسست بها غريبة عني. هل تصدقون بتوارد الخواطر هذا؟ هل تصدقون مثلي بحكاية التخاطر عن بعد؟

وجدتها على بريدي الألكتروني بعد رجوعنا مباشرة من السوق. كان عنوان القصة (على ضفاف بحيرة دامهوسن). وإليكم القصة كما كتبتها نجمة، نصا، وحرفيا، باللغة الدانماركية، وأنا هنا أترجمها إلى اللغة العربية. تذكروا قبل أن تنهوا قراءة قصة على ضفاف بحيرة دامهوسن أنها أحد الأسباب الرئيسية للرحيل عن هذه البلاد. كتبت نجمة بلغة فتاة مراهقة لم تبلغ السادسة عشرة من العمر، وهي إبنة ثلاث ثقافات، العربية جينيا، والبرازيلية لغة وجينا، والدانماركية ثقافة وتعليما، كتبت بأسلوب لا يخلو من الرومانسية والعاطفة، لكنه أسلوب معجون بالصدق، واعتبرت القصة رسالة موجهة لي وحدي: سرت على رصيف بحيرة دامهوسن بدراجتي الهوائية، وكان الضباب يتغلغل بين الأشجار، وينفرش على صفحة الماء، كأي خريف دانماركي آخر. وعند منتصف البحيرة وقفت وركنت دراجتي على جذع شجرة جوز بري، ثم جلست على مصطبة خشبية، ورحت أتامل بصفحة الماء الساكنة. أمي في عملها، وأختي الصغيرة ظلت في البيت، ولم تقبل الخروج معي، وكان أبي غائبا في مكان بعيد جدا. لم أره منذ سنوات طويلة، قالت لي أمي لا تفكري به لقد هجرنا ومضى، ولكنني دائما ما أسأل نفسي هذا السؤال: لماذا لا نمتلك أبا يعيش معنا مثل كل بنات صفي اللواتي أعرفهن ويتحدثن كثيرا عن آبائهن؟ كنت أفكر بهذه الخواطر، مأخوذا بالضباب وورق الشجر المتدحرج حول السيقان، فيما كان البط البري يعوم على سطح البحيرة لاهيا عن الشمس الغائبة والضباب الخريفي، وكان هناك أشخاص محدودون يتجولون على كتف البحيرة معظمهم من العجائز. قالت لي أمي إننا كثيرا ما جئنا بك مع أبيك إلى بحيرة دامهوسن. الشيء المؤلم أنني لا أتذكر ذاك الزمان، ليتني كنت

أتذكره، على الأقل سأمتلك حزمة من عصب الرأس يخص أبي الغائب.

وسط هذه الخواطر رأيته يخرج من وسط البحيرة ويقترب مني، على وجهه الأسمر ابتسامة خفيفة. قال لي فجأة أنا أبوك، ألا تتذكرين وجهي؟ كلا، أجبته، أنت لست أبي، هو مسافر إلى بلاد ألف ليلة وليلة، ولن يعود ثانية. أنا أبوك وسأخبرك أين تعيشين، في شارع صغير في منطقة فالبي، شارع ناكسكو في، البيت رقم أربعة عشر في الطابق الأرضي. جارتك كريته، وكنت تملكين قطا صغيرا اسمه بيليه، على اسم بطل البرازيل في كرة القدم. أليس كل ذلك صحيحا؟ أجل قلت له، لكنك لست أبي، لأنني لا أعرفك. لم تقل لي تصبحين على خير حين أنام في السرير، ولم تشتر لي هدايا رأس السنة، كل الآباء هنا يفعلون ذلك. كما لم تعلمني الحساب واللغة، ولم توصلني يوما إلى مدرستي، لذلك لا أصدق أنك أبي. رأيت الحزن على وجهه، وكاد أن يغادرني إلى تحت الماء، لكنني كنت غاضبة حقا، فقلت له متابعة، لماذا لم تشتق لي، وكأنني لم أكن موجودة في حياتك؟ الآن بعد كل هذه السنين تظهر لي في البحيرة وتطلب مني أن أحبك؟ كلا، لا أحتاج إليك. عد من حيث أتيت، ولا أريد أن أراك مرة أخرى. كانت مفاجأة كبيرة لي حين رأيت دموعه تنهمر من عينيه.

ورأيته أيضا ينسحب من أمامي، ويمشي نحو وسط البحيرة، حيث تلاشى تحت الماء. انتبهت إلى روحي، ووجدتني أبكي، وهناك عجوز دانماركية واقفة قريبا من المصطبة تحدق بي، فما كان مني الا أن نهضت من مكاني ومشيت إلى دراجتي المركونة على

الساق الثخين. وخلال لحظات خريفية رطبة، كنت أمتطي دراجتي خارج بوابة البحيرة، متجهة إلى البيت، وحزن ثقيل يملؤ قلبي.

بعد أن قرأت القصة تذكرت كلمات نادر وحديثه عن الهوة التي فصلتني طوال هذه السنوات عن البنتين. أنا لا أشبه نامق بعلاقته اللصيقة مع ابنتيه، وقد صرف حياته لهما وحدهما، ولا أشبه نادر الذي يعيش هو الآخر لكارين. أصبحت لا أعيش لأحد، لذلك ربما علي أن أدفع الثمن. أنا أعيش في فراغ. في فراغ رغم المساءات التي أقضيها مع نامق ونادر في التجول بشارع استيد كاذا أو شارع المشي أو في الحدائق الملكية. لم أسهر في بار منذ رجوعي إلى هنا، أحسست أن سني لم يعد مناسبا للمغامرات النسائية. كانت مغامرة جاوانا آخر تواصل لي مع امرأة. كلما جاء نادر ليدعوني إلى الخروج أرفض. وكذلك نامق.

وجلست يومين في الغرفة لأنجز التقرير عن سوق البراغيث من وجهة نظر أجنبية، وأرسلته بالبريد الألكتروني إلى مراد قامشلو الذي قال إنه يمتلك صورا جيدة عن السوق، ونشر التقرير في أول عدد من جريدة الخبر، حيث فرشه على صفحة كاملة، ونال استحسان الجالية العربية التي قرأت الجريدة.

ومن أجل تمتين العلاقة بيننا والحديث عن مشاريع تعاون للكتابة اتصل بي مراد قامشلو وأخبرني عن وجود مهرجان لشركة توبورغ، الشركة الأشهر في صناعة البيرة، ويتمنى أن يراني. قال هناك الكثير للحديث عنه. نادر ونامق تحمسا للفكرة أيضا، خاصة وأن البيرة ستكون مجانا، وهي فرصة للخروج من روتين الحياة اليومي في كوبنهاغن. جلوسي ليومين في الغرفة أوصلني إلى حافة الإختناق.

العزلة تقود إلى جلد الذات، وهو ما عشته كثيرا فيما سبق، يتحول الدماغ إلى ماكنة لإستعادة الزمن، خاصة حين يتم استرجاع حدث عشرات المرات، كل مرة تنكشف تفاصيل صغيرة كانت مغطاة تحت ركام من الأحداث والحوارات والأصوات. دعوتي إلى مهرجان شركة توبورغ دفعتني لاستعادة علاقتي بمنتج هذه الشركة منذ دخولنا البلد. لقد شربناها في ليل ونهار، في غرف وفي حقول خضراء وقت الربيع والصيف، وهما الفصلان الأجمل في هذه البلاد. شربناها عند ميناء أسبيا، وقرب تمثال عروس البحر، المطل على السويد، وفي أعياد الميلاد الكثيرة التي احتفلنا فيها ليلا في ساحة البلدية. حتى بتنا نعتقد أن هذا الشعب لا يستخدم الماء في حياته، فالبيرة حاضرة في كل مكان وزمان.

تعرف نادر على زوجته السابقة الباشا في واحدة من تلك الطقوس التي كنا نمارسها كل صيف.

يشتري نادر ونامق البيرة بالعشرات، البيرة من نوع توبورغ بالذات، ثم نجلس على كتف قناة نيو هاون، لنبدأ الشرب بعد الظهيرة. هناك حيث يكتظ الشارع بالسائحين والنساء والمتفرجين. مباني الميناء العتيقة تذكرنا بعهود الفايكنغ والبحارة الذين يقضون أيامهم في المدينة باحتساء البيرة السوداء، ومطاردة الفتيات.

ميناء نيو هاون في الصيف يتحول إلى مهرجان للفتيات والشباب والسفن المركومة للعرض في القناة الضيقة وروائح المطابخ وهي تشير إلى أطباق فخمة من السمك ولحم الخنزير والوجبات الغريبة المجلوبة من أصقاع الأرض كلها. عيون لاصفة، وأفخاذ وردية، وقصات شعر مثيرة، وشفاه تنز شهوة للمرح واللعب. طيور بيض

تصطفق فوق الأشرعة المطوية على سفن تحولت إلى مطاعم بحرية. وكانت الباشا، وقتها، تجلس مع فتاتين بولونيتين على حافة القناة، تستمتعان مثلنا بشرب البيرة التوبورغ. كان المعسكر الإشتراكي لم ينهر بعد، ومعظم البولونيين الذين دخلوا إلى الدانمارك جاءوا هاربين من النظام. طلبت تلك الفتاة ذات الوجه المدور، والعينين البنيتين سيجارة من نادر فقال لها لا أدخن. أخرج علبة السنوس وأشار لها بلغة انكليزية مفككة أنه يستخدم هذا، وكانت تلك اللفتة بداية لعلاقة سريعة، قادت لاحقا إلى الزواج.

كان نادر عادة ما يسترجع تلك القصة ويعتبرها دليلا على أهمية نظريته القائلة إن الأحداث الكبيرة التي تغير مصائر البشر، والأفراد، على حد سواء، مصنوعة من تفاصيل مجهرية لا يقف عندها أحد. تغيرت حياته، بسبب سيجارة، بل وثبت مصيره في هذا البلد بعد أن ولدت كارين، وما عاشته من مآس مع أمها، كما تثبت فراشة جميلة ملونة بدبوس في علبة للعرض.

تعرف نادر على الباشا في الفترة نفسها التي التقيت فيها بماري في مدرسة اللغة. لذلك فعمر كارين مقارب لعمر نجمة ابنتي.

(١١)

الشركة أقامت المهرجان في جملون قديم ضخم، كان مخزنا لها طوال قرن. يمكن ملاحظة ذلك من السقوف الخشبية ذات العضائد الضخمة المقطوعة من غابات مدينة غرينو، المشهورة حسب ما قرأت في برشور المهرجان بأشجارها المعمرة. غرينو، غرينو، غرينو، جاءت إلى خيالي كما لو كانت نغمة لطائر بحري. فيها عشت سنة كاملة، هي السنة التي وصلت فيها إلى هذه الجزر. كان معي نامق أيضا، إما نادر فوضعوه في جزيرة صغيرة تقابل كوبنهاغن، كانت مقر فرقة عسكرية لحلف الناتو. قال لي نامق ذات يوم، وكنا نجلس في كافتيريا فوتيكس: حياتنا نحن الرفاق الثلاثة ينبغي أن تكتب في رواية. وحدثني عن روائي اسمه اريك ماريا ريمارك، ألماني، قال إنه كتب رواية باسم الرفاق الثلاثة. تتحدث عن أصدقاء كانوا يعيشون في برلين أيام الحرب العالمية الثانية، أو ربما في الفترة المحصورة بين الحربين الأولى والثانية. نصحني بقراءتها، وقال لي هي موجودة في مكتبة فيستربرو، القسم العربي. طبعا نامق قارئ جيد. كان. عبرنا قنطرة نحو ذلك الجملون، ودخلنا بهوا واسعا تتوزع فيه معارض فنية وكتب وألبومات وشاشات تعرض أفلاما تسجيلية عن تاريخ الشركة.

لم يكن المكان مكتظا بالزائرين، وبدأ نادر يفتش عن زاوية المشروبات داخل الجملون. تحت الصورة الهائلة لعلبة توبورغ عملاقة، معلقة بخشب السقف، وقف شاب دانماركي وشابة ناعمة غارقين بقبلة عميقة، غير عابئين برواد المهرجان، ولفت نامق انتباهي إلى التصاقهما الجسدي وذوبانهما بمشهد روحي لا يمكن لنا نحن المشاهدين إدراكه. ثمة موسيقى كلاسيكية ناعمة تدرج في المكان. ذلك الجنون ينبغي لي أن أغادره، خطر لي ذلك كأنه ومضة قادمة من أزمان أخرى. حياتي لا تستقيم هنا. كان نامق قد استدل إلى زاوية المشروبات في الجملون، ورأينا هناك طاولة عامرة بالنبيذ الأحمر ومقبلات السمك اللاكس والزيتون وفستق حلب وشرائح مارتيدلا من اللحم البقري. جنب تلك المقبلات وجدنا أعدادا من مجلة الخبر، فقال نادر بصوت عال: مراد قامشلو هنا، ينبغي البحث عنه.

أمسكنا بكؤوسنا البلاستيكية المليئة بالبيرة ووقفنا خلف حشد يتجه إلى منصة مرتجلة انتصب عليها مدير شركة توبورغ ليلقي كلمة بالمناسبة، ويجيب على أسئلة الصحافيين. وكان مراد قامشلو هناك، يمسك كأسا مترعا بالنبيذ الأحمر ويحدق بالمدير. رجل جاوز الخمسين، أسمر يميل إلى البياض، بوجه مدور، يضع نظارتين، تشفان عن عينين واسعتين، بشعر مخطط بين الأسود والأبيض، له كبرياء واضح، وله طلة رزينة تستدعي الاحترام. على عادته يرتدي بدلة بيضاء كما لو كان في ليلة عرس. هذا هو مراد قامشلو كما التقيته في ذلك النهار الخريفي في مهرجان شركة البيرة الشهيرة توبورغ، وسط كوبنهاغن العاصمة، لبلد ملكي اسمه الدانمارك يطل

على بحرين هما بحر البلطيق وبحر الشمال. بحر البلطيق الذي يربطه ببولونيا وجمهوريات البلطيق وبحر الشمال الذي يقوده إلى شواطئ بريطانيا.

نعم هنا تعرفت على السوري مراد قامشلو، الذئب الذي غيرَ مسار حياتي. نعم هو الذي ورطني بأرشيف العنف. أرشيف العنف منذ كلكامش وحتى هذه اللحظة التي نحتسي فيها كؤوس التوبورغ، ونحدق في جمال بنات إسكندنافيا الشقراوات. الوجوه مشعة، والشعر مراوح شقر تهفهف بهواء الخريف، والروح تتغلغل بهذا المكان العتيق المعني بموسيقى الماضي. مع مراد قامشلو شاهدنا رقصة من فايلة، ورقصة من غرينو، ورقصة من أسبيا، وأخرى من جزيرة فارو، ورقصة من غرينلاند، واختتمت الرقصات بفرقة من مدينة أولبورغ. فيما انفرد نامق بشرب البيرة، كلما فرغ كأس مضى إلى آلة الصب فملأ كأسه بنصف ليتر جديد. بيرة مجانا مع قبضة من الفستق الحلبي أو عدد من حبات الزيتون الإسباني. منذ هذه اللحظة ارتبطت بمراد قامشلو. ارتبطت به مثل قصة مكتملة الأحداث. بضحكته، برؤيته الفنية للعالم، بنقمته على الحياة التي تركناها وراءنا، بالعلاقة بين الأجنبي هنا والشعب الأصيل.

كان مراد من جيل ناقم على كل شيء. هو ابن مدينة القامشلي، المدينة الكردية الباحثة عن ذاتها. هو يكتم أكثر مما يعلن. أكملنا السهرة في بيت مراد قامشلو. لكن ليس قبل أن نوصل نامق إلى بيته لأنه كان سكران لا يستطيع تمييز طريقه، ذكرتني سكرته بتلك التي كان عليها حين كنا في دمشق نشتغل لدى أبي نضال في معمل الصواريخ. لكن هذيان نامق هذه المرة يتعلق كله بالموت، وبجدوى

أن نخلق وننجب، وجدوى أن نعيش خارج الأوطان. وهو بين لحظة وأخرى يتعمشق بمراد قامشلو يقبله من وجهه بعاطفة حارة. لم انتبه إلى سبب هذا التعلق العاطفي إلا بعد أن أوصلنا نامق إلى البيت، وعدنا أنا ومراد ونادر لنكمل السهرة في بيت مراد. همس لي نادر ونحن ندخل المصعد في بناية مراد أن السبب يعود إلى أنهما كرديان، هذا كردي فيلي وهذا من أكراد القامشلي. ابتسم مراد لهذا الربط، وولجنا باب البيت في الطابق الرابع.

تجاوزت الساعة الثانية عشرة، وأحس نادر بالتعب، فأخبره مراد أنه ليس مضطرا للرجوع إلى سوذهاون، وبإمكانه قضاء الليلة هنا، وأرشده إلى غرفة صغيرة فيها سرير مفرد وتركناه ينام بسلام.

بدأنا أنا ومراد جولة في كيفية العمل سوية بجريدة الخبر. مكتب مراد يقع في العلية، حيث السقف القرميدي يكاد يلامس الرأس، هناك وضع مراد كومبيوتراته العملاقة للتصميم ورسم امبلاجات البضائع للشركات الدانماركية، وسهرنا حتى الثالثة فجرا ونحن نرتب الأبواب التي سيتم تعاوننا فيها. أصدر مراد ثلاثة أعداد من الخبر لوحده، وهو جهد كبير. كانت هناك صفحة قانونية، فيها ما يخص اللاجئين والمغتربين الذين يعيشون في هذا البلد، قوانين الدمج والهجرة والجنسية وجمع الشمل والمعونات وغير ذلك. وهناك صفحتان للنشاطات التي تحصل بين الجاليات، كالمهرجانات والاحتفالات بالأعياد والدعوات للفنانين من أصول عربية، ثم أخبار النخب المثقفة كالإعلاميين والكتاب والشعراء والمترجمين والفنانين التشكيليين والسينمائيين والمسرحيين الذين يقدمون أعمالهم في المدن الدانماركية، سواء عبر الصحف أو الشاشات المرئية أو

البروشورات الموزعة من قبل الجمعيات المدنية والبقاليات ومؤسسات الدعاية والإعلان. وهناك صفحتان أو أكثر لأهم الأحداث الطبية، وتدور عن تلقيح الأطفال وأمراض النساء والحوامل والأمراض الشائعة في الدانمارك والبلدان الباردة عموما، وقد أبدى مراد اهتماما استثنائيا بهاتين الصفحتين كون التوعية الطبية بين الأجانب، خاصة النساء، ليست بالمستوى المطلوب.

أفهمني أن وزارة الهجرة هي التي ركزت على إدراج هذا الحقل في الجريدة.

في تلك الليلة اتفقنا على معظم التفاصيل بما في ذلك المكافأة الشهرية لي، وتعتبر دخلا إضافيا، وستكون مصادري موقع راديو الدانمارك الرسمي، وما يضخ فيه من أحداث سياسية وثقافية وفنية وطبية، وبعض مواقع العرب والأجانب التي ترصد نشاطات الجالية، إضافة إلى تتبع الإعلانات في الصحف اليومية حول ما يجري كل يوم، خاصة صحيفة مترو، التي يجدها المرء في كل مكان، وكنت مدمنا على قراءتها أيام ما كنت أركب القطار كل يوم من بيتنا في سوذهاون نحو عملي في الدي أج أل.

(١٢)

صار مكتب مراد هو المكان الأهم في حياتي. أقضي فيه يوميا ساعات عدة، ترجمة وكتابة أخبار وترتيب صور وتبويب مواد، نقوم بذلك عادة ونحن نحتسي النبيذ الأحمر الذي يعشقه مراد، أو بيرة التوبورغ، أو بعض الأحيان، خاصة في أيام الويكيند، نحتسي الويسكي، وكانت علاقتي بمراد تتطور وتتعمق. منذ اللقاء الأول مع شخص يراودك شعور أنكما ستصبحان صديقين حميمين. من نظرة العينين ربما، من نبرة الصوت، من الإبتسامة الصغيرة التي ترتسم على زاويتي الفم. وربما من كل ذلك أجمع. بدأ يفتح لي روحه ليحدثني بعض الأحيان عن حياته التي قضاها في دمشق قبل أن يغادرها إلى كوبنهاغن. وكنت مستمعا جيدا، وهذا ما كان يدهش مراد، فمعظم العرب الذين يلتقيهم، كما يقول، لا يسمعون محدثهم، ولا يلتقطون، إن استمعوا، سوى الكلمات والأفكار التي تتناغم مع ذواتهم. وهي وجهة نظر صحيحة في رأيي. ونادر خير مثال عليها. ورغم انشغالي اليومي بجريدة الخبر، وصداقتي العملية مع مراد قامشلو، الا أنني لم أنقطع عن نامق ونادر، خاصة نادر فأنا أرجع إلى البيت كل يوم، ونطبخ سوية غداءنا أو عشاءنا، ونسهر بعض الأحيان في الويكييند سوية مع نامق، وأضيف لنا مراد قامشلو، بعد أن تم حذف يوسف من القائمة.

كانت الخارطة واضحة، ألاحق أنا شركات السكن للحصول على شقة باسمي، فمن دون الشقة سأبقى عالة على نادر، بعد أن أصبح وجودي اليومي معه ثقيلا. سيكون بقائي هنا لا معنى له. لا يمكن الإستقرار في بلد دون وجود سكن لائق. ويلاحق نامق تقارير عشتار الطبية التي تؤكد كلها على حقيقة واحدة، هي الموت الوشيك، ويلاحق نادر سلوك كارين، بمن تلتقي، وكيف تصرف نقودها بهذه السرعة، ولِمَ تأتي بعض الأحيان وفي وجهها خدوش ورضوض وبقع، كما لو خاضت معركة طاحنة؟

أخبرني نادر ذات مساء أن كارين خرجت من بيت أمها الباشا وسكنت في آما، بسكن جماعي يعود للطلاب. لم تعد تحتمل نزوات أمها. ومن جانبي، ورغم انشغالي بجريدة الخبر، كنت أحاول إقناع ماري باللقاء ثانية مع الفتاتين، لكنها كل مرة تتحجج بأعذار أعرف جيدا أنها أعذار لا غير. هي تريد أن لا ألتقي معهما. هذه هي الخلاصة. أتصل بها إما بالتلفون أو عبر البريد الألكتروني. وحاولت استدراج نجمة إلى ضفتي من خلال تعبيري عن إعجابي بقصتها، لكنها لم تعرني أي اهتمام. كانت قصتها عن بحيرة دامهوسن إذن رسالة نهائية للقطيعة.

نزهاتنا الليلية أنا ونادر إلى ساحة موزارت خفت قليلا، نتيجة انشغالاتي بالجريدة، لكن نادر لم يتوقف عن جولاته على مزابل سوذهاون. خلال هذه المدة أخرجنا عددين من جريدة الخبر فقط أنا ومراد قامشلو. وفي واحدة من ليالي السهر، وكنا حاضرين فيها أنا ونامق ومراد ونادر في شقة نادر، حضرت أيضا كارين وتناولت معنا عشاء خفيفا ثم مضت للسهر مع أصدقائها. دخلنا في حديث طويل

عن الجرائم التي حدثت في الدانمارك منذ وصولنا وحتى اليوم، أي الجرائم التي يرتكبها أجانب. كانت القصص مذهلة. قبل أسبوع من جلستنا تلك قتل شاب صديقته الدانماركية في مدينة أولبورغ كونه شاهدها مع شاب دانماركي، وجدوا، حسب ما قالته جريدة اكسيترا بلاذا، وهي جريدة يومية شعبية لا تميل إلى الأجانب، أكثر من مئة طعنة سكين في جسدها الفتي. انشغلت الصحف والاذاعات والمحطات التلفزيونية بهذا الحادث بشكل عاصف، فالقضية ليست قضية قتل، عدة طعنات تكفي، لكن لماذا مئة طعنة؟ هذا يعني أن القاتل كان يتلذذ بطعن ضحيته، وهنا يقف الإشكال الكبير. هنا يدخل العنف في اللوحة.

ثمة أرشيف للعنف وراء ظهر كل أجنبي، وشرقي تحديدا، ومسلم على وجه الدقة. هكذا كتبت بعض الصحف خلال تحليلها للجريمة. مفكرون دانماركيون يمينيون استنتجوا أن البلد قادم إلى حروب أهلية بسبب ثقافة العنف والتطرف الديني التي جلبها المهاجرون إلى البلاد. بينما رد عليهم مفكرون من اليسار أن هذه الحادثة يجب أن لا تعمم على الجميع. ليس كل المهاجرين يمتلكون روحا إجرامية، ويستشهدون بالكتاب والفنانين والصحافيين والسياسيين من أصول أجنبية الذين يعيشون في البلاد دون ارتكابهم أية جريمة تذكر.

هذه قصص عادة ما نتادولها في جلساتنا. بعض منها، أو ربما أغلبها يدور حول النساء. جرائم ترتكب بسبب نساء أو نتيجة لطلاق، أو تقاسم البيت أو حول الأطفال. قضينا سهرة كاملة حول ذلك، وقادنا الحديث إلى فكرة تكوين أرشيف للعنف، وهي فكرة

خيالية طرحناها في حالة سكر، لكن مراد قامشلو سرعان ما تلقفها وظل يتذكرها حتى عرضها في واحد من الإجتماعات على المسؤولين في وزارة الهجرة الدانماركية، فتحمسوا لها كثيرا. الفكرة تقوم على قيام جريدة الخبر بفتح أرشيف للعنف يحتوي على الجرائم التي ارتكبت في العقدين الأخيرين، من قبل موجات المهاجرين، حيث نجمعها ثم نكتبها ثم نحلل دوافعها. بعد ذلك تترجم إلى اللغة الدانماركية لكي يقرأها العاملون مع الأجانب ويزدادوا خبرة بخلفيات المهاجرين السايكولوجية، والاجتماعية، والعقائدية. ذلك كان صلب المشروع. المشروع الذي ورطني به مراد قامشلو، ليتخذ بعد فترة أبعادا أوسع من جريدة يومية اسمها جريدة الخبر.

راتب مغر من الجريدة، وسفر إلى بلد المنشأ، البلد الذي ظل ينتج العنف ويصدره طوال ثلاثين سنة. هو عينة دولية للعنف المباشر الواضح الأعمى في الوقت ذاته. ثمة أحداث جرت كانت دوافعها للعنف فقط، لقتل أكثر عدد من البشر، وهي تشبه من ناحية أخرى، عدد الطعنات التي وجهها ذلك الشاب إلى حبيبته. فخمس، أو ست طعنات، تكفي للقتل، لكن لماذا مئة طعنة؟ ثم إذا كان يحبها، ويغار عليها، وطعنها مئة طعنة فما الذي سيقوم به لو كان يكره الفتاة التي قتلها؟ هذا السؤال طرحه مراد قامشلو علينا بصيغة دهشة، أثناء تلك الجلسة المسائية التي ابتكرنا فيها موضوع أرشيف العنف. ولم نقع له على جواب. فعلا ماذا سيفعل الشاب مع امرأة لا يحبها؟ في هذه الحالة قد يقطعها، ويأكلها، أو ربما يشويها حية على نار هادئة.

طبخت الفكرة جيدا، ولمدة أسبوعين حتى قبلتها.

طبعا ليس هناك أي شبه بين مدينة مثل كوبنهاغن وأخرى مثل

بغداد، أي واحد يمكن أن يستغرب لهكذا مقارنة، فالمدينتان عالمان مختلفان تماما، في طبيعة الحياة اليومية والبشر والطعام والجو والسماء والطيور والشجر، غير أنني، ويا للغرابة، وجدتهما متساويتين في داخلي. ثمة مشتركات كثيرة بينهما، في نظري على الأقل.

أكثر من مرة راقبت غروب الشمس من برج المرصد، في شارع المشاة، وبالمناسبة زرته عدة مرات خلال عيشي في كوبنهاغن، وكنت أجد في منظر المدينة لذة لا توصف، فوجدتني كما لو أنني أتأمل غروبا مشابها في بغداد، شهدته أكثر من مرة وكنت ماشيا على جسر الجمهورية قادما من الكرخ نحو ساحة التحرير. خاصة حين تكون هناك غيوم في السماء، الحمرة، الأشكال التي أقرأها بخيال جامح، الطيور السعيدة بقدوم خيوط الغروب الناعمة. ليس هذا فحسب، المرات التي تناولت فيها طعامي بمطعم شرقي في شارع النوربرو، ويكون طعامي الكباب عادة، أرى في لمحة خاطفة وكأنني أتناول ذات الطعام في مطعم راوندوز المطل على شارع السعدون. أشم حتى الرائحة أحيانا، رائحة البقدونس والبصل الطازج ورائحة المطر على تراب الشارع. هذه المشاعر والخيالات قرأتها من خلال الكتب، الشعر والرواية خاصة، تشيع كثيرا لدى المغتربين، والمهاجرين، ومن عاش في بلدان عديدة ومدن مختلفة.

نعم، في لحظة ما، ينسى المرء، من هكذا نمط، اسم المكان المتواجد فيه، وهي ومضة من غيبوبة الوعي، من فقدان الإحساس بالزمن، والإحساس بالمكان، وكأن الأمكنة والأزمنة تتشابه بغتة، وقد تتشابه وجوه البشر أيضا، ضمن حلقة دودية مفرغة من الزمان

والمكان حسب النظريات الفيزياوية. لذلك كان انتقالي من كوبنهاغن إلى بغداد يندرج ضمن هكذا رؤية.

الحقيبة التي جئت بها إلى مطار كوبنهاغن هي ذاتها التي رجعت بها إلى مطار دمشق، ثم قضيت يومين فقط في بيت أختي الواقع في قدسيا، لأجد نفسي خلال يوم من السفر وسط شارع المنصور عبر نقليات ضيوف العربية. حاولت أختي المتزوجة من عقيد سابق في الجيش العراقي ثنيي عن السفر إلى بغداد لكنها فشلت. القتل ما زال قائما، والعنف في كل مكان، وبغداد جربت العيش فيها قبل سنوات، فلم تكرر المجرب، تقول لي أختي. إبق هنا في قدسيا، بدمشق، وسأزوجك بفتاة سورية، وتستقر مثل غيرك من الرجال، تقول لي وهي تنظر إلى مقياس الضغط الذي تتشارك به مع زوجها. أبعدت فكرة زيارة بيت أم حسن في مساكن برزة، وكذلك رؤية مشغل أمير، أو بقاياه، لأنه هاجر مثلنا إلى أميركا بعد خمس سنين.

وكنت أنا بعيدا عن هذه الأرض. أفكر أحيانا أن من يعتد على التجوال بين المطارات، والسفر المتواصل بين المدن والبلدان، ينفصل شيئا فشيئا عن الأرض، ويتحول إلى كائن سماوي، يعيش في الخيال.

معظم المشردين في الأرض، مثلي، يحملون لوثة في مكان ما من أرواحهم. هذا ينطبق بدقة على صديقي نامق ونادر. ومراد قامشلو أيضا.

تلك كانت مرحلة من مراحل حياتي التي يمكن لي أن أشارككم تفاصيلها. لذلك عليكم الدخول في تلك التفاصيل بصبر وروية. فهي رغم أنها لم تستغرق سوى شهور لكنها احتوت حياتي كلها،

خمسين سنة من الأحداث. الحكمة الوحيدة التي أعتبرها مجدية هي أنني لم أعد أخاف الموت، كما قلت سابقا. ولتتعلموا هذه الحكمة عليكم أن تدخلوا في ثنايا حكايتي التي بدأت هنا في بغداد، وفي مكتب تكوين تحديدا الواقع في منطقة البتاوين، ويعود إلى صديقي سامر. أحيانا، وفي بحران صامت وتأمل، لا أعرف بالضبط ما الذي جلبني إلى هنا، فأرشيف العنف ذريعة، وثمة سبب آخر ربما هو الذي قادني إلى هذه المدينة الموحشة. تتحرك مصائرنا بعض الأحيان بفعل إرادات، وتقاطعات، وذرائع، غير مفهومة. بل يمكن القول إنها سرية وغامضة.

الغموض هو ما ألغى من تخوم جسدي وعقلي آلاف الكيلومترات، أي المسافة الفاصلة بين شارع السعدون في بغداد وشارع نوربرو في كوبنهاغن.

بغداد هي المدينة الأتعس بين مدن العالم، حسب آخر تقرير لمنظمة عالمية، محترمة. التقرير الذي أرسله لي صديقي مراد قامشلو بواسطة البريد الألكتروني. المدينة التي لا أرغب الاستقرار فيها على الاطلاق. في الحقيقة أنني لم أعد بقادر على الاستقرار في بغداد فقط، بل في كل مدن العالم. خمسة وعشرون سنة من الفراق حولتني إلى مواطن يكره بلده. حين تجد أن بلدك لم يعد ممكنا العيش فيه، ألا تكرهه في النهاية؟ ألا تمتلك الحق بكرهه؟ إن لم نقل تكره العالم كله. وتكره الحياة، وترغب في مغادرتها سريعا؟ لكنني لست مخيرا على أية حال، فأنا تتقاذفني الظروف مثل ريشة في إعصار. وهذا من الأمثال المحببة إلى روحي. ريشة في إعصار. ريشة في مهب الريح. ريشة تحت ضوء الشمس. ريشة في غروب

كثيب رأيته ينتشر من نواحي الأعظمية ثم يمتد حتى طريق الكوت شرقا.

وما أن غاب ذلك الشفق العجيب، بلونه الدموي حتى أطبق الحارس باب البناية. أنا الآن في مكتب تكوين. أبعد آلاف الكيلومترات عن شقة نادر الواقعة في سوذهاون.

ومن هنا بدأت الحكاية، حكايتي. رغم أن الحكاية، أو أية حكاية لأشخاص آخرين، تمتلك عددا لا يحصى من البدايات. ألا أشعر بعض اللحظات وأنا جالس في هذا المكان وكأنني ما زلت في الغرفة الواقعة في سوذ هاون، وأنني سأسمع بعد قليل صوت مفتاح نادر وهو يفتح الباب؟ هنا أتكلم عن ذلك النفق الدودي الذي يضمحل فيه الزمان والمكان، حسب المصطلح الفيزياوي. أو أجيب على رنين التلفون وأتخيل أن المتصل هو نامق سبنسر بعينه، وسيدعوني إلى جولة في مول فيسك تورف القريب من محطة كوبنهاغن المركزية، أو سوق البراغيث في منطقة فيريدريكسبيرغ، أو لاحتساء البيرة في ميناء نيو هاون؟

سمعت صوت السلسلة وهي تخترق درفتي الباب الحديدي الواسع، ثم بعدها ساد سكون في الداخل. كنت أقف خلف باب الشقة متسمعا، لا شيء يحدث هناك في الخارج. في الوقت ذاته يحدث ما لا يتخيله عقل.

كانت المصابيح تضيء الصالون، والحمام والغرفة الداخلية، أشعل المصابيح بكرم كلما جاءت الكهرباء الوطنية، وكأنني أعوض اللحظات الطويلة التي أقضيها دون كهرباء، في الليل خاصة، حيث لا أجد ضرورة لتشغيل المولد في الساعات المتأخرة.

أفضل عادة فتح الشباك، والتحديق في ليلي، ليل بغداد الطويل.

(١٣)

اليوم بعد عودتي من مكتب الجريدة، حيث يعمل صديقي سامر، أحسست وكأنني سأعيش قصة حب مع سرى. كيف، ولماذا، لا أدري، إن هي إلا قناعة تكونت لدي خلال مروري في الأزقة الرابطة بين شارع السعدون والبناية التي أقطن فيها. وصلت قبل أسبوعين تقريبا، ولا أعرف كم سأبقى. جئت مباشرة من نقليات ضيوف العربية في المنصور إلى مكتب تكوين، ووجدت سامر ينتظرني مع قناني البيرة والفروج المشوي والمزات البغدادية التي افتقدتها زمنا. قد أموت في واحد من الانفجارات. قد أهيء مكانا لي للسكن يكون دائما. وقد أعيش مشردا إلى أن أجد لحياتي حلا. وصلت عن طريق سورية، حيث لبثت يومين في دمشق. لا تختلف حياتي عن حياة ملايين العراقيين، وقد لا تختلف كثيرا عن حياة ملايين المهاجرين، والمغتربين، والمشردين، والمنفيين، في العالم كله. انتقال من بلد إلى آخر. ايجاد عمل. أسرة. رحيل آخر لهذا السبب أو ذاك. رجوع إلى البلد الأم أو النزوح عنه. هذه القصص والأحداث صارت تحدث في العالم كله، من الصين إلى اندونوسيا، إلى مصر، إلى العراق، إلى افريقيا، ثم بلدان أميركا الجنوبية. حتى الأوربيون الذي نعتقد أنهم يعيشون في بلدان مستقرة يمكن مشاهدتهم في الهند، والبرازيل، واليابان، وأفريقيا. دانماركي

بوذي، أميركي مسلم، ألماني من أتباع كريشنا، برازيلي يمجد الماسونية، بريطاني يدعو إلى التصوف، حسب طريقة الشاعر جلال الدين الرومي. اختلاط بشري غير مسبوق على سطح أرضنا. اختلاط أعراق وديانات ومذاهب ولغات وأطعمة وأزياء وسحنات.

خرجت من بغداد منذ أن بدأت الحرب. خلال تلك العقود الطويلة دفعتني الأحداث إلى أكثر من مكان ومدينة وبلد، وصادقت عددا كثيرا من الأشخاص، وتزوجت، وسافرت، إلا أنني وجدتني أقطن ثانية في بغداد، لكن ليس في فندق كما حدث في أيام شبابي، بل في هذه الشقة التي يستأجرها صديقي سامر في بناية ضخمة تنزوي في واحد من شوارع حي البتاوين وسط بغداد. وبالتحديد البناية المجاورة لمركز الشرطة. من هناك، من الظلام الربيعي الكثيف، تمتد الأحياء الهاجعة بخوف في هذه الليلة التي أحسست بها كئيبة لسبب لا أعرفه. بعض اللحظات أعيش حالة من التفرد المطلق، أحس وكأنني انسان لا يرتبط بأي علاقة مع غيره، لا أقرباء، لا أصدقاء، لا زوجة، لا حبيبة، كائن مفرد يتقوقع داخل جلده الرقيق فقط. وربما داخل أفكاره وهوجسه وأحلامه. تتجمع سنواتي الخمسين في هذا الحيز، ذي الخارطة المعقدة، المصنوعة من لحم ودماء وعظام وأجهزة وعواطف وبيانات وذاكرة وعضلات، الحيز الذي أنتمي اليه.

صوت بعيد لكلب ينبح. صوت سيارة تنطلق بقوة مرعبة. انفجار ما في بقعة بعيدة لكنني لا أرى ذبالات نارها. أين تقع منطقة العطيفية التي ينزوي فيها بيت سرى؟ من الليل البغدادي المتراكم يصعب الإجابة على ذلك، إلا أنني أشم رائحة الحب. للحب رائحة

أيضا مثل النرجس، والجوري، والبارافان الفرنسي المقطر في أغلى المصانع. صورة العطيفية نخيل قديم، وشوارع مكتظة بالأبنية، وجسر يحلق فوق مياه دجلة. لسرى وجه شبيه بالأميرة دايانا. شفتاها وأنفها خاصة. ألوذ إلى مكاني، مثل ضفدع خائف. أنتظر يوم الغد لألتقي بسرى، أصبحت هاجسا ثقيلا على روحي. أجلس على الأريكة فأفكر بها. أدخل الحمام لأغتسل من الغبار فأتخيلها تمد أصابعها النحيلة لكي تمسد ظهري. أستلقي في الغرفة الداخلية على السرير الملفق المصنوع من إسفنج رخيص دون مخدات فتنط لي من الهواء الراكد لكي تستلقي معي.

دخلت إلى الانترنيت لرؤية بريدي. لم أجد فيه شيئا يذكر، لا مراد قامشلو ولا نادر ولا نامق. وكنت أحدق بتلفوني الصغير من نوع نوكيا الملقب بالطابوقة في التسمية الشعبية، يتمدد أمامي على الطاولة الخشب. ليس هناك أية رسالة من مراد قامشلو، هو مشغول بالجريدة حتما. لا أحد يتصل بي. لقد أعطيت سرى رقم تلفوني، وكنت أتوقع اتصالها كل لحظة لكنها كانت تخيب ظني دائما. ليوم واحد فقط زرت بيت أخي كمال، القريب من النهر. عزيت زوجته وزرت قبره، وداعبت أولاده بحزن مكتوم، وتجولت في المكان الذي ولدت فيه، المكان الذي شعرت بأنني لم أعد أمتلك معه أية روابط.

من عرفتهم ماتوا، ومن ولدوا وكبروا أثناء غيابي لا أعرفهم. المعالم تغيرت وزالت، تلك التي كانت في ذاكرتي. رجعت على عجل نحو بغداد.

أنا أفكر كثيرا بسرى هذه الأيام. لمست ميلها لي عبر أكثر من

لمسة وإيحاء وتعبير، ويزداد تفكيري بها كلما دخلت إلى مكاني هذا ولفني الليل بوحدته.

من الحافظة الكومبيوترية أخرجت رزمة من أغاني فيروز، شغلتها بصوت عال كي أبدد السكون المستولي على الصالون، والشقة كلها، بل والبناية ذات الأروقة العديدة. جلبت علبة بيرة نوع توبورغ من الثلاجة الصغيرة المركونة جنب الباب، ورحت أحتسي على مهل، وأدخن سكائر جيتان من النوع الرفيع. بيرة التوبورغ دانماركية الصنع، وتفاءلت بالمصادفة هذه. تذكرت المهرجان الكبير، ولهفة نامق على احتساء كؤوس الدرافت، وتوهج عيني مراد قامشلو وهو يحدثني عن جريدة الخبر. كان يطمح إلى أن تصبح الخبر جريدة العرب الأولى في البلدان الإسكندنافية. لا أريد أن أغرق بالماضي، فماضيي صار طبقات كثيرة متراكبة، كلما توغلت في واحدة أنفذ إلى أخرى. وهو ما كان يجلب لي التعب الروحي والذهني. التركيز في تلك الملفات يستهلك طاقة كبيرة، عادة ما تنتهي بدموع، وزفرات حارة على ماض لن يعود، وعلى أشخاص غابوا في مكان ما، وفي زمان ما. أغاني فيروز دائما تستدرجني إلى الماضي. حياتي تنتهي في هذا الركن المنعزل، في هذه البناية الواسعة، المخيفة، التي أظل ساهرا أتسمع الأصوات التي تنطلق من غرفها وأدراجها وسقائفها. هل هي أصوات حقا أم أنها خيالاتي، خيالات متوحد في هذا الكون الأجرد؟

الشقة التي حولها صديقي سامر إلى مكتب تقع في الطابق الثالث، وهناك طابق رابع يقع فوقي، وليس هناك مصعد كما هي عادة أغلب البنايات القديمة. السلالم التي أصعدها يوميا بدأت ترهق

عضلاتي، خاصة إذا ما صعدت السلالم أكثر من مرة كل يوم. قالت لي سرى إنها ستأخذني إلى مطعم السمك. قالت إنه لا يبعد كثيرا عن الجريدة. نعم بلغت الخمسين من عمري، وقد جئت لكي أنجز ما كلفني به مراد قامشلو. توثيق العنف. هي مهمتي التي سأنهيها بأسرع ما يمكن.

أرشيف العنف، مصطلح أعجبني كثيرا، واستولى على تفكيري منذ أن أخبرني به مراد. المدينة التي لا يفصلني عنها سوى الجدران مليئة بالعنف، بل هي تتغذى على العنف، تفطر انفجارات، وتتغدى بإغتيالات، وتتعشى بخطف وحوادث مرعبة طالما سمعنا بها عبر الأخبار. ولطالما كانت قصص العنف مدار جلساتنا في شقة نادر، لأن تلك القصص كانت تصل إلينا رغم أننا نعيش قرب بحر البلطيق شمال كرتنا الأرضية. قال لي مراد وقتها، ونحن نجلس في بيته، وسط كوبنهاغن، هو ونادر وأنا: وثّق كل شيء وابعثه لي على بريدي الالكتروني وسأتكفل بنشره في جريدة الخبر. سأجمع التقارير لاحقا، وفي النهاية نقدمها إلى الوزارة. ربما نطبعها بكتاب مع الصور. صديقي نامق كان من أصحاب الرأي القائل إن العنف متأصل فينا، منذ أجدادنا السومريين وحتى اليوم. لا تنفع لتفسيره ظروف حياتية ولا أسباب خارج شخصية الكائن. هو هناك في (الجينات) حسب تعبيره. ويستشهد بالمذابح التي ذكرها المؤرخون منذ نشأة الكتابة السومرية حتى الإنفجارات المروعة التي استهدفت الأسواق، والمدارس، والمستشفيات، بعد سنة ألفين وثلاثة. هي وجهة نظر على أية حال.

كنت أقول له إن للعنف أسبابه الخارجية، والعنف لا يورث. أول

خطوة في مشروعي كان فتح أرشيف جديد على كومبيوتري الشخصي أسميته أرشيف العنف. إنها مهمة صعبة بالتأكيد، تتطلب مني معرفة بغداد جيدا، وتوثيق ما أسمعه أو أراه أو أقرأه لكي أنجز هذه المهمة. وعدني صديقي سامر بتوفير كل ما يستطيعه من مساعدة على إنجاح مهمتي. لقد وفر لي في البداية هذا المكان الذي استأجره قبل سنة تقريبا لكي يكون مكتبا للصحافة والإعلان، رغم أنه يستخدمه للجلسات واللقاءات الحميمة أكثر مما يستخدمه كمكتب إعلامي وإعلاني. مكتب تكوين سماه. لقد أخبرني بذلك قبل مجيئي. كان المكتب بالنسبة لي في تلك المرحلة، وأنا أعيش في كنف نادر جنوب كوبنهاغن، كيانا افتراضيا، أما الآن فهو حقيقة مئة بالمئة. أعرف، الآن، أن حياتي ستكون محفوفة بالمخاطر، قد ينتظرني الموت في أية زاوية وشارع. لكنني قررت خوض هذه التجربة بشيء من العبثية، أي أن ثمة موتا عبثيا يمكن أن يداهمني بسبب أو بدون سبب.

بغداد خزان للموت منذ عقود. وهي ما زالت كذلك، وستظل كذلك لسنين قادمة وربما عقود وقرون. لذا كان اقترابي من سرى جزءا من آلية دفاعية لتفادي الموت. الحب نقيض الموت، ألا تنتج عنه حياة جديدة؟ لكن قبل كل شيء ينبغي أن أعترف أن حياتي تتوزع على مراكز ثقل، على مساحات مكتنزة، أحيانا يفصل بعضها عن البعض سنة أو سنتان، وأحيانا عشرات السنين. عشت قبل اليوم في بغداد، وسأعيش ربما مستقبلا في دمشق، وقد أعود إلى ساوباولو ذات يوم، وأعيش هناك بعض الوقت، لكن العبرة في كل ذلك هو أننا ما دمنا في الحياة فممكن أن يحدث لنا أي شيء، وفي أي وقت. ليست هناك توقعات مطلقة، وهي واحدة من قناعاتي التي توصلت إليها من خلال تجربتي. في هذه الحياة يمكن لأي شيء أن يحصل.

(١٤)

صباحا كان الباب الحديدي الثقيل مفتوحا، والشارع أمام الباب بدأ حياته اليومية كالمعتاد. وجدت زبونا واحدا يجلس على كرسي عتيق جنب الباب، ومنقلة الشوي يتطاير منها شرر صغير، وطلبت من العامل سيخين من الكبدة، ورحت أحدق واقفا بهذا المكان الغريب. عن يساري تقف حواجز إسمنية عالية، حيث مدخل مركز شرطة البتاوين، وهناك تقف سيارة شرطة زرقاء وثمة حرس ينظر بدقة إلى الشارع. الحرس يرتدون أقنعة تخفي ملامحهم. الدكان المقابل، وهو محل لبيع الموبايلات، فتح أبوابه ونظف الأرض أمام واجهته الزجاجية ورشها بالمياه. كتب على الواجهة كلمة صيرفة، وهو يبيع الدولار أو يشتريه، وهذه المهنة تكاثرت في السنتين الأخيرتين. قبل يومين صرفت مئة دولار واستلمت عملة عراقية، فأنا لحد الآن أعتاش على المبلغ الذي سلمني إياه مراد قامشلو كسلفة أولى لكي أتابع مهمتي.

التهمت طبقي على عجل، وشربت شايا ثقيلا ثم دخنت سيكارة جيتان، واتجهت إلى جريدة سامر، مجتازا أزقة البتاوين نحو شارع السعدون. وجدت الشارع مكتظا بالسيارات والمارة، وثمة مقهى صغير يفتح أبوابه ويضع كراسي وطاولات على الرصيف، وهناك

زبائن يدخنون الناركيلة ويحتسون الشاي الثقيل، وأحسست وكأن المدينة تستعيد حيويتها مرة أخرى. تنهض مثل فكرة من بين سجلات أرشيفها العنيف المتراكم منذ عشرات السنين. شممت رائحة سرى الخفيفة، وودت لو أراها خارج عرينها، لكي أبتدئ صباحي بمنظر جميل.

هذا هو وقت وصولها. كان الصباح هادئا نسبيا حتى الآن. لم أسمع، كما كان الأمر يجري سابقا، انفجارات مفاجئة لسيارات أو عبوات ناسفة أو مواجهات بين شرطة ومسلحين. هناك سكينة في الأفق، وربيع مشمس بنسمات رشيقة كانت تهز الشجر القليل بخفة تتطاير له أوراق الشارع بين أرجل المارة. سأعنون تقريري إلى جريدة الخبر، وسيكون الأول بالتأكيد: بغداد تعيش كأي مدينة كونية. رغم أن مراد لا يحب هذه العناوين المبالغ بها، فليس هناك مدينة كونية، خاصة وأننا لا نعيش في مجرة ثانية. هكذا سيفكر بكل تأكيد. قامشلو منطقي جدا. بعد عقود من العيش في أوربا تعلم أن، ينظف رأسه كما قال، من أفكار ومعتقدات وأوهام لا تحصى. من ذلك التاريخ البدوي الذي تربينا عليه. التكرار، الإستفاضة، التهويل، الحشو الكلامي للغة تكرر نفسها، ومصطلحاتها، بروح دينية فجة.

لمحت صفحة دجلة، رأيتها من بين أشجار متنزه أبي نؤاس، وانعطفت نحو البناية العتيقة وصعدت الدرج. وجدت سرى عند المطبخ تعد القهوة، تقف قرب عاملة النظافة. قالت لي إجلس هنا في الداخل. وكان هناك كرسي صغير خلف البوفيه، جلست عليه وجلبت سرى كرسيا آخر لنفسها وضعته قبالتي. كان بين يديها فنجان

قهوة ساخنة ينطلق بخاره إلى الأعلى. بيني وبين سرى إعجاب صامت، يصل أحيانا إلى درجة الاشتهاء. عيناها الصفراوان حادتان، وأكثر ما شد انتباهي فمها المنمنم الجميل الذي يكشف عن ابتسامة لطيفة وغامضة في الآن ذاته. أخبرتني أن سامر سيتأخر اليوم حتى الظهيرة، أخذ ابنه إلى المستشفى. في داخلي فرحت للخبر، سأنفرد بسرى سويعات إذن.

سرى من النساء الصغيرات الحجم، بيضاء البشرة وشعرها يميل إلى الشقرة، وجسدها ناعم، لكن في روحها شيء ما جذبني منذ الوهلة الأولى. حين كنت أعيش في شقة نادر بكوبنهاغن أخبرني سامر من خلال الإيميل أن لديه صديقة، تصغره بأكثر من ثلاثين سنة، تعمل مراسلة صحفية تجلب له أخبارا وتحقيقات تناسب توجهات الجريدة المثيرة التي تعتمد على نشر كل ما هو صادم ويغري القراء بشراء الجريدة. أي أنها جريدة تابلويد حسب التسمية الشائعة في أوربا، تقترب من الفضائحية. هو يعمل فيها مدير تحرير، أما من هو المالك أو الممول فلم يخبرني.

جلسنا نتشمم بخار القهوة بصمت. أستطيع القول إنها بارعة في إعداد القهوة. حين أخبرتها بذلك قالت لي إنها عادة ما تخلط القهوة بالحب لذلك هي لذيذة. لم أفهم جملتها على وجه التحديد، وبقيت أفكر بها. أعتقد انك ستستفاد كثيرا من المادة. كانت تحدق إلي بعينين حادتين، صفارهما يثير رغبة عارمة بتقبيل ذلك الفم الرقيق. أي مادة؟ سألتها وأنا أنظر بثبات إلى أرنبة أنفها الدقيقة. إنه تحقيق عن العنف ضد النساء في سجن الكاظمية، أنجزته خلال هذا الأسبوع. يمكنك أن تستفيد منه في إغناء أرشيفك عن العنف.

الحقيقة أن سرى هي الشخص الثاني الذي يعرف بمهمتي هذه، ورغم أنني لم أقل لها مباشرة عن مشروع الأرشيف لكن سامر أخبرها بمهمتي، من ضمن ما أخبرها عن سجلي الحياتي. ما الذي أخبرها به أكثر من هذا؟ وددت سؤالها بشكل مباشر، لكنني تمترست وراء كبريائي ونسيت الموضوع. أعطيتها الحق أن تعرف عني كل شيء طالما أميل اليها وتميل إلي. سرى تعرف عني الكثير، دون شك، لكنها لا تشعرني بذلك. هي لا تتحرج بالحديث معي عن أي شيء بما في ذلك الجنس. أما حياتها الشخصية فظلت بعيدة عن حواراتنا.

ثمة روح طفولية في هذا الجسد الأنثوي الناعم، وبت آمن أن هذه الظاهرة موجودة عند أغلب النساء. عرفت نساء كثيرات يحملن الخصلة ذاتها. هل تقترب الأنوثة من الطفولة بحكم دور المرأة في الحمل والولادة والتربية؟

نزلنا من الجريدة واتجهنا إلى شارع أبي نؤاس، في جو ربيعي مميز، عادة ما تمنحه بغداد للأشخاص الذين يحبونها. ابتدأ مسيرنا من محطة تصفية المياه، جنب جسر الجمهورية، وكانت ترتدي جاكيتا يميل إلى الصفرة مع بنطال من اللون ذاته، وتضع قرطين طويلين كانا يهتزان خلال مشيها جواري، وهي معتادة على المشي السريع والنطنطة على الثيل، وبين الأشجار، وفوق البرك المائية التي خلفها الفلاحون الذين سقوا حديقة الكورنيش قبل فترة قصيرة. هناك، في الجانب الثاني، ينتصب القصر الجمهوري، بقبابه وتماثيله، وتبين لأعيننا أسوار المنطقة الخضراء، التي كثيرا ما تناولناها في أحاديثنا ومقالاتنا، ومسباتنا، طوال عقد من السنين.

المنطقة الخضراء غاصة بالأسرار، فهي تحتوي ملف العنف الحقيقي الذي أبحث عنه. هناك راكم شخص اسمه صدام حسين ملفات ذلك العنف منذ أكثر من ثلاثين سنة. ثم جاء الأميركان وأضافوا للملف كثيرا، هم وأصدقاؤهم منا نحن العراقيين. ملف القتل، والخطف، والإجتثاث، والتسليب، والإرهاب، والتآمر، وحجب الحقائق، والتزوير، والعنف الموجه للنساء، ابتداء من فرض الحجاب وانتهاء بالقتل لتنظيف صفحة الشرف. ملفات كثيرة أتخيل وجودها هناك خلف تلك الأسوار العالية التي نحدق بها أنا وسرى ونحن نجلس على المصطبة الخشبية التي تطل على دجلة.

وصف يوسف للمنطقة الخضراء رن في خيالي وأنا أحدق في القصور المتلألئة بين الأشجار: إنها بؤرة سرطان. كان متحاملا جدا على كل من عمل في هذه البؤرة.

دعتني سرى إلى تناول الكباب، على حسابها، بعد أن تلامست أيادينا ومالت وجوهنا إلى بعضها، وتنسمت أنفاسنا ما تكنه الروح. المشي في الممرات الضيقة بين الأشجار كانت ذريعة لتقارب جسدينا وانجذابهما إلى اللقاء. مشينا إلى ذلك المطعم واخترنا زاوية ظليلة تشرف على المياه. مياه دجلة الخابطة. الزبائن قليلون في هذا الوقت. وهي خلال انتظار مجيء الطعام كانت تشرح لي العلاقة المعقدة التي ربطتها بسامر. جاءت إلى الجريدة بحثا عن عمل بعد أن أنهت دراستها في قسم الصحافة، وبعد أن تزوجت واحدا من زملائها قبل أكثر من عشر سنوات، ولديها طفلان. الشخص الأول الذي التقته في الجريدة هو سامر. أرسلوها إليه كي يختبر قابلياتها في كتابة التحقيقات، إلا أنها، وحسب ما قالت، أعجبت به منذ

النظرة الأولى. أعجبها شكله الرجولي، وشاربيه الكثين الملونين بالأبيض والأسود، وعينيه الواسعتين اللتين تختزنان عدوانية لا تخفى. إنه عكس مواصفات زوجها كما أكدت.

كانت سرى تتكلم عن هذه الأسرار كما لو تتكلم عن صديقة لها، وأمامي أنا الغريب الذي بالكاد يعرفها. يبدو أنها أزمعت على اشراكي بكثير من أسرارها. وكنت أحدق باعجاب للصراحة الفائقة التي تتكلم بها. المرأة تعرف متى تنغلق ومتى تنفتح مع الشخص الذي يجالسها. السلوك له علاقة بكيمياء الجسد، كما قرأت ذلك في كتب الباراسايكولوجي القليلة التي مررت بها حين كنت أعيش مع ماري في بيت فالبي الدانماركي. الباراسايكولوجي لا يعتد به هنا. هذه مدينة مباشرة أكثر مما يجب، فكرت. مباشرة وفظة كأي حيوان مستحاث عاد إلى الهواء. بين فترة وأخرى تناولني سرى لقمة صغيرة من الكباب، وكأنها أم رؤوم تستجيب لغريزة الإهتمام بالطفل الذي بين يديها. والنوارس تطير في أفق النهر، وأمواج دجلة تتلاصف تحت شمس ظهيرة خفيفة، والغبش الناعم كان يتغلغل في أشجار الكورنيش. النبق، والتوت، والتفاح، وعرائش الآس التي تنتشر في مربعات الثيل.

أكثر ما كان يجذبني يد سرى التي تضعها قريبا من يدي فكنت أحتضنها بين حين وآخر، أو ألثمها بقبلة ناعمة، محبة، تطرب لها، وتتصنع بعدها المناكفة والممانعة. فخذها الممتلئ نال من أصابعي مداعبات خفيفة وقرصات. علاقتها بسامر علاقة عميقة، تتعدى زمالة العمل وتندرج ضمن علاقات العشق والغرام، رغم أنهما كلاهما متزوجان. في مطعم أبي نؤاس، تجالسني سرى، وقلبي عاشق، أو

ظمآن للعشق، وتلك السجادة السمائية المفروشة أمامي من فيوضات دجلة، والمنطقة الخضراء، بؤرة السرطان، واللون الساحر للأيام الخوالي، وكنت ذات يوم ربما رأيت النورس ذاته، والسنونو ذاته، وأعجبت بأم سرى ذاتها وكانت تتبختر في ممرات حدائق أبي نؤاس. من يدري.

كنت آتي إلى هنا في بدايات العقد الثمانيني، قبل معرفتي بنامق سبنسر، وكنت أرى السمك المشوي بالطريقة البغدادية، وأشم رائحة البيرة الشهرزاد، والجوهرة، والعرق المسيّح، واللبلبي، والخس القادم من مزارع الراشدية. ذاك عالم مات خلال الحروب المتعاقبة. ونحن نلتهم الكباب ونحتسي لبن أربيل كنت لسرى نافذة إلى عالم سري، لقد كرهت الوطن قالت لي، كرهت رجاله، وحروبه، وجنوده، وأحزابه، وثقافته، وأرغب بالعيش في مكان آخر، في بلد ثان يبعد عن هذا البؤس على الأقل ألفي كيلومتر. لم أحدث سرى عن السنوات التي عشتها في مدن كثيرة، دمشق، طهران، بيروت، كوبنهاغن، لندن، ستوكهولم، وغيرها، لكنها كانت تدرك وتحس في جرمي رائحة غير محلية، ولست شبيها بالرجال الذين عرفتهم في حياتها. في حياتها تعني حياتها المحصورة بين العطيفية والكرادة والجادرية والبتاوين والمنصور ومدينة الثورة التي قطنها ابن خالتها ذات مرة وكانت تزور زوجته في الأعياد والمناسبات.

سرى خلال الحوارات القصيرة، والنكات اللماحة، والجمل المقطوعة، سربت لي رغبتها في زيارتي بمكاني المريب، وهي لا تعير اهتماما لدخول بناية مليئة بالمكاتب والعيون قرب مركز شرطة البتاوين. عدنا إلى المشي في ممرات الحدائق الشهيرة، كنا نتلاصق

برغبة غير مفهومة، تخيلت نفسي أستلقي على جسد سرى في غرفتي المعتمة، وتخيلتني أخترق السنوات العديدة التي تفصل بيني وبينها، وتفصل تجربتي الحياتية وتجربتها، هي التي لم تخرج من الحدود، وأنا الذي زرت أكثر من عشرين دولة في حياتي. وكدت أن أصل القطب الشمالي، وكدت أضيع في غابات البرازيل المدارية لتلتهمني سمكة البيرانا الأمازونية المتوحشة التي حدثتني عنها ذات سنة زوجتي ماري، ابنة مدينة كابريوفا التابعة لساوباولو، المستلقية على المحيط. سمكة ذات أسنان. سمكة تقتل لتعيش ليس مثلنا نحن البشر. لذلك ربما نحن بحاجة ماسة إلى الحب. الحب يخنق رغبة القتل الحيوانية التي تولد مع الإنسان.

كيف حدث هذا لا أعرف، العشق يأتي، مثل فكرة، يتسلل إلى الروح دون أن يعرف الشخص ذلك. يستيقظ فجأة، ويجد نفسه يتنفس الشخص الذي يعشقه. يصبح نبضة في دمه كما تقول سرى. بعد تلك الجولة في حدائق أبي نؤاس اقتنعت أن لدى سرى الميل ذاته الذي لدي. اللقاء الجسدي الكاسر للحواجز، العابر لقارات الروح. لكن اللقاء قد يأتي صدفة. وقد يأتي دون تخطيط مسبق، إنما تهندس ذلك الظروف. تهندسه في الزمان والمكان. كما هندست الصدفة ليلتي مع البولونية جاوانا.

ما كنت أطلق عليه هندسة الصدفة، حدث في صباح يشبه أي صباح آخر، في هذه المدينة الكونية. كنت وسرى نسير في الإتجاه ذاته، أي الوصول إلى اللقاء الجسدي. كانت مدفوعة بالفضول على الأغلب، بينما كنت مدفوعا بالشهوة التائقة إلى جسد المرأة. ها هي شهور تفصلني عن جسد جاوانا البولونية. الغريب أنني منذ أن دخلت

بغداد لم أسمع أي انفجار. وطوال يومين ظللت أتساءل إن كان خزان العنف هذا في طريقه للنضوب؟ هل هي مصادفة فقط؟ في اليومين الأخيرين شعرت بقليل من التفاؤل. بغداد تعيش كأي مدينة كونية أخرى. لكنني كنت على خطأ. إذ أنهيت وجبتي الصباحية تحت البناية، في مطعم المشويات، وسمعت الإنفجار. هذه أول مرة أقرأ فيها الوجوه وهي تستقبل حدثا مروعا مثل هذا.

قال أكثر من شخص إنه لا يبعد كثيرا عن ساحة الطيران. وساحة الطيران امتداد لساحة التحرير. أول ما تبادر إلى ذهني هو سرى، لا بد أن تكون في الجريدة، فاتصلت بها وردت علي بعد أكثر من محاولة. سألتها إن كان بامكانها النزول ومرافقتي إلى مكان الإنفجار؟ قالت هو لا يبعد كثيرا، في ساحة الطيران بالتأكيد. استهدفوا عمالا مياومين، عادة ما يتجمعون تحت جدارية فائق حسن، أو قرب المحلات المنتشرة هناك. أما زلت نائما؟ كلا، أجلس عند محل المشويات أمام باب مكتب تكوين. كان صوتها محايدا، لم ألمس فيه أي عاطفة تذكر. هي تجلس قرب سامر كما خمنت. انتظرني عند ساحة النصر بعد ربع ساعة، وأغلقت التلفون. انفجار، حسب خبرتي، عادة ما يودي بعشرات الأشخاص. تتطاير الأشلاء على واجهات البيوت والمحلات، وتتناثر على الإسفلت. كيف يمكن لك أن تواصل طعامك وأنت تعرف أن هناك عشرات الضحايا سافروا إلى السماء بلمحة من البصر؟ كيف لك أن تواصل حياتك بعد أن تسمع الإنفجار؟ كيف تضاجع زوجتك، وتبوس طفلك، وتعجب بحديقة جميلة، وتغازل امرأة تلفت انتباهك؟ بل كيف يخطر ببالك أن تعيش قصة حب خالدة، عاشها بلايين البشر قبلك؟

اخترقت، عجلا، محلة البتاوين متجها إلى ساحة النصر، في صباح اختلطت فيه أصوات سيارات الإسعاف وسيارات الشرطة. وفي السماء طيور هاربة إلى المجهول. الطيور الهاربة كانت خائفة من الضجيج، رأيتها تصطفق بأجنحتها مبتعدة نحو الريف البعيد. لا بد أنها تنفست رائحة الموت. ضجة تأتي من شارع السعدون فيما أتغلغل أنا في دهاليز محلة البتاوين وسط مشاعر مشحونة مترقبة، وكان البعض يركض نحو ساحة التحرير، والعيون كلها مليئة بالغضب، والحزن، والفضول. في الآونة الأخيرة خفّت الإنفجارات، لذلك كان تفجير اليوم مفاجئا للجميع. رغم الألم الذي أحسست به بعد سماع الانفجار، لكنني وخلال مشيي في أزقة البتاوين، وأسواقها، لم أنفك عن التفكير بسرى. هناك تفاصيل راحت تنهال علي لم أهجس بها سوى اللحظة. غريب هو العقل البشري، أنا اتجه إلى مكان تتطاير فيه الأجساد شظايا، ورائحة اللحم المحترق تعتكر في الهواء، والأرواح لم تبرح أرض ساحة الطيران. وتلك التفاصيل ترد إلى ذهني. الحب والموت، الثنائية التي لا فكاك منها.

سرى كما لو كانت تحاكي جسدها الصغير، تعتمد على الايحاءات مع الآخرين، على الايماءات الصغيرة من العين أو الشفتين أو تعابير الوجه، لا تصرح، تستخدم لمسة خفيفة لأصابع الآخر أو لجسده. أسميت ذلك (تواصل الفراشات). اللغة تختفي في هذا الجانب، وتعابير الجسد ومجساته ولوامسه تكون لغة معبرة عن المشاعر والرغبات والأحاسيس. حين تبتسم تبتسم بنعومة، حتى عيناها تتألقان بخفة اذا ما أرادت أن تفرح أو تحزن أو تغضب.

كنت أمشي ساهما في صورة سرى الذهنية وطرقها الفراشية في

التواصل، ثم رن هاتفي المحمول وكانت سرى. قالت: وصلت قبلك وبالكاد استطعت دخول المكان. الشرطة تمنع أي شخص من الاقتراب، لكنني أقنعتهم باعتباري صحافية أعد تقريرا للجريدة. أين مكان الإنفجار؟ وما الذي يجري الآن؟ لا، لا تأت، مشاهد غير سارة إطلاقا. الأفضل أن لا تأتي. رغم ذلك أرغب في رؤيتك. قالت لي بغتة، هي تفاجئني دائما بقراراتها وأفكارها: سأكتب عن التفجير وأعطيك نسخة، وصورا، فلا داعي للمجيء. لكنني مشتاق لرؤيتك. انتظرني بعد ساعة في مكتب تكوين، ثم أغلقت التلفون. وقفت مذهولا وسط الشارع، وكانت هناك فوضى عارمة. رجال وشباب يركضون باتجاه ساحة الطيران. الوجوه لا تفسر، فيها ذهول وغضب وحيرة وكأنها تقول متى ينتهي كل هذا. محلات التسوق المنزلي أغلقت الأبواب، والبعض يمتص الدخان بعصبية ظاهرة ويحدق إلى نهاية الشارع، النهاية التي تقود إلى تخوم الساحة حيث وقع الانفجار.

في ذلك المكان يتجمع عمال مياومون كل صباح للبحث عن رب عمل يستخدمهم في أعمال يومية كالبناء أو تعديل طريق أو ساحة بيت أو اية أشغال أخرى تدر عليهم مبلغا من المال يشترون به في نهاية النهار طعاما لعوائلهم. كما ينتشر تحت جدارية فائق حسن متسكعون كثر من الشباب والكهول لا يعرفون ما يريدون سوى أنهم يبحثون عن شيء ما، ربما مفتاح حياتهم الضائع. جدارية فائق حسن. هل يمكن أن تصبح مظلة للموت؟ غريب.

في تلك الجدارية عشرات من الأشخاص، عمال فلاحون، نساء، أكراد، عرب، أطفال، جميعهم ينظرون إلى الحمامات

الطائرة في رخام الجدارية. كانت هناك أربع حمامات ثلاث منها تطير في الأعلى وأخرى هي الأبرز تداعبها أم مع طفلها، وكأنها ترقّص الطفل على ريش الحمام. للمرات الكثيرة التي وقفت بها أمام الجدارية حفظتها عن ظهر قلب. كانت جزءا من تاريخي أيضا، مثلها مثل نامق ونادر ويوسف وأخي كمال الذي ذهب في انفجار مماثل إلى سماء المجهول. تطير الحمامات في ساحة الطيران، والبنادق تتبعها، يقول شاعر بغداد سعدي يوسف في قصيدة يصف بها هذه الجدارية. هذه المرة ليس هناك بنادق إنما سيارات مفخخة، وتي أن تي، وعبوات ناسفة تقتل العمال والشغيلة والبسطاء من الناس والعاملين في حديقة الأمة التي تدير الجدارية لها ظهرها. الغريب أن جدارية أكبر فنانين عراقيين هما فائق حسن، وجواد سليم في جداريته نصب الحرية، كلاهما تديران الظهر لحديقة الأمة الغاصة بالشجر، والطرق الضيقة، والشيل الراقد تحت أشجار النبق واليوكالبتوس. كان أول رد فعل لي على موعد سرى المفاجئ هو الدخول إلى مقهى السودان، وكان يقع على يساري. لا بد من شرب استكان شاي والتفكير باسترخاء بهذا الموعد الطارئ.

وأنا أرتشف الشاي وأمتص سيجارتي بتوتر، أول ما ورد إلى ذهني هو أننا سنكون، أنا وسرى، لأول مرة، في مكان مغلق، وآمن. معظم الجالسين حولي هم من السودانيين والصوماليين والأفارقة عموما، كنت الوحيد بينهم، لذلك كان البعض يتطلع لي بفضول. لسان حالهم يقول ربما ما الذي أجلس هذا الكائن بيننا؟ خاصة وأن الجموع كلها هبت إلى رؤية أثر الانفجار؟ كان هناك مجموعة كبيرة من السودانيين تقطن هذه المنطقة، فكرت دائما بالكيفية التي يعيشون فيها.

ثمة أمام الباب الزجاجي شخص سوداني يجلس على كرسي خشبي ويضع أمامه طاولة تناثرت عليها ساعات متنوعة، مع منظار صغير وأدوات دقيقة يستخدمها على الأرجح لتصليح الساعات. كهل ينتظر الزبائن، ويحدق في الشارع بنظرات غير مبالية، خمنت أنه يتذكر قرية ما بعيدة على أطراف مدينة الخرطوم، أو مدينة ما تفصله عنها آلاف الكيولومترات. وكما خبرت ذلك وعشته في كوبنهاغن ولندن وبرلين وغيرها من عواصم العالم، فهو يمتلك هيئة المغتربين النموذجية التي امتلكتها أنا نفسي ذات يوم بالتأكيد، سواء في استدكَاذا في كوبنهاغن أو شارع أجورد رود في لندن أو ساوباولو حين رافقت ماري ذات سنة. هيئة المنفيين والمغتربين المقتلعين من جذورهم، كحالة صديقي نادر أو يوسف أو نامق.

جاءت إلى ذهني تفاصيل من رواية موسم الهجرة إلى الشمال للطيب صالح السوداني، الرواية التي طالما وددت لو أكتب مثلها. ما عشناه في عقودنا الأخيرة يمكنه أن يغطي عشرات الروايات مثل موسم الهجرة إلى الشمال. بالتأكيد. القلق، السهوم، الضياع في بيئة مغايرة، العمل في مهن لا تتناسب مع تحصيلهم الدراسي، وهواياتهم، ورغباتهم. أعتقد أن معظم الجالسين معي في هذه المقهى هم على هذه الشاكلة. هم لا يختلفون كثيرا عن رواد شارع نوربرو في كوبنهاغن. هناك الخليط البشري أكبر، لا تجد السود فقط، بل ثمة قادمون من القارات جميعا. كلهم لاذوا إلى كنف ذلك البلد، ودعوا مدنهم وقراهم وخلانهم ولغاتهم وعاداتهم وجاءوا باحثين عن الأمان، أو ربما عن فرص أفضل لحياتهم. أليس اختلاط الأعراق سمة لحاضرنا الذي نعيشه؟

لم أكن أعلم أنني انهيت استكان الشاي أمامي إلا حين سألني صاحب المقهى إذا ما كنت أرغب في قدح آخر. عدت إلى نفسي مرة ثانية، شكرته ونهضت من مكاني، ودفعت له النقود ثم عدت إلى شوارع المحلة. هذه المرة عكس وجهتي السابقة. رجعت نحو البناية دون أن أخرج من الأفكار التي تفور في رأسي.

(١٥)

سرى في بيتي. سأنفرد بها أخيرا، بعيدا عن عيون البشر. دخلت الشقة وذهبت مباشرة إلى الحمام. نظفت أسناني بالفرشاة والمعجون، وتمضمضت بالصابون المعطر، ثم رششت ديودورانت تحت ابطي برائحة المسك أصله من ماليزيا. مضيت إلى الغرفة ووجدتها معتمة. عدلت فراشي ووضعت جاكيتي الجلد المبطن بالفرو، وهو جلبته من كوبنهاغن من سوق الأحد الذي زرناه أنا ونادر، سوق فردريكسبيرغ، وضعته بشكل فني وجمالي على حافة الفراش الموضوع على الأرض. نظفت الطاولة في الصالون، وكذلك كومبيوتري الشخصي، وغسلت التواليت بالماء، ورششت قليلا من الديودورانت في الفضاء، وأزحت الغبار من المطبخ. زيارة المرأة دائما ما تجعلنا نهتم بالنظافة، عكس زيارة الرجل. قد يكون السبب هو أنها تمتلك حاسة شم، ودقة ملاحظة، أكثر من الرجل. أو ربما هي تحب الترتيب والأناقة وتوفير المكان المريح بحكم غريزتها كأنثى. تعلمت الكثير من هذه الأمور بسبب قراءتي لكتب وقصص وروايات كتبتها نساء، عبرها يمكن إدراك الطبيعة الأنثوية عارية في النظر إلى الحياة وتفاصيلها. حياتي مع ماري أغنتني في هذه التفاصيل وزادت من ثقافتي الجنسية. هي التي علمتني بحسها اللاتيني ما ترغبه المرأة وما تمقته. رغم ابتعادي عنها لكنني لا

أستطيع إنكار ما ضخته في وعيي من شؤون حضارية عكست كثافة الروح البرازيلية في النظر إلى الحياة.

في الساعة الحادية عشرة تقريبا سمعت طرقا خفيفا على الباب. عرفت أنها هي. سرى الفراشة. ذات اللوامس الأنثوية. تعرف طريقها جيدا. سربت لي أكثر من مرة أنها تلتقي بسامر هنا. صديقي سامر يحاول أن يجعل من الشقة مكتبا للتصميم والإعلان والصحافة، لكنني وطوال مكوثي هنا لم ألمس أي حركة تدل على هذا الهدف. جلسنا مرتين في الشقة سوية ولم يتطرق إلى عمل معين يخص المكتب.

دخلت سرى مرتبكة الملامح، فسرت ذلك بتأثير ما رأته من آثار الإنفجار والضحايا والدمار. جلست على الأريكة، ووضعت حقيبتها النسائية تحت قدميها على الأرض، وأخرجت منها علبة دخان من نوع كينت، وطلبت مني بغنج أن أشعل لها السيجارة. هذه أول مرة أرى فيها سرى تدخن. عرضت عليها ونحن جالسون في مطعم أبي نؤاس سيجارة من علبتي بعد شربنا الشاي فرفضت. أسنانها تخلو من أي اثر للدخان، ورائحة أنفاسها أيضا. قالت أدخن أحيانا، وأستمتع بالدخان، وحتى زوجي يعرف ذلك. سألتها وهل تشربين؟ قالت في مناسبات خاصة. في أجواء مضاجعة. سواء مع زوجي أو مع سامر، أو في ظروف أخرى، وابتسمت تلك الإبتسامة الملغزة. ثم أخرجت علبة علكة استلت واحدا وقدمت لي واحدا، وراحت تنظر إلى الفضاء عبر النافذة. هذا بلد حقير، وناسه حقراء. قالت بقرف وكأنها تحدث شخصا غائبا أو بعيدا عنها. وهذا ما أذهلني، فسألتها باستغراب: ما الذي حدث؟ لماذا تتكلمين بعدوانية على هذه الشاكلة؟

نهضت من مكانها وتعلقت برقبتي ثم منحتني شفتيها كما لو كانت تنتقم من البلد، والرجال، والعالم. اشتبكنا بعناق شره يفح حرارة أكثر من دقيقة. انفصلت عني وجلست ثانية في مكانها. تخيّل، وسط الجثث المتفحمة والجرحى والدماء، رأيت أشخاصا يحاولون سرقة الجثث. ينزعون محابسهم، وأطواقهم، وسلاسلهم، أو يخرجون محافظهم عسى أن يقعوا على مبالغ ضئيلة. لم أصدق عيني. رأيت شابا يعالج سوارا ذهبيا لإخراجه من يد امرأة مسنة، تلبس ملفعا، وقد فارقت الحياة بسبب شظية من سيارة البيك أب، منكبة على وجهها، وكاد أن يقطع اليد من أجل سرقة السوار، هل تصدق ذلك؟ المفارقة هي أنني رأيته يبكي على المشهد بحزن.»

أية بربرية تعيش بيننا.

روت لي ما جرى بسرعة. جاء شخص بسيارة نوع بيك أب وتجمع حوله عمال كثر، وقال لهم ضاحكا كما لو أنه لن يموت في الدقائق القادمة: لدي بناء في بيت ببغداد الجديدة، وأريد عشرة عمال. تكدس أكثر من عشرين في السيارة وحوله، والجميع كان يبحث عن فرصة عمل في هذا اليوم. ابن الكلب ذاك كان لغّم سيارته بما لا أعرف من المتفجرات فحولهم بلحظة إلى أشلاء طائرة. أنا لا أصدق أن بشرا على هذه الشاكلة يعيش بيننا. رأيت شظايا على جدارية فائق حسن، واحدة منها أصابت جناح الحمامة المرسومة هناك. هذا بلد عليه أن يقف عميقا مع نفسه، دول العالم تتمتع بالموسيقى، بممارسة الحب، بالسهر على شواطئ البحار، بالجلوس في الحدائق، ونحن نقتل بعضنا بعضا مثل تماسيح أفريقية. أستغرب منك ترك تلك البلدان الجميلة والرجوع إلى هذا البلد

المسخ، وإلى هذه الشعوب الفظة التي تشرب الدم كما لو كان نبيذا. إرحل فهذا مكان لا يستحق العيش فيه.

قلت لها وأنا أجلس جوارها وأداعب شعرها الذهبي: إنك أنجزت التحقيق تقريبا، فجوهر الأمر لماذا تطوروا وفشلنا، لماذا نحن عنيفون لهذه الدرجة وهم مسالمون، ما هو السبب؟ هذا هو أرشيف العنف الذي يهمني. الأرشيف الروحي للعنف. القصص تنبع من هناك. هذا الأرشيف لم يفتح حتى الآن. لا أحد يعرف بدقة ما تحتويه صفحاته اللانهائية. وكأن الجميع يخاف من الإقتراب منه.

ونحن في هذا الحديث رن هاتف سرى وتطلعت بحذر إلى الرقم، وقبل أن تجيب قالت لي إصمت إنه سامر. سألها، على ما استشففت من إجابتها، أين مكانها الآن؟ قالت له مازلت في ساحة الطيران، سأعود خلال أقل من ساعة. بدأ يزعجني، هو يغار علي، ألم تسمعه كيف بدأ يشك بوجود شيء ما بيننا؟ إنه ليس زوجي على أية حال. صار يريد أن يعرف كل خطوة أخطوها. نحن نلتقي هنا منذ سنة تقريبا. مرة أو مرتين في الأسبوع. لكنني بدأت أمله. لا أحب الرجل الغيور. وكما لو أرادت الإعتذار عن ذلك نهضت من مكانها ومنحتني شفتيها وراحت تضغط على جسدي برغبة في منح نفسها. بعد قبلة شبقة حملتها بين يدي واتجهت بها إلى الغرفة. لذهولي الشديد همست لي ونحن ندخل عتمة الغرفة: استعجل فسامر يأتي أحيانا خلال النهار إلى هنا. انها تدعوني إذن لمضاجعتها سريعا مما أثارني بشدة.

في عتمة المكان تعرينا، كلانا، وطلبت مني أن أقع عليها بقوة، وهمست أنها ترغب في الرجل القوي، تستمتع بالألم، لكنني كنت

مرتبكا تلك اللحظة. حتى وهي تعصرني بين فخذيها الممتلئين كان ذهني شاردا في ساحة الطيران، وهذه المفارقة بين الموت والحياة، بين الكره والحب، بين الغيرة والحكمة، بين الثبات والتحول. فأنا بكل الأحوال أستغل صداقة سامر وثقته وأضاجع خليلته أو عشيقته أو حبيبته لست أدري. كل ذلك هجم إلى ذهني وأنا اختض فوق جسد سرى الأبيض، المتوتر جنسيا، الذي يريد اكتشافي بحميمية اللقاء. وقبل أن أنتهي رن التلفون مرة ثانية، إلا أنها لم تعر اهتماما للأمر. قالت لي وسط لهاثنا، وعرقنا، وتلاصقنا: هذا زوجي. حين خرجت سرى أحسست أنني دخلت في عالم جديد، عالم الأنثى البغدادية المصنوعة من حروب، وجثث، وشوارع قبيحة، وطائرات أباجي، وتعابير قسوة في وجوه البشر، ونمائم وتقولات وإشاعات وعواصف الغبار المسببة للربو والسعال. إلى الغد قالت لي وهي تغمز لي أثناء ولوجها الدرج نازلة إلى الباب الخارجي. غمزات عينيها تشبه القبل، تنثرها في البرهة الملائمة، وفي اللحظة غير المتوقعة. هي مليئة بالإيحاءات والرسائل. جسدها كله رسائل. حين تصبح اللغة حذرة وخائفة من التعبير المباشر تتحول رسائل الجسد إلى ألغاز.

وتم لقائي الثاني معها تحت أشجار النبق المقابلة للمنطقة الخضراء، على ضفة دجلة. لقاءاتنا صارت طقسا يوميا، نحس بضياع اليوم هدرا إن لم تحصل. كانت شمس الربيع محببة، فجلسنا على مصطبة تشرف على النهر. ما هو غير مألوف أن سرى هي من كانت تجلس على المصطبة تنتظرني، تلبس بنطالا سكريا وبلوزة دهنية من الصوف وحذاء ربيعيا يميل إلى الأصفر الخفيف. شعرها الذهبي يجذب البصر من بعيد. تحت شجرة النبق كانت ساحرة

خارجة من طين دجلة. أجابت على سلامي بصوت خافت، ذلك الصوت الهامس الخارج من الأنف، الذي يبدو صاحبه وكأنه يعاني من نوبة مرضية أو موقف مخيف، وقالت لي بعد لحظة من جلوسي: لم تأخرت، هناك رجال غيرك يتمنون أن ينتظروني ساعات، فلم كل هذه العجرفة. لا تنسي أنني جربت الكثير من النساء، لم أعد أدهش لأي امرأة تقابلني. سكتت قليلا وهي تحدق بشجرة النبق فوقنا، وجذبت يدي إلى فمها وقبلتها، وهي المرة الأولى التي ترفع فيها من درجة الشوق، وربما الحب فيما بيننا.

فكرت أن سرى حسمت الأمر مع نفسها في أن تتخذني عشيقا، أو حبيبا. لكن ماذا عن سامر؟ تبادر إلى ذهني هذا التساؤل، وأنا أحدق إلى الفلاحين القريبين وهم ينظفون ما حول أزهار مزروعة على حافات سواق صغيرة داخل المتنزه. قبلتها ليدي شجعتني لكي أميل عليها وأقتطف قبلة سريعة من فمها. هناك العينان الصفراوان اللتان جذبتاني إلى سرى منذ اليوم الأول الذي رأيتها فيها جالسة بالقرب من سامر في الجريدة. عينان حادتان، تبدوان كما لو كانتا خارجتين من مصنع للبراءة. المارة خلال مجلسنا أمام مياه دجلة، وسط كورنيش أبي نؤاس كانوا يحدقون إلينا بفضول. البعض منهم يلتفت إلينا حتى حينما يتجاوزنا بأمتار قليلة وكأنه يتأكد بأننا ما زلنا موجودين، وأن ما رآه لم يكن حلما.

حالة بغداد غير مطمئنة في هذا الناحية، فثمة تضييق كبير على النساء، السافرات على الأقل. لماذا تتطلعين كثيرا إلى مدخل الكورنيش؟ أخاف أن يفاجئني سامر فقد تركته وحده في مكانه، وكذبت عليه. قلت له سألتقي أخي ساعة وأعود. هو لم يعد يثق بي،

وإذا وجدنا سوية فسوف يخرجني من عملي، لا تنس أنه المسؤول عني.

حرارة الشمس تزداد قليلا قليلا، والنوارس تطير رخية على صفحة المياه، تعبر من جانب الرصافة إلى جانب الكرخ. حدثتها عن التحقيقات والتقارير التي علي إرسالها إلى مراد قامشلو ووعدتني بأنها ستزودني بأي مشاهدة أو تقرير يخص الموضوع، رغم أن الأوضاع تهدأ قليلا قليلا في الشارع. أعطتني أربع صفحات مكتوبة على الكومبيوتر، تخص انفجار ساحة الطيران وفلاشا أسود اللون، كما زودتني بصور فظيعة عن المجزرة. كانت سرى تعيش مع زوجها وأطفالها في منطقة العطيفية، لكن أهلها يعيشون في منطقة الداوودي في المنصور، حيث تقضي أغلب الأوقات هناك مع أطفالها. هذه الحقيقة سببت لي قليلا من تأنيب الضمير، لكنني بعد تأمل في شخصية سرى توصلت إلى نتيجة أنها لا تنتظر غرامي لكي تخون زوجها. هي تقوم بذلك مع سامر، وربما مع أشخاص آخرين. الخطورة في المسألة أنني أحب سرى لسبب أجهله، ولا يتعلق الأمر بالجنس. كنت بين الحين والآخر أقطف قبلة صغيرة من زاوية فمها حين يفرغ الكورنيش من العابرين حولنا، أما أيادينا فكانت متشابكة طوال الوقت، وكأننا، الإثنين، لا نريد فض الإشتباك كي لا ننفصل.

جذبتني من يدي وسرنا نحو مطعم السمك القريب من كراج السيارات. مضينا إلى حوض فيه أسماك نهرية حية اختارت واحدة تزن كيلوين تقريبا وطلبت من الصانع شيها لنا، بطريقة المسكوف البغدادية، وجلسنا على طاولة من البلاستيك بمواجهة القصر

الرئاسي. القصر المحاط بالصفائح من الكونكريت تطوق حديقة غناء كانت تبدو من مجلسنا وكأنها قطعة من الجنة. بعد أن دخنت سرى سيكارة مني ارتشفت قليلا من الماء. ونحن جلوس في ذلك المكان المنعزل صمتت سرى دقائق، واتخذ وجهها منظرا عميق الجدية: لدي خطة أتمنى أن تكون ناجحة. عن أي شيء تتحدثين؟ عن الوضع الذي أنا فيه. لم أعد استطيع مواصلة العيش بهذه الطريقة. أنا أسمع. كلا ليس اليوم. دعني أفكر بها من وجوهها كافة. القضية تتعلق بنا نحن الثلاثة، أنت وسامر وأنا. هل تريدين قطع العلاقة معي؟ أنا الوحيدة بينكم من أدفع الثمن. لم تفه سرى بجملة بعدها. ظلت صامتة حتى غادرنا المطعم والكورنيش.

ما أفرحني هو أنني اقتطفت عشرات القبل من سرى، وشممت رائحتها الناعمة، وتمتعت بملامسة شعرها الذهبي المنسدل حول وجهها. كما طلبت منها بعد أن التهمنا السمكة المتبلة أن ألامس شفتيها فلم تمانع. وحققت الرغبة بعد أن مشينا على حافة الماء. لم يكن هناك أي مار في الجوار، ووجدت شفتيها بملمس طري وناعم ورقيق، وكأنها فرج صغير ينفتح على المجهول. اتصلت في التاسعة مساء، وأخبرتني أنها لم تعد تستطيع العيش بدوني. قالت إن طفليها يلعبان في الغرفة، وتجلس هي مع ابنة أختها في الصالون، وزوجها ما زال في الشركة. ابنة أختها اسمها نادية، وعمرها ثمانية عشر عاما، وهي تنام عندهم الليلة، وحدثتها عني، ثم ناولتها التليفون وبدأت نادية تخبرني عن خالتها سرى وكيف تتحدث عني ليلا نهارا كما قالت. إنك رجل حضاري وتحترم المرأة، وهذا ما لا نلمسه في رجالنا. هم ينظرون إلى المرأة نظرة متخلفة.

كنت محرجا وأنا أتحدث إلى نادية، كما لو أن ثمة شخصا ثالث

اطلع على سرنا ويمكن أن يبوح بذلك السر بأية لحظة. كيف تسلم سرى مصير حياتها بيد مراهقة مثل نادية؟ هذه الأمور يمكن أن تسبب لها بكارثة. أي كلمة تبوح بها نادية ستعرض سرى إلى الموت. لذلك شعرت بالراحة حين أنهت نادية حديثها وناولت التلفيون إلى سرى، وكنت أهجس بأن سرى لم تتصل عبثا. ألم تخبرني عن خطة تقوم بحبكها؟ ألم توح لي لغتها الفراشية بذلك؟ قالت لي بعجلة: سامر اتصل بي وأخبرني أنه لن يأتي غدا إلى الجريدة، وأنه مصاب بالانفلوانزا الشديدة. سآتي اليك صباحا، انتظرني عند الثامنة. عبر لقاءاتنا التي تكررت كانت سرى دائما قلقة من دخول سامر إلى المكان فجأة. أصبح الهاجس كابوسا كلما التقينا. يبدو أن للحب رائحة، وكذلك للأسرار الخطيرة.

فعلا، ما أن بلغت الساعة الثامنة حتى سمعت صوت الحذاء الخفيف يقرع على السلالم.

خلال تجربتي مع النساء كنت أعتبر أن أجمل صباح هو ذلك الذي تنتظر فيه امرأة قادمة للنوم بين أحضانك. حين تنتظر وقت الموعد، حين تترك الباب الخارجي منفرجا لكي لا تضطر إلى فتحه، لكي تتنصت إلى الأصوات المتجهة إلى البيت، ثم حين تسمع من بعيد ذلك الصوت الخفيف لحذاء الأنثى بخطواتها السريعة المتواترة، الخفيفة، القلقة، وهي تنطلق مثل سهم بارع إلى العرين. تركت باب الشقة مفتوحا، وأنجزت طقوس اللقاء، غسل الأبطين وتعطيرهما، تفريش الفم بالمعجون، تنظيم السرير وتعطيره، ترتيب الشقة خاصة التواليت والمطبخ وتنسيق المكان كله، ثم وضع زهور بلاستيكية كان سامر اشتراها ذات يوم، على الطاولة العريضة. ولم

أنس تشغيل الكومبيوتر على ملف فيروز. فيروز وهي ترش الصباح بكلمات العشق، والطفولة، والذكريات العتيقة. فيروز التي سمعتها مراهقا، وشابا، ورجلا، وكهلا، في مقاهي بغداد، وثلوج كردستان، ومتاهات طهران، وبساتين دمشق، وسواحل مينيجيراوس البرازيلية، وشقق لندن المعتمة، وشقق كوبنهاغن الرازحة في بياض الثلوج الإسكندنافية.

كنت محظوظا أن أصدقائي في القارة الأوربية، نادر ونامق ويوسف، من عشاق هذا الصوت الساحر. كل جلساتنا الخمرية تتضمن وصلة من أغاني فيروز. ننساها ساعات ثم نتذكرها ما أن تدب الخمرة في الرؤوس، وتنعطف الأفكار إلى البيوت العتيقة، والهجر، والرحيل، والنايات التي تروي شوق الوصول إلى الحبيب.

روح سرى كانت تتجسد بعطرها الخفيف، ذلك العطر الذي تشبعت به منذ تلك اللحظة التي غابت فيها عن الوعي وحملتها بيدي أمام الجريدة كي ننقلها في السيارة البرنس إلى مستشفى العلوية. هجمت رائحتها قبل أن تنهي فيروز أغنيتها يمه الحلو، أنا لرحلو واسألو يما، يمه سأل عني وكنت على العين، أنا لرحلو واسألو يمه الحلو. طير وعبر يمه. الحياة التي تعبر مثل طير، مثل عصفور نهاري، مثل بومة ليلية، طير يصطفق بأجنحته ويعبر مجال النظر ثم يختفي عند حافة الأفق. هل يمكن القول إن الحياة عبارة عن طير مارق؟ عن برق لحظي الزوال؟ والتمعت في رأسي أبيات محي الدين بن عربي التي يقول فيها: رأى البرق شرقيا فحن إلى الشرق/ ولو لاح غربيا لحن إلى الغرب/ فإن غرامي بالبريق ولمحه/ وليس غرامي بالأماكن والترب.

عطرها السابح قبل وصولها، كان ذات مرة يتنفسني، وكنت مسحورا بهذا الوجود الجديد لي، وجود بغداد التي خرجت من موتها، من مقابرها ومذابحها، من ركام عشرات السنين من الحروب. قالت لي أول ما دخلت باب البناية شممت رائحة القهوة. قلت لها هي قهوة مغلية بالحب على الطريقة الشامية. غمزتها بعبارتها التي قالتها لي ذات يوم في مطبخ الجريدة. جلست على الأريكة، تحيطها غيمة عطرها الخفيف. جلبت فنجاني قهوة، ووضعتهما على الطاولة الصغيرة أمام الأريكة، وجلبت سجائري والمنفضة، وارتشفت قهوتي وارتشفت سرى قهوتها، ثم أشعلنا سجارتي جيتان رفيع، ثم ألقمتني سرى شفتيها بغتة، وذبنا بعناق صباحي شارك فيه اللسان والشفاه واللعاب، والأنفاس، والذبذبات السرية لجسدين راحا يلتصقان بعضهما ببعض تحت سماء بغداد، وهي تدفق حياتها النابضة في الشقق والشوارع والأجساد والعيون المحدقة نحو شمس خفيفة كانت تشرق خارج مجلسنا على ساحة التحرير وحديقة الأمة وجدارية فائق حسن، والطرق الهاربة شرقا وغربا، شمالا وجنوبا. تحولت سرى إلى رغبة مطلقة، إلى أنوثة بلورية، إلى كائن فرد يبحث عن الخدين. تحولت إلى جرم تائه يسبح في مدار عملاق يطيح بالوجهات، والمسافات، والحسابات.

قلت لها بدلال نتجه إلى الفراش؟ قالت أنت تأمر يا مولاي، قلت لها هيا سيدتي وتاج رأسي، أميرتي القادمة من بساتين العطيفية، نخيلها وهجيرها الصيفي، ورحت أستعيد ألف ليلة وليلة، ليالي ونهارات الصبايا، والجواري، وضاربات الودع، وآخذات الخيرة من الأصابع والحصى، وكنت أعود إلى مقاصف الأعظمية والوزيرية وكرادة مريم والجادرية، ثم أغوص في قرون البساتين

والقيان والخمرة والحجّاب والأمراء والسيّافين. ألتقم فمها، وجيدها، وصدرها، وأصابعها، وزنديها، وإبطيها، وعانتها، وردفيها، ولعابها، وأذنيها، وثقوبها، وأنفها الشبيه بأنف الأميرة البريطانية دايانا. رحت أتنفسها كما لو كانت قطعة الأوكسجين الأخيرة في هذه الأرض.

لقد غابت الزوجة والزوج، الأولاد والبنون، الأقرباء والأصدقاء، الأعراف والتقاليد. كلها غابت في تلك الغرفة الصغيرة، المنزوية في بناية عتيقة من حي البتاوين. غابت الإنفجارات والطقوس، التحولات والنواميس، وراح الإلتحام ينحت له مسارب في هذه الحياة المؤقتة الزائلة، وراح ينحت له لحظات خالدة لن تنمحي في روحينا. مع كل آه، مني ومنها، تتكثف حياتي التي وصلت الخمسين سنة، وتشف وتتوهج، وتتكثف المدن والخمور التي احتسيتها، تتكثف الشوارع والأشجار، البحار والطرق والقطارات، القارات والكواكب، تتكثف في جسد سرى الذي حملته بين يدي ذات نهار شتوي أمام بناء الجريدة.

هنا ساوباولو، هنا منيجيراوس، هنا سواحل البلطيق، هنا سوذهاون الدانماركية، هنا سوزان البولونية وجاوانا، ونامق الملتصق بابنتيه عشتار وعبير، بزوجته ربيعة القادمة من تخوم بوسعيد. هنا الجسدان اللذان يعومان في اللحظة الزمنية الهاربة، ويتمرغان على فراش عتيق، ويصلان إلى لذة ترتفع بقدرية غامضة إلى تخوم المطلق والخالد والعابر للسنين. بعد كل مضاجعة يتمدد الجسدان لصيقين ويبدآن بالبوح، هكذا علمتني السنون، وهكذا راحت سرى تبوح لي بعد أن قطعنا برزخ اللذة بأمان ونجاح دون رقيب. تحولات علاقتها

بسامر، وكيف ابتدأت معجبة، ثم عاشقة، ثم متضايقة، ثم كارهة.

كانت تجربتها مزدوجة هذه المرة، قالت لي قبل شهر إنها تزوجت من مفيد، وهذا اسم زوجها عن حب وعشق دام ثلاث سنوات، حينها كانا يدرسان سوية في كلية الإعلام، ثم بعدها رئيسها في العمل سامر عبد القادر القاطن في حي المعلمين منذ أكثر من ثلاثين سنة. أحببته فعلا، قالت لي سرى ونحن ممددان في عتمة الغرفة، بعد أن عبرنا برزخ اللذة، والإندماج، والعشق، والتوحد، وعشرة الذكورة والأنوثة. كيف يتحول الحب إلى مقت؟ وكيف يتحول العشق إلى كره؟ وكيف نمضي ردحا من حياتنا في وهم؟ كنت فتاة مراهقة أعيش في محلة الداوودي في المنصور حين تخرجت من الإعدادية ودخلت كلية الإعلام. كان ذلك أشبه بالحلم، كل فتاة كانت تحلم أن تكون صحافية لامعة، خاصة وأن عقولنا تشبعت بقصص الأفلام المصرية والصحافيات الناجحات اللواتي يصنعن مجدهن بمطاردة الجريمة والخارجين على القانون.

بعد سنة من الزواج عرفت أن الخيال شيء والواقع شيء آخر. الحب شيء والزواج شيء آخر. أن تعيش مع الشخص الذي تحبه أمر مختلف تماما عن الحب الرومانسي والعشق البعيد، حيث تكون المسافة بين جسدين لا يمكن جسرها. هكذا الحال مع مفيد. بعد شهرين اختلف الرومانس عن واقع المعايشة. حين تنام في السرير ذاته مع شخص غريب، وحين تتقاسم معه الحمام، ووجبة الطعام، وتطل على ملابسه ورائحتها، والجوارب، والقميص، والحذاء، وكل هذه التفاصيل السخيفة من الحياة اليومية. هذا ما بدأت أعانيه مع زوجي مفيد. وكانت سرى تتنفس بصعوبة وهي تبوح لي بقصة

تحول الحب إلى مقت وكره في الحياة الزوجية. ألم أمر أنا بلحظات مشابهة مع ماري؟ ألم يحدثني نادر عن ذات الموضوع مع زوجته البولونية المسماة الباشا؟ كنت أفكر أن سرى تروي هذه التفاصيل من أجل تبرير خيانة زوجها، أو على الأقل لكي ترضي غرورها الأنثوي. ويدي خلال هذا الحديث على فرجها، الفرج الذي أتحف الدنيا بروحين طازجين، بولدين كان الأكبر منهما يبلغ سبع سنوات بالتمام والكمال. فرج سرى صغير، ورطب دائما، ومهيأ للمضاجعة، كما أخبرتني، هي لا تمل من الجنس، وستواصل ممارسته حتى يصبح فرجها اكسباير لا ينفع سوى للتبول.

أعتقد أن الاندماج بين الذكر والأنثى صعب، إن هي إلا حالة الجنس المؤقتة. بعدها يستعيد الذكر والأنثى وجودهما الحقيقي، أي أنهما انسانان لا أكثر. جرمان مختلفان. كل منهما يمتلك كيمياء جسدية تختلف، وذاكرة مغايرة، وتذوق للجمال يصغر أو يكبر حسب كيمياء الجسد تلك. يلتقيان، يتضاجعان، يقذف الرجل حيامنه، تتلقح البويضة، تكبر، تتحول إلى كائن جديد، إلى طفل، طفل مشترك بين كائنين، يحبه الذكر والأنثى بالدرجة ذاتها لأنه يخصهما سوية. هذه هي خدعة الطبيعة. عدا ذلك يعود الكائنان إلى وجودهما المختلف، إلى كونهما بشرين مختلفين في كل شيء، في الفهم، العقل، الذوق، المنطق، الحكمة، الصبر، التأمل، الإندفاع، التواصل، الحكمة. ومن المستحيل أن يكونا على اتفاق. انهما برجان لا يلتقيان، وجبلان راسخان، كل في مكانه، وهذا ما أراه ملائما لوصف الحياة الزوجية. الذكر ذكر والأنثى أنثى ولا يمكن أن يلتقيا. بعد سنوات يمكن للفرد أن يشم بحماس رائحة

الجوارب، وعفونة الملابس الوسخة، وبقايا الأنف التي لا تلتقطها المرآة، والعادات البذيئة للإنسان يصبح من الصعب اخفاءها بعد سنوات.

الزواج معبر، تقول سرى، إلى انتاج جيل جديد من البشر يعيش عقودا إضافية بعدنا. ربما ينطبق هذا على العشيق، تقول سرى، وهي تنام على صدري لتسمع دقات قلبي. كان سامر أيقونة جميلة في بداية العلاقة لكن تلك الأيقونة سرعان ما صدئت وعتقت، وتآكلت بمضي الوقت. هل ينطبق ذلك عليك؟ سألتني سرى وهي تحدق إلي بعينيها الحادتين المائلتين إلى اللون الأصفر، وأجبتها بصراحة: أجل هو قانون ينطبق على الجميع مثل الموت. كانت عينا سرى رطبتين، وحين سألتها عن سبب بكائها لم تفصح لي عن شيء. لم أستطع تخمين سبب بكائها، فمن تجربتي السابقة أن المرأة يمكن أن تبدأ البكاء لأنها تذكرت موقفا حصل قبل عشرات السنين أو ربما ذكرتها كلمة من حوار سريع عاشته في ماضيها الغامض. لا يتعلق بكاء المرأة باللحظة الحاضرة، وهذا ينطبق على سرى بكل تأكيد.

(١٦)

عادة ما تخلف سرى بعد ذهابها فراغا هائلا في روحي. حالة انقطاع الفرع عن الأصل، وهذا ما يجعلني أعيش في وحدة روحية فريدة. لا أرغب بالنهوض من الفراش، وتتجمد عيناي على ما ينثه الشباك من ضوء. في تلك اللحظات أتحول إلى صفر بشري، ورغم أنني أفسره بهشاشتي الكامنة، لكن ما يحصل هو هذا. أنسحب إلى قوقعتي مثل حلزون ربيعي. انتبهت إلى ضوء خفيف يكشف الطاولة والكرسي وكومبيوتري الشخصي، كنت أراه يتلاشى لحظة بعد أخرى. الكهرباء مقطوعة كالعادة، فجلبت ثلاث شمعات من المطبخ اشتريتها البارحة وأشعلت واحدة في المطبخ وضعتها على إفريز النافذة، والأخرى وضعتها على الطاولة، والثالثة في غرفة النوم. لقائي بسرى استنزفني بقوة.

كانت غرفة النوم مكتظة بمجلات وملابس وصحف بغدادية وأغطية تركت منذ الشتاء الفائت، وفراشي كان مبعثرا كما تركته بعد رحيل سرى. أضواء الشموع تتراقص وترقص الأشياء وظلالها حولي، وقدت طريقي إلى الثلاجة فأخرجت قنينة بيرة توبورغ وفتحتها بأسناني، وهي عادة تعودتها منذ شبابي. البيرة التوبورغ، ولقائي الأول مع مراد قامشلو، حين أقامت شركة التوبورغ تلك معرضا فنيا في

واحد من مخازنها العتيقة. مع الرشفات المتتالية للسائل الأصفر بنكهته الحادة شعرت بسعادة غامرة، أنا حي من جديد في هذا المكان، وبغداد تلوح لي من الشباك العريض كما لو كانت مدينة غريبة.

أضواء البتاوين، وساحة التحرير، والشيخ عمر، وتلك العمارات العالية تتغامز وكأنها قادمة من زمن بعيد. جاءت الكهرباء الوطنية فأشعلت الأضوية كافة وشغلت الكومبيوتر وتناولت قنينة ثانية من البيرة، وشعرت بمتعة الدخان وأنا أنفثه من صدري إلى فضاء بغداد خارج النافذة. هذه لحظات طالما حلمت بمشاهدتها، أشباح البنايات، الأصوات الخافتة القادمة من بعيد لسيارات ونباح كلاب. هدير سحري لطائرة كانت تمر في زاوية ما من الأفق. تذكرت نامق ونادر ومراد قامشلو، وتلك الأيام التي مضت بعيدا مثل غيرها، وأحسست أنني أتحول شيئا فشيئا إلى انسان متكيف، لم تعد الأمكنة تهمه كثيرا. لم يعد ثمة فرق بين العيش في كوبنهاغن أو بغداد، فالقضية الأساسية هي نوع الهدف، والدور الذي يقوم به الشخص. أكيد هم مجتمعون في هذه الساعة بشقة نادر، يحتسون النبيذ الفرنسي وينتظرون نضوج الفروج الذي وضعوه في الفرن مع البطاطا والبصل والطماطم، فهي الأكلة المفضلة في الويكيند. وربما يتحدثون عني ومغامرتي هذه.

رن هاتفي الجوال وكانت سرى. قالت إنها استمتعت كثيرا في هذا اليوم، قالت إنها لم تستطع النظر إلى زوجها فأخذت حماما ساخنا ثم مضت مباشرة إلى الفراش. أخبرتها بصدق أنني بدأت أحبها، أما لماذا وكيف فلا أستطيع معرفة ذلك. قالت إنها تتصل بي من تحت الشرشف خوف أن يسمعها زوجها فهو يسهر مع الأولاد

في الصالون. قلت لها بتردد ألا تفكرين بالمجيء غدا إلى هنا؟ قالت أخاف أن يكبسنا سامر فهو أحيانا يمر على البناية قبل أن يأتي إلى الجريدة. وجدت العذر مقبولا خاصة وسامر وثق بي وجعلني أبقى هنا وأتصرف بالمكان كما لو أنه ملكي. قبل أن تغلق الهاتف أمطرتني بقبل كثيرة، أحسست بها كما لو أنها حقيقية. تلمست شفتي بسعادة. وضعت الكومبيوتر على ملف لأغاني فيروز، وانغمرت بتأملاتي العميقة، محدقا عبر الزمن إلى الشباك. الشباك المنفتح على الجهات المظلمة والمضيئة، على القتلة والأبرياء، على النساء والرجال. لم يعد هناك ما يهم خارج لحظتي، فأنا أبحر في عهود من الزمن، وفي أرصفة مدن وحانات وبحار وأشخاص عرفتهم.

صوت فيروز ينقلني منذ فترة الشباب إلى عالمي الداخلي، ومع شراب البيرة الذي أرتشفه علبة بعد أخرى، من ثلاجتي المحشورة في هذه البناية الشبحية، كانت روحي تحلق في الماضي وتمجد الحاضر، ولا تخاف من المستقبل. حياة البرازيل ظلت في رأسي مثل شبح. تغريد طائر البتنفي، الفراشات الليلية، الكنيسة الكاثوليكية المعلقة على الجبل، الأقنعة الأفريقية، وعواصف ساوباولو المطرية. رحلتي إلى البرازيل كانت أكبر نقلة وتحول في وعيي. ذكرت نجمة في قصتها أنها لا تريدني أبا. على ضفاف دامهوسن تتجول العجائز بعكاكيز من خشب الجوز البري، وتتساقط الأوراق في الخريف على المياه الراكدة، والبط البري يلتقط فتاة الخبز الأسود من يد المتسكعين. وكاتادرائية كوبنهاغن تقرع أجراسها احتفاء بيوم الأحد. ويوم آخر يمضي. سمعت صوت ديك بعيد ربما جاءني من منطقة الصدرية أو الشيخ عمر أو الفضل، إلا أنه ذكرني بعمر الخيام، وشواطئ البلطيق وساعات السهر في جبهات القتال قبل عقدين،

ثلاثة، وبأشباح من قطنوا هذه الشقة قبلي.

ذكرني بليالي كابريوفا وميتيجيراوس، وذكرني بمساءات بحيرة دامهوسن التي نسمع صياح ديوكها من المنازل القريبة. صياح ديوك المدن والقرى تتشابه، فهي بصمة للحياة التي لم نودعها بعد. في الحقيقة نبرة ديك البتاوين القادم من بيت ما، لا يختلف عن نبرة ديك أخت ماري في بلدة كابريوفا الذي سمعته ذات مرة في فجر برازيلي. قضيت على آخر علبة من البيرة، وأيقنت أن سرى نامت الآن ولن تتصل بي. لقد عبر الوقت منتصف الليل، نامت بغداد وانطفأ الشعاع البعيد القادم من مئذنة ما من عمارة ما، من نجمة تحج إلى المغيب في الجهة الغربية. اكتمل يومي وختمته بأشياء كثيرة، قلت لنفسي، وأنا أنظر إلى الموبايل الراقد على خشب الطاولة البني.

قمت ونظفت أسناني، وغسلت وجهي، ولملمت فراشي في الغرفة. عدلت جاكيتي الفرو كي أتخذه مخدة لي، لكنني شعرت بهاجس ثقيل ينغزني في صدري، يدفعني إلى الذهاب إلى الكومبيوتر. لم أفتح رسائلي على الايميل اليوم، ووجدتها فكرة صائبة أن أرى رسائل جديدة. الوقت لن يستغرق سوى دقائق، أقرأ رسائلي ثم أغلق الكومبيوتر وأنام قبل ان تنطفئ الكهرباء الوطنية. بادرت إلى تفقد الشمعات التي أوقدتها في العشية واكتشفت أنني أطفأتها ما ان جاءت الكهرباء. دخلت إلى الانترنيت وسجلت كلمة السر ثم مضيت إلى رسائلي. وقعت عيني فجأة على كلمة عاجل. كانت مكررة ثلاث مرات. المرسل كان نادر، أدركت أن حدثا جللا قد حصل. هل ماتت كارين؟ هل انتحرت؟ هل غادر كوبنهاغن إلى السجن؟ هل تشاجر نامق ويوسف في إحدى الجلسات إثر نقاش عن المقاومة والإحتلال،

ووصلت المعركة إلى استخدام السكاكين؟ هل مات مراد قامشلو وماتت معه جريدة الخبر ومشروعنا الكوني المسمى أرشيف العنف؟

كل تلك الهواجس دارت في رأسي بأقل من دقيقة. خلال تلك الدقيقة كان عقلي يقلب الاحتمالات يمينا ويسارا، وكنت مترددا وخائفا من فتح الرسالة. هناك أحداث تعصف بحياتك وتزلزلها رغما عنك، حتى لو كانت بعيدة مئات، وآلاف الكيلومترات. ما قرأته في الرسالة زلزل حياتي رغم أنه حدث يبعد عني أكثر من ثلاثة آلاف كيلو متر، أي المسافة بين شارع السعدون ومدينة كوبنهاغن. لقد مات نامق. كتب نادر. في هذا الصباح مات نامق، ونحن نتأهب لدفنه في مقبرة فالبي، وسط العاصمة. لم أصدق الخبر أول مرة. وقفت وسط الصالون أنظر في الليل، أنظر في ثلاثين سنة عرفت فيها نامق، الدموع جامدة في عيني، وعقلي لا يفقه سوى كلمة الموت. كلا نامق لم يمت بالنسبة لي، لم أر قبره في فالبي، ولم أر سحنته الكامدة وشحوبه وصدره الهامد. هذا كل ما كتبه نادر في رسالته الإنترنيتية. لكنني لم أصدق الخبر، لم أهضمه، فنامق بالنسبة لي ما زال حيا، مازالت عيناه التتريتان تضحكان لي، وما زالت السنون التي عشناها معا تتلاصف من بعيد، من مسافة ثلاثة آلاف ميل مثل ذرذرات النور القادمة من أمواج دجلة التي عشنا بريقها اليوم أنا وسرى.

لا، نامق لم يمت. إنه يعيش في داخلي. هو ملف سميك يعيش في داخلي. هو مثل ذلك الملف الذي أعطتني إياه سرى في الفلاش الأسود، الصغير، وضعته على سطح مكتب الكومبيوتر ونسيته عدة أيام. فكرت بالحزن الذي سيغمر ابنتيه عشتار وعبير، وبالدموع المسكوبة من عيني ربيعة السوداوين، وبالأرض الباردة التي سيرقد

فيها رقدته الأبدية. كيف لي أن أنام وقد رحل خلي وصاحبي. تذكرت رثاء جلجامش لصديقه أنكيدو. جلست إلى طاولة الكتابة، كي أهرب من نفسي وذكرياتي. وضعت أغنية فيروز الملائكية عن الجمعة الحزينة وبدأت أبكي. لا أعرف كم كانت الساعة حين توقفت عن البكاء وكانت أغنية فيروز قد صمتت. جذب نظري ملف سرى فوجدتها فرصة كي انتقل إلى مستوى آخر من الحضور. لا أدري إن كانت سرى كتبت التحقيق هذا بنفسها أم أنها جمعته من مصادر مختلفة. سأسلها غدا عن الموضوع.

في الحقيقة وجدت ملفين الأول عن انفجار ساحة الطيران والثاني عن العنف ضد النساء.

كتبت سرى، في ملف انفجار الساحة متقمصة دور شاهد عيان: أقف تحت جدارية فائق حسن، أتأمل فيها، وأنظر إلى حديقة الأمة تحتها، الحديقة الممتدة بين الجدارية وساحة التحرير حيث تنتصب جدارية أخرى أصبحت من رموز بغداد هي جدارية الفنان جواد سليم. في تقارير سي أن أن، وفي تقارير العربية، والجزيرة، والبي بي سي، ما أن تتضمن نشرة الأخبار حدثا عن العراق حتى يطل على الشاشة رمز بغداد المعروف جدارية جواد سليم.

رموز الجدارية تنتمي إلى مرحلة قديمة، مرحلة قد درجت عليها عشرات السنين. الجندي، والثور المجنح، والحالم بالحرية، والنقابي، وابن الشعب البسيط الذي يدفع عربة لبيع اللبلبي أو الكبة أو الشلغم، والتراث القديم الذي ضم النواعير وبيوت القصب السومرية والنخلة البصرية والجمل الصحراوي ومم وزين الكردية وكاوه الحداد وممالح شط العرب وسواقي أبي الخصيب ومنافث

الغاز المحترق في كركوك، وهي تداعيات تستحضرها جدارية جواد سليم بوضوح. الإنفجار حدث أمام جدارية أخرى، هي جدارية فائق حسن. أرى فيها حمامات أربعا وكتب عنها شاعر معروف حين قال: تطير الحمامات في ساحة الطيران، والبنادق تتبعها، وتطير الحمامات، وكان يقصد حمام السماء في الأحياء المحيطة بساحة الطيران، البتاوين، والشيخ عمر، والسنك، وفضاء دجلة عند مدخل جسر الجمهورية، حيث تطير أسراب الحمام في السماء عصرا، لتضفي نكهة حلمية على وجود عابر.

الشوارع من حولي تمتلئ بالبشر، من كل صنف ولون. على يميني مدخل شارع الشيخ عمر، العربات المحملة بالأقمشة والبذلات والفواكه والعصائر الطازجة، وعلى يميني عند مدخل شارع النضال تتوزع محلات بيع المواد المستخدمة في البناء، ويمكنني رؤية القصر الأبيض وعمارات شارع النضال وقد بدأت ملاهيه تعود إلى سابق عهدها. دائما هناك ازدحام في بغداد، ودائما هناك فقر في العاصمة، وفي البلد كله، ودائما هناك جيل شاب يريد أن يبني حياته ويعيل أسرته، وكنت واقفة تحت جدارية فائق حسن، صحافية تريد أن تكتب ما هو مميز، وتلتقط غرائب هذا المكان، بعد عشرات السنين من الحروب والهجرات والقتل والوشايات والقصص التي أفرزها واقع عشناه مذ كنا صغارا.

الساعة لم تتجاوز العاشرة، ما الذي جلبني إلى هنا، هل هي المصادفة أم التقرير الذي سأكتبه إلى جريدة الخبر الدانماركية؟ نعيش اليوم في أوقات صعبة، لذلك فأنا الصحافية سرى محمد عبد الواحد أقر وأعترف أننا لم نعد نعرف ما الذي يجري في هذا البلد.

الشيء البارز أمامنا مثل نشرة ضوئية هو القتل، والدمار، والهجرات. في الصباح، عادة ما يأتي المقاولون إلى هذا المكان للبحث عن عمال، والعمال المياومون عادة ما يقفون عند مدخل شارع النضال انتظارا لمن يحتاج لأيد عاملة في أحياء بغداد. في اللحظة التي حدث فيها الإنفجار هل كنت أفكر بحياتي الخاصة وما رافقها من التباسات وتشظيات حول الحب، والجنس، والوفاء، والوجود، أم كنت أتامل في برج المطعم التركي القائم على كتف جسر الجمهورية، وقيل إنه ملوث بمواد مشعة؟ وأسراب الحمام التي تطير في السماء محلقة في المساحة الشاسعة فوق المنطقة الخضراء، ملعب الشعب، شارع أبي نؤاس، ساحة الفردوس، منطقة الشورجة.

أحيانا يمر الفرد في غفلة وجودية أثناء حصول الكوارث، وهذا على ما يبدو ما حصل ساعة الإنفجار. عليك أن تمتلك حواسك في لحظة مثل هذه. رغم أنني عشت طوال عمري في العراق، لم أغادره ولا ثانية واحدة، وعشت الحرب العراقية الإيرانية، والقصف المتبادل للمدن، إلا أنني أعترف حقا بأنني حتى بعد دخول العسكر الأميركي إلى شوارعنا، ومنطقتي الداوودي بالذات، وبقية العاصمة، لم أعش إلا هذه المرة في وسط انفجار بهذا الحجم.

من يتخيل انفجارا؟ مرات أعتقد أن الحروب التي قرأنا عنها كالحرب العالمية الأولى والثانية لم تقع، كما لم تقع الحرب الكورية، والفيتنامية، والكوبية، وحرب حزيران في السابع والستين بين العرب وإسرائيل، وحرب لبنان، وغيرها وغيرها من حروب، لأنني لم أعشها، لم أسمع صوت مدافعها، لم أكن في خنادقها. حتى الحرب بين إيران والعراق كانت حلما لفتاة مثلي تعيش في

رفاهية نسبية، فلا يمكن لي تصور معاناة الجنود الذين عاشوا في الخنادق الأمامية على الجبهات، ولا يمكن لي شم رائحة الموتى الذين سقطوا في الأرض الحرام سواء من الإيرانيين أو العراقيين، دون أن يستطيع أحد جرهم إلى هذا الطرف أو ذاك، وتعفنوا تحت أشعة شمس لاهبة، أو ضمروا في تراب ملحي وفاحت روائحهم حتى في الشتاء البارد الذي يبعث المطر على الجبهات. كلا، مثل هذا الإنفجار لم أسمع به في حياتي المهنية والوجودية، وكأنه سحر هابط من سماء لا يعرفها البشر.

أسوأ ما يعاش في المناطق الساخنة، المضطربة، الواقفة على كف عفريت، هو صوت الإنفجارات، سواء كان ذلك صاروخا أو قنبلة أو تفجيرا بالريموت كونترول لعبوة ناسفة أو سيارة مفخخة تحمل عشرات، وربما مئات الكيلوات من مادة التي أن تي، والسي فور، أو لا أدري من مواد متفجرة هيئت بحقد دفين لقتل الكائن الناطق. أنا سرى، التي تكره هذا المجتمع المنافق، وقعت دون أن أدري تحت مظلة انفجار ساحة الطيران، أقف متأملة في الجدارية. أنا تحت قبة الإنفجار وعلي أن أروي لكم ما أحسسته ورأيته وسمعته وسط ذلك اليوم الكئيب، عند صباح ربيعي غائم بعض الشيء. لا تصدقون إن قلت لكم أنني رأيت مثل منظر حلمي، رؤوسا ترتفع إلى السماء، وغبرة من بودرة السمنت الأبيض تتصاعد إلى الأعلى، وأكياسا سود كانت تستخدم لتوضيب البضاعة تنقذف إلى ذبالات أشجار اليوكالبتوس تحت جسر الساحة، وعناقيد من الموز تنفدر بشكل مقبب بتأثير العصف وهو ينزلق إلى النوافذ المفتوحة، ويرتطم بالأعمدة الإسمنتية، ويتناثر على أسفلت الشوارع المحيطة بمركز الإنفجار. لقد قرأت عن انفجارات سابقة في

عاصمتنا الحبيبة هذه، كانفجار النعيرية، ووزارة الخارجية، وانفجار سوق الصدرية، وساحة الأندلس قرب فندق السدير الذي كان مقرا للقوات الأميركية، لكنني لم أقرأ حدثا شبيها بالحدث الذي عشته اليوم صباحا في ساحة الطيران.

ثم تستمر سرى في سرد مشاهداتها عن الإنفجار وتذكر حادثة سرقة النقود من جيوب الضحايا أو سرقة مصاغات النساء من أشخاص جاءوا من المناطق المجاورة لإسعاف الجرحى أو جمع أشلاء الموتى. وما لفت انتباهي أنها كانت تتقمص دور الشاهد على الحدث، رغم أنها لم تصل إلى هناك إلا بعد ساعة تقريبا، حين انتظرتها أنا في ذلك الصباح الكئيب بمقهى السودانيين. التقرير في كل الأحوال يصلح كي يكون وثيقة عيانية ترسل إلى مراد قامشلو. لكن وسط كل تلك المفارقات وعالم سرى الملون، والمخيف في الآن ذاته، فموت نامق سبنسر شكل لي صدمة، وضعني بموجهة المرآة، مرآة السنوات الخمسين، ولم أعد ذلك الشخص عينه الذي جاء لكتابة أرشيف العنف. الموت قضية أخرى. إنه عصف معنوي. أنا أمام موت نامق، موت حياة عرفتها عقودا من السنين.

كل يوم أجلس محدقا في نافذة المكتب إلى سماء بغداد مفكرا متأملا بالموت. هذه حالة جديدة علي، أي التفكير بالموت بهذا العمق، والجدية، والروح الوجودية الباحثة عن سبب وجيه للعيش، أو سبب وجيه للموت. أو لماذا جئنا إلى الدنيا، ولماذا نعيش عقودا ثم نموت كي ننطلق إلى رحلة مجهولة لم يعرف عنها أحد خبرا، منذ بداية الخليقة وحتى اللحظة؟

الموت حالة نعيشها كل ثانية، كل رفة جناح لذبابة تطير فوق

لحوم محلة الصدرية المنثورة على الرصيف. كل طيران لحمامة تحلق، خائفة، فوق حديقة الأمة. كلما نزلت صباحا إلى شارع السعدون أرى الأموات يمرون إلى مقابرهم بتوابيتهم. ينقلون مودعين بحزن شفيف. الموت معنا سواء كنا في جبال كردستان أو جبال فرنسا، سواء كنا في شارع نوربرو أو في شارع أبي نؤاس المزدان بالنوارس، وأشجار النبك، والتوت، وبقايا الورود الجوري. لم أفكر بالموت كثيرا حتى وصل عمري الخمسين، ربما لأنني لم أفقد شخصا عزيزا علي حتى ذلك التاريخ. لكن منذ ان فقدت أخي كمال في ذلك الإنفجار الرهيب، وكنت وقتها في شقة نادر بدأ الموت يقترب من خيالي، أجسده، أحاوره، أقلبه يمينا ويسارا وكأنه حبيبة في طريقها إلى الرحيل. هو مزاج سوداوي على أية حال. قد تكون قصص الحب محاولة للهروب منه.

في لحظات الموت كنت عادة ما أضع نفسي في موقف اللحظة تلك. لم أعشها مع كمال فقط، بل عشتها مع نامق أيضا. تخيلت نفسي أعاني مثله سكرات الموت. قال لي نادر إنهم دفنوه في مقبرة فالبي. شيعه مئات الأشخاص في كوبنهاغن، ودفنوه في المقبرة الليبرالية قرب قبر الفنانة المسرحية، ووضعوا حجرا على قبره كتبوا عليه تاريخ ميلاده وتاريخ موته، وكالعادة كتبوا الآية القرآنية: كل نفس ذائقة الموت. نعم كل نفس ذائقة الموت، هذا ما صرت أعيشه يوميا. هذه الحقيقة غابت عني طوال أربعين سنة، منذ أن وعيت على الحياة. غابت عني لأنني لم أكن أفكر بالموت، لم أفكر بالموت وأنا أعيش الحرب، كما لم أفكر بها وأنا أنتقل إلى الجبال وأشارك المقاتلين فصل بناء المقرات والحراسات الليلية وترصد ربايا الجيش في قمم الجبال وعند الوديان. كما لم أفكر في الموت

وأنا أغامر بالمسير بين القرى والقصبات في كردستان مع نامق وسط بيئة ثلجية للوصول إلى مدينة ايرانية هربا من الموت. رغم أنني كنت أهرب من الموت الا أنني لم أكن أفكر به، لم يكن هاجسا يلوث حياتي كما هو الآن.

يبدو أن نامق سبنسر تحسس الموت حين كان ينظر إلى وجه ابنته عشتار. كان يدرك أنها ستموت قبله، إذ كشف الفحص اصابتها باللوكيميا، كنت لم أزل في كوبنهاغن حين عرف نامق سر مرض عشتار. يا إلهي، نحن نعيش في دائرة الموت المحكمة قلت لنفسي آنذاك، وأنا أمشي مع نامق حين استلم نتائج الفحص من مستشفى كوبنهاغن الوطني. منذ تلك اللحظة، لحظة معرفة الحقيقة، بدأ نامق، كما لاحظنا جميعا، يدخل في دوامة العبث، الإنتحار البطيء، الممنهج، فتحولت حياته إلى إدمان متواصل على الكحول، والدخان، واليأس، والنفور من الحياة. أتذكر نهمه للبيرة في مهرجان توبورغ، وكيف يشرب بطريقة شخص قادم إلى الإنتحار. بالنسبة لي لم يعد نامق الذي عرفته طوال أكثر من عقدين من الزمن، في بغداد، وجبال كردستان، ومدن ايران، ودمشق، وكوبنهاغن، نامق أصبح مغناطيسا جاذبا للموت، ممجدا له، عازما على مغادرة الحياة بأقصى سرعة ممكنة.

ليال عديدة يحضر نامق إلى رأسي قبل أن أنام. دائما ما أنعطف إلى موته. أتأمل بعشرات السنين، بعشرات المدن، بعشرات الحوارات والليالي والأصدقاء والمناسبات والنساء والشوارع والبيوت التي عرفناها سوية، وعشناها سوية. وذكر لي نادر عن زوجته ربيعة وكيف انكبت على التابوت تريد أن تدفن معه. وتخيلت أشجار السنط العالية، والسرو، والجوز البري وهي تنيخ بأغصانها

على نامق في مقبرة فالبي. مقبرة فالبي لا تبعد كثيرا عن بحيرة دامهوسن. موت نامق نبهني حقيقة إلى فلسفة الموت التي يواجهها كل فرد في هذه الدنيا. حين كان عمري في العشرينيات والثلاثينيات وحتى الأربعينيات لم يكن الموت يخطر في ذهني. كنت أحسه عالما ضبابيا بعيدا عني. أمامي خمسون سنة من الحياة على أقل تقدير. لكن بموت أشخاص مثل أخي كمال، ونامق، وجدي، صرت أتأمل بالموت كما لو كان سرا غامضا علي استجلاؤه ومعرفة خباياه. موت صديقي نامق لم يكن حدثا عابرا. أحسست وكأنني اقتطع ثلاثين سنة من حياتي وأرسلها إلى القبر. نامق لم يعد من عالمنا، بعد أن غادرت روحه في ذلك الصباح وتركت جسده يخضع إلى قانون هذا الوجود الأبدي. التحلل يوما بعد آخر، ثم التحول إلى ذرات من التراب. جسده لن يبنى ثانية من خيرات هذه الأرض، لن يتنفس هواءنا ولن يأكل من خبزنا وتمرنا وعنبنا ولحومنا، أصبح وجوده في عالم حلمي، مثلما ينطبق ذلك على البشرية جميعا. ثلاثون سنة وحياتي مرتبطة بنامق. ذكرياتي جلها تصب في اسمه، والقصص التي عشتها والمدن التي رأيتها كلها على علاقة بذلك الرجل الذي مات.

اللحم وهو يتحلل، الملامح وهي تتلاشى يوما بعد آخر، والذكر الذي يبدأ بالدخول إلى مملكة النسيان، سنة وسنتين، عقدا فعقدين، قرنا فقرنين، ثم تنغلق الدائرة على الشخص، فلا يعود يتذكره أحد. الموت هو النسيان المطلق. وهو مصير ناعم مكتوب على الجميع. لا مهرب. كل من عليها فان. ما هي الحكمة من وراء ذلك، وما هي العبرة في أن نأتي إلى هذا الوجود ثم نعيش عقودا ثم نموت وننسى بعد سنوات أو قرون؟ كررت لسرى أكثر من مرة قناعتي بأنها

أول امرأة أعشقها قبل أن أضاجعها، وهذه حقيقة. الحقيقة التي وصلت إليها منذ خروجي مع نامق من متاهة تلك الجبال. قد يكون الحب محاولة للهروب من الموت، فالحب بين ذكر وأنثى سيولد حسب قانون الطبيعة الأزلي حياة جديدة. لا أتصور العلاقة بين المرأة والرجل، دون وجود رابط جسدي. رابط هو في الحقيقة يقود إلى رؤية خصوصية الجسد، جسد الآخر، ما يدعونه بالحميمية، رؤية العضو الحميمي، تنفس رائحة الجسد، التواصل مع لغة الكائن دون أقنعة، ومنظفات، ووسائل زينة. موت نامق جعلني أندفع بقوة إلى عالم سرى، روحها وجسدها وذكرياتها. وكانت المقدمة تلك الرائحة الخفيفة، الأنثوية، التي تشبعت بها وأنا أحملها إلى حوض سيارة البرنس أمام مقر الجريدة حين غابت عن الوعي.

تلك الرائحة كانت المقدمة لعشق سرى، ويبدو أن العشق نظرة، أو رائحة، أو لمسة، أو كلمة، ألم يقل الشاعر قديما والأذن تعشق قبل العين أحيانا؟ التبس العشق لسرى مع حياتي في بغداد، حتى لم أعد أميز بين هذا وذاك، كما يقول الفلاسفة. أرشيف العنف بقصصه وحكاياته وصوره التي تلتقطها سرى بكاميرتها النوكيا، تداخل مع عين سرى، وضحكة سرى، وتعليقات سرى. إن لم أصور الإنفجار مع سرى لا أعتبره قد حدث. وإن لم أستلم قصة العنف الممارس في السجون ضد النساء والرجال لا أعتبره حاصلا البتة. صارت الحياة تعبر من جسد سرى وتصل إلي. غير هذا الممر لا حياة ثمة لشخصي.

لا أبالغ بالقول إنها اختلطت بالمخدة، والشرشف، وحتى برائحة الكباب الذي أتناوله عند صاحب المطعم أمام باب البناية.

(١٧)

لا بد أن أخرج من شرنقة سرى، وهيمنتها على عقلي بهذا الهوس غير المفهوم، فكرت مع نفسي بعمق، وبقائي بين أربعة جدران، في مكتب تكوين، هو ما يضعني في مدار لوامسها التي لا تعد.

قررت أن أزور صديقي سنان، الشاعر الذي هجر عمله في تصحيح المقالات بسبب ادمانه على الكحول. أخبرني سامر أنه سأل عني كثيرا، وهو يعيش في عزلة مطبقة. يعيش في سريره فقط قال سامر. اعتزل الحياة بصرامة، وكأنه ما عاد يفقه ما يدور حوله. زرته مرة واحدة منذ عودتي، وأحسست أنه في طريقه إلى الزوال من مملكة هذا العالم. فعلا وجدته في سريره على الصورة ذاتها التي رسمها سامر. حتى لم يبادر إلى النهوض لفتح الباب.

حين طرقت الباب صاح بصوت واهن: أدخل فدخلت. أحيانا يتحول شخص ما إلى حشرة عملاقة، وهو ما يذكرني برواية كافكا الإنسان الصرصار، نتيجة لفقدان الإرادة الذاتية، أو بسبب الظروف القاتلة التي لا تعود تتيح خيارا بديلا. عندها يلتف الشخص إلى نفسه وخيالاته وأوهامه وكسله البدني والروحي لينتهي مشلولا ومقعدا. لا يعود ينتظر شيئا من الوجود، والماضي يصير واحة

للعيش. هكذا وجدت صديقي سنان. وجدته منطرحا في السرير، الأغطية كالحة، والمخدات متسخة لم تغسل منذ سنين، والأوراق المتسخة المخربشة تنتشر تحت السرير وبين أواني الطبخ وتحت الكراسي المخلعة التي جلست على واحدة منها جنب النافذة.

هناك بقايا معلبات متعفنة منتشرة على سطح الطاولة التي يحتلها طباخ غاز عتيق بعين واحدة. أعقاب السجائر تحيط بمنفضة ممتلئة، ورائحة العفن تترسب على السرير والطاولة والكراسي والملابس العتيقة المبعثرة في كل مكان. بعد أن سألني عن أحوالي وكيف أعيش في بغداد شرحت له باختصار عن مهمتي في جمع مادة لأرشيف العنف الذي نشتغل عليه. لم يكن مهتما كثيرا لما أقوله وكان يقفز من حديث إلى آخر، وضمن ما جذب انتباهي هو كلامه عن سامر، والمتعة التي يعيشها بعلاقته الخاصة مع سرى، وكيف أنها أعادت له شبابه. لكنه قال مستدركا، إنها ستضيعه، إذا ما تابع هوسه بها، ستقضي على عائلته وعمله، تلك المرأة اللعوب كما قال، التي لا ترتدع عن إقامة أي علاقة مع رجل إن أعجبت به. هي نتاج لزمننا الفج والمريض قال، رغم أننا جميعا نحمل بذرة المرض ذاك. كان يرتشف كأس عرق زحلة، ويمج سيكارته بعمق، وعيناه تتنقلان بيني وبين خزانة الملابس المهترئة المخلعة الخشب، كما لو كان يخاطب شخصا ثانيا يقف هناك. لماذا لا تعود إلى العمل؟ سألته وأنا اشعر بالغضب على الحالة التي وصل إليها. لقد فقدت حماسي، ولم تعد هناك طاقة في بدني، قال وهو يضع سيجارته بين الإصبع البنصر والوسط، في يده المعوقة التي ورثت عوقها من الحرب العراقية الإيرانية.

كان سنان يخدم في تلك الحرب جندي مدفعية في قاطع البصرة، ومزقت شظية طائشة أعصاب يده وأماتت الحركة فيها.

كيف تشتري الطعام والدخان والمشروب إذن؟ سألته بصوت حزين. قال إن أخاه يدفع له أجور الغرفة ويوفر له الضروريات، كما يساعده سامر بين الحين والآخر. قال إنه لم يعد يقرأ، عيناه لا تسعفانه في عتمة المكان، إما الشعر فيكتبه بين الحين والآخر، وعند الفجر أغلب الأحيان، ثم أراني شدة من الأوراق أي ٤ مخربشة بقلم حبر ناشف. قال يمكن أن تصنع ديوانا شعريا لكن من أين له بالناشر الذي يقبل طبعها؟

صمت طويل جعلني أتخيل سنان جثة ترقد في سرير عتيق ذي أغطية موشاة بالدسم والدخان والعرق الجسدي، وقد سمعت من سامر أن أغلب الأصدقاء هجروه، وليس هناك سوى عاهرة تعرج عليه مرة في الأسبوع تهتم به وربما تضاجعه شفقة عليه. لقد عرفته قبل أن يصل إلى هذا الدرك من الحياة، ووجدت في غرفته آنذاك فسحة من الرقة، والشاعرية، والتعامل الإنساني.

هجست أن سنان يحس بالإحراج أمامي، كما لو كان آسفا لرؤيتي إياه على هذا الحال، بعد أن تلاشت من تعابيره كبرياء الشاعر التي طالما تجلت لنا خلال سهراتنا سوية، أو لقاءاتنا العابرة في السنوات الماضية. كما لو كان يأنف من نكوصه إلى هذا القاع البشري الذي تردى إليه مسلوب الإرادة، ذليلا تحت وطأة الحاجة.

قال لي تلفونه الموبايل لا يعمل إذ لم يعد لديه رصيد، وهو مقطوع عن العالم الخارجي منذ أسبوع. يفيق صباحا بعد نوم متقطع، ينزل إلى حديقة الأمة وأسواقها، يشتري قنينة عرق زحلة،

ولبنا رائبا، وخبزا، وقليلا من الزيتون، وسيخين من الكباب. وعلبتين من سجائر جيتان، ثم يعود عبر الدرج الضيق المتآكل الدرجات، المتسخ طوال السنة، إلى حجرته، ويصنع لنفسه كأس من العرق، ويسافر في بحر رأسه منذ الطفولة حتى اللحظة التي هو فيها.

قال إن واحدا من أسباب بقائه المتواصل في الغرفة هو أنه لا يريد أن يموت بسيارة مفخخة أو تبادل لإطلاق نارٍ، كلما بقي الشخص بين أربعة جدران يكون حظه أوفر في الحياة. هذا ما وصلت إليه بغداد قال وهو يحدق إلى نقطة غامضة في الشباك المطل على الزقاق الجانبي. خلاص، قال وهو يتأفف ويتجرع رشفة من الكأس، لا أمل يا كلكامش، إن الحياة التي تبغي لن تجد.

ورأيت على الضوء الشحيح التماعة ضئيلة لدمعة تكاد تسيل على خديه الضامرين، فقمت من كرسيي وقبلته في جبينه، واستدرت عنه قليلا، وأخرجت ورقة من فئة الخمسة والعشرين ألف دينار وضعتها تحت المخدة، دون أن يبدي أي رد فعل حول ما قمت به.

قلت له سنان سأزورك ثانية مرة أخرى، فلدي الآن عمل أود انجازه في مكتب تكوين.

جاوبني بإيماءات صغيرة من رأسه، وحاول النهوض من الفراش لتوديعي لكنني رفضت.

خرجت هاربا، واختصرت طريقي من منطقة القصر الأبيض. حيث يسكن سنان، نحو منطقة البتاوين، مجتازا كراجات تصليح السيارات، ومحلات تبديل الدهن، والمطاعم الرخيصة التي تبيع

لكبة والمقالي والفلافل. تعابير البشر ثقيلة وقاسية، وأمواج العنف لمخفي تتلاطم على حفر الشوارع ونداءات الباعة وكان رأسي يفور بالأسئلة. هل يمكن لي أن أصل يوما إلى مصير مثل ذاك؟ هل هي الظروف القاتلة التي تعيشها بغداد هي ما أوصلت سنان وأشباهه إلى الحضيض؟ أم أن سنان مثل ملايين المسحوقين، يعاني من تمزق الإرادة لكي يصارع وحوش الحياة من أجل البقاء؟

تذكرت نامق ووقوعه في شرك الإدمان بعد إصابة عشتار بالسرطان، ثم موته المفاجئ، كارين ابنة نادر التي فقدت البوصلة وهي تسبح في بحر متناقضات اللغة والثقافة والإغتصاب وفوارق التكوين والهيئات، لا تقوى على اجتيازه. تذكرت ابنتي نجمة وجميلة اللتين حكمت عليهما بالعيش دون أب، قصة دامهوسن، موانئ الفايكنغ، غابات كرينو الثلجية، كلاب القطب الجارة لزلاجات المغامرين، وتذكرت أولئك الذين ماتوا وسيموتون وهم يسقطون تباعا، وبوهن، في شبكة اليأس، والإستسلام الكامل.

الطريق إلى شقتي قصير، وخلال ذلك سمعت عددا من الإنفجارات البعيدة، وضوضاء مزعجة لسيارات إسعاف، وشرطة، وفكرت وأنا أحدق بالبشر المسرعين في جميع الإتجاهات، غير عابئين بالموت المنتظر بالزوايا والساحات والأزقة، كم هناك من سنان أو نادر أو نامق محمولون على أشرعة الخوف والعزلة والقلق في هذا العالم؟ هل تتشابه تعاسة الجنس البشري في بقاع الأرض كلها؟

وجدت البناية هادئة.

صعدت الدرج إلى شقتي بهدوء المتأمل، وقررت أن أنسى لقائي

اليوم بسرى، فاتجهت إلى الكومبيوتر وفتحت الملف الثاني الذي سأبعثه إلى مراد قامشلو. كان الملف عن العنف في سجن للنساء. كشف لي قدرة سرى على التغلغل إلى طبقات مجتمعنا السميكة. ثمة جرأة لتناول المحرم من الأسرار. هل لذلك علاقة بجرأة سرى على خيانة زوجها والبحث عن متعة جسدها والسير وسط حقل من الألغام؟ حقل من ألغام الثقافة الذكورية وعنفها الموجه إلى جسد النساء خاصة؟ سرى تفاجؤني معظم الأحيان. مكتوب في الملف أنه بعد الضجة التي أثارتها الصور الشهيرة، التي كشفت ممارسات بعض الجنود الأميركيين في سجن أبي غريب، والتعذيب المهين الذي تعرض إليه بعض السجناء، أضحى موضوع السجون أحد المقاييس التي تدل على توجهات البلد. من هنا ربما جاء الإهتمام الإعلامي بفيلم «يوم في سجن الكاظمية للنساء» الذي عرض في مهرجان روتردام الدولي.

صانعو الفيلم استفادوا من القرارات الحكومية التي صدرت بعد حوادث سجن أبي غريب، والتي تسمح للصحافيين بدخول السجون وتصويرها. هو أول فيلم عن سجينات، فالوضع الاجتماعي المحافظ يشكل إحدى المعضلات الكبيرة في إنجاز أفلام عن عالم حساس.

من يستطيع مثلا تصوير فيلم عن الدعارة في منطقة البتاوين؟ اللواط في حارات الشعلة، الزنا بالمحارم في الأعظمية؟ أو يكشف القاع في مدينة الثورة أو محلة الفضل؟ منطقة الداوودي، رغم أنها حي راق، إلا أنها تمتلك قاعها بالتأكيد. أعرف قصصا عن أسر العائلات تشيب لها الرؤوس. في الفيلم مقابلات كثيرة مع سجينات. اختار بعضهن إظهار وجوهن، فيما فضل البعض إخفاء الهوية

الشخصية، كذلك مقابلات مع إدارة السجن، التي كانت تشكو في مشاهد كثيرة من جو الرقابة التي فرضت على السجون، الأمر الذي استغلته بعض السجينات في إقامة دعاوى وهمية على إدارة السجن. وهمية تؤكد الإدارة، لكن ما نقرأه في هذا التقرير ينقلنا إلى واقع ملموس وحقيقي. السجينات معظمهن زجّ بهن في السجن بسبب جرائم عادية، تحصل في كل مكان في العالم. سرقات، قتل، تزوير، وإرهاب. هناك قسم خاص بجرائم الإرهاب، والذي رفضت أغلب السجينات فيه التحدث لكاميرا المخرج.

الفيلم نجح في الحصول على قصة مؤثرة واحدة من هذا القسم، من سجينة مراهقة، تحدثت عن قيام الجماعات الإرهابية بخطفها مع مجموعة من الفتيات الأخريات، من أجل دفعهن إلى القيام بعمليات انتحارية. قالت الفتاة إنهن حقن بمواد مخدرة، لتسهيل العمل. سجينات أخريات، لسن بعيدات عن السياسة. القصص التي قدمها الفيلم، تشير إلى ظروف قاسية دفعت بعضهن إلى جرائم غير ضرورية. البعض من السجينات تحدثن عن فساد النظام القضائي الحالي، وشيوع الرشوة. صانعو الفيلم لم يملكوا الإمكانية لبحث هذه القصص وتحديدها، هم قدموها كما هي، بكل صدقها أو مبالغتها. الفيلم لم يتحدث كثيرا مع سجيناته، عن تجربة السجن في مدينة تشهد الكثير من الفوضى والعنف، كيف يبدو العالم خارج ذلك السجن بالنسبة إلى السجينات المحبوسات في بناية بدت نظيفة وأفضل حالا من الكثير من سجون المنطقة.

تلك مبالغة، فما شاهدته في سجون بغداد عبر تحقيقاتي وزياراتي الميدانية يكذب هذا الإدعاء. هذا الفيلم مدخل إلى واقع موجود،

يتستر عليه الساسة، كمن يخفي بقعة موبوءة من جسده.

أشحت بصري عن الملف، ورحت أفكر بما كتبته سرى.

كيف استطاعت هذه المرأة الصغيرة دخول سجون محكمة لكتابة تحقيقاتها؟ هل يمكنها القيام بذلك دون أن يكون لها علاقات مريبة مع مسؤولين، وضباط سجون، ومافيات تنتمي إلى تلك البيئة؟

إما أن سرى متواطئة مع هذه البيئة الفاسدة التي تكتب عنها، أو يهمزها حقد دفين على واقعها المهترئ وتروم فضحه بأية طريقة. نبرة كراهية تشي بألم متراكم سببته المهانة الشخصية التي وجدت نفسها تعوم في مياهها. تذكرت نتفا من أقوال سنان الشاعر عن سرى، قال إنها تستخدم غطاءها الصحافي لجني الأموال، بحكم علاقاتها الواسعة مع رجال أمن، وجيش، ومسؤولين سياسيين، وأصحاب شركات، وتتقاضى عمولات عن إنجاز وحل قضايا شائكة ومستعصية. أمر جعلني أشك في أقوال سنان، وفسرت موقفه العدائي منها على أنه غيرة ذكورية حول امرأة لا يستطيع نيلها.

لكن السؤال لماذا يخفي مجتمعنا عوراته الأخلاقية ويدعي الطهر والبياض والاستقامة؟ هل تغطي كثرة الجوامع ومظاهر الدين، وطبوله، على المباءة الإجتماعية التي نتردى بها؟ هكذا تتساءل سرى وهي ماضية في تحقيقها الغريب عن أحوال النساء.

فتح برلمانيون وحقوقيون ملف النساء المعتقلات في السجون، وحذروا من تدهور أوضاعهن، وتحدثوا عن اعتداءات وانتهاكات. وفي هذا السياق وصفت برلمانية، لا أريد ذكر اسمها، أوضاع النساء المعتقلات بأنها «في غاية السوء». قالت إنها زارت سجن

النساء الواقع في مدينة الكاظمية، «بعد ازدياد الشكاوى عن أوضاع المعتقلات، وما يتعرضن له من اعتداءات من قبل السجانين والقائمين على السجون». وقالت أيضا إنها تأكدت من حصول الانتهاكات، مشيرة إلى أن «ذات الأوضاع تعيشها المعتقلات في السجون الأخرى». وذكرت أن هناك معتقلات أمضين مدة طويلة دون توجيه تهمة محددة إليهن. وتطالب النائبة بضرورة إطلاق سراح المعتقلات البريئات، وأن يتم تعويضهن عن الأضرار التي لحقت بهن من جراء الإعتقال، وعدم إفلات الذين ارتكبوا الجرائم بحق النساء.

وفي هذا السياق أيضا تشير البرلمانية إلى أن نقل المعتقلات من سجن الكاظمية إلى سجن الرصافة لم يغير من أوضاعهن السيئة شيئا.

وهنا تتضارب الأرقام الخاصة بعدد النساء المعتقلات في السجون الحكومية. لجنة حقوق الإنسان من جهتها أعدت تقريراً أوصت فيه بإعادة النظر في قضايا بعض النساء اللائي دخلن السجن «بدعاوى كيدية». وأقرت وزيرة، لا نريد ذكر اسمها، بأن بعض السجانين العراقيين قد اعتدوا على السجينات، وأكدت أنها قد التقت العديد من المعتقلات خلال زياراتها للسجون حيث تحدثت المعتقلات عن تلك الانتهاكات.

إن هناك الكثير من المعتقلات لم توجه لهن تهمة رغم مرور فترات طويلة على اعتقالهن، مما يؤشر لخطورة الأوضاع، مؤكدة أن المعتقلات جميعهن في السجون الحكومية. اعتقال النساء بدأ مع الأيام الأولى للاحتلال، حيث شرعت القوات الأميركية في حملة

بمنطقة أبو غريب بزعم وجود مطلوبين من كبار المسؤولين من النظام السابق. وتواصلت الإعتقالات ضد النساء بعد ذلك لإرغام المشتبه في شنهم هجمات ضد الجيش الأميركي على تسليم أنفسهم بعد اعتقال الأم أو الأخت أو الزوجة. لم تتوقف تلك الحملات رغم الاحتجاجات والإعتراضات التي صدرت من رجال دين وشيوخ عشائر ووجهاء.

واستنادا إلى ما أعلنه رئيس اتحاد السجناء السياسيين العراقيين زاد عدد النساء المعتقلات خلال السنوات المنصرمة لدى القوات الأميركية والحكومية عن عشرة آلاف. في الوقت الذي يتفاخر فيه العالم بكثرة المستشفيات، والجامعات، والمرافق الخدمية والإجتماعية، يتفاخر مسؤولو وزارة العدل ببناء سجون حديثة! وقد ذهبت إلى وزارة العدل لإجراء بعض الحوارات، وإلقاء الضوء على نشاطات الوزارة، وطلبت من أحدهم أن يزودني بآخر أخبارهم. ونشاطهم، وحقوق الإنسان، ففوجئت بالمسؤول يُحَدِّثُني عن بناء سجون جديدة في بغداد والمحافظات الأخرى! قلت لهذا المسؤول: كنتم تعيبون كثرة السجون، وأقبية الحجز. ظننتك ستخبرني عن تبيض السجون، وإطلاق الحريات، وإذا بك تحدثني عن بناء سجون جديدة؟! والأدهى من ذلك تفاخره بحداثة السجون، وتوفر مستلزمات صحية جديدة! لا ينقصه سوى اخباري عن استيراد أدوات تعذيب على آخر طراز!! يبدو أن من أهم ما طرحته الديمقراطية الجديدة هو ابتكار سجون جديدة للنساء، ووسائل ذكية لانتزاع الاعترافات من النساء الموجودات في تلك المعتقلات!

هناك أنواع من السجون الخاصة بالنساء، منها السجون

الأميركية، والسجون التابعة لوزارة الداخلية، مع وجود أقبيةٍ وسجونٍ سِرِّيَّةٍ تابعةٍ لوزارة الداخلية، ولبعض المسؤولين والمتنفذين في الدولة. وإذا أردنا أن نتحدث عن السجون الأميركية للنساء فهي كثيرةٌ، ابتداء من سجن بوكا، وكروكر، وسجن المطار، وسجن أبو غريب سيء الصيت، إضافةً إلى سجون كثيرة غيرها. إن معاناة المرأة المعتقلة تبدأ عند وضعها في بداية الإعتقال داخل المحاجر، أي السجن الإنفرادي؛ حيث تبقى هناك تعاني من العزلة، والوحدة، والتعذيب. ويحصل ذات الشيء في المعتقلات الحكومية.

ومن جانبها جمعت وكالة الأنباء الفرنسية، وبعد فترة من الإحتلال، شهاداتٍ من سجينات، ومنظمات غير حكومية، أكَّدَتْ كلها على أن السجينات في سجن أبو غريب قد تَعَرَّضْنَ إلى عمليات اغتصاب وإذلال متنوعة، وكيف أن سيدة عراقية تم اغتصابها من قِبَل الجنود الأميركان أمام زوجها المعتقل، مما دفعها إلى الإنتحار بعد الخروج من السجن! وقد شكت السجينات أنهن لم يرين أطفالهن من سنوات، إما لتواجد أطفالهن في الدور الاجتماعية التابعة للدولة، أو لأن آباء الأطفال لا يسمحون للأطفال بزيارة الأمهات. وتشتد المحنة على من اعتقلن وهن حوامل، إضافةً إلى عدم وجود برامج إصلاحية في هذا السجن أو غيره. ومن جانبها أكدت باحثة اجتماعية، لا نذكر اسمها، حصول الكثير من الممارسات اللاأخلاقية بحق السجينات، وأن ضُبَّاط التحقيق استخدموا مختلِفَ الوسائل الدنيئة بحقهن، والأخطر من ذلك أن بعض ضباط التحقيق قد شكلوا فرقةً من السماسرة من خارج السجن؛ للقيام بإغراء السجينات، عبر سياسة الترغيب والترهيب،

ونقلهن إلى خارج السجن لممارسة الرذيلة من قِبَلِ أشخاص لهم علاقات مع هؤلاء السماسرة وضباط التحقيق، للحصول على موارد مالية. الوَضْعُ مزر في سجن الكاظمية، وغيره من السجون. وهناك دوما قصص.

خلف قضبان السجون تسكن دوما حقيقة مخضبة بدماء القانون. لأن القانون لا يحمي المغفلين والسذج. كل محاولاتي الجدية والصبورة لإستحصال موافقة لزيارة سجن النساء رمتها أذرع الروتين في سلة المهملات، لكن الموضوع كان يستحق تكرار المحاولات خاصة بعد أن أصبحت رائحة أخبار السجن العفنة في متناول الجميع. قبل أسبوع نجحت بدخول السجن بعد أن جردوني من كاميرتي وجهاز التسجيل وبذلك فقدت جزءا من أسلحتي، لكنهم سمحوا لي باصطحاب قلمي وأوراقي، المهم هو إني الآن خلف القضبان ولكن لمدة قصيرة قد لا تكون كافية لتدوين كل القصص. لكنها كافية بالتأكيد لفتح الملف. تختلف وجوه النساء خلف القضبان الحديدية عن تلك التي تعيش خارج القضبان. وجوه النساء هنا يملؤها الحزن والتعب. وهي وجوه بلا أمل وبلا مستقبل، والنساء متعطشات للحديث رغم اختلاف نوع التعطش فهن معترفات. متظلمات، شاكيات، باكيات، متفاخرات ومتورطات.

زينة ذات الوجه المنمش قليلا زرعت سكين المطبخ في جسد زوجها. نال ست عشرة طعنة قبل أن يلفظ أنفاسه، الخائنة، على حد وصفها. فقد أخذ ما ورثته عن والدها وأحلى سنين عمرها ليخونها مع ابنة خالتها المطلقة التي آوتها وأطعمتها واعتبرتها كأختها لتجازي الإحسان بالنكران. لم تكن نادمة بل أنها أقسمت أن عند

الطعنات لم يكن كافيا فهو يستحق أكثر مما جرى له. لكنها نادمة أشد الندم لأن أبنة خالتها أفلتت من حد سكينها.

وفي مكان ليس ببعيد عن زينة كانت صبيحة تبكي شاكية، فهي لم تفعل شيئا يستحق السجن. ما قامت به هو دفاع عن النفس ضد ذئب بشري كان ينوي نهش عرضها، لكن القانون وقف بجانبه لأنه أحد عناصر الأمن. حوّل الموضوع من تحرش جنسي إلى اعتداء على رجل أمن. قصة صبيحة بدأت منذ المراهقة، مع ابن الجيران الفاشل دراسيا، واجتماعيا، لتدور الدوائر ويصبح أحد عناصر أمن هذا الزمان. بدأ يتصور أنه أصبح بمقدوره فعل ما تشتهي نفسه في بلد لا يزال القانون فيه يغط في نوم عميق. يغط في نوم عميق هو تعبير صبيحة حرفيا، ليس تعبيري أنا الكاتبة. وصبيحة لا ترغب في الخروج من السجن لأن سكين غسل العار تنتظرها. هكذا أبلغها أخوها بعد أن طلقها زوجها خوفا من الفضيحة، في بلد لا تزال الأعراف العشائرية عصية على بنود القانون.

علياء تقول إنها تشعر بالسعادة ورفعة الرأس لأنها قتلت جارهم الذي سبق وأن كتب تقريرا أمنيا عن أخويها الهاربين من الخدمة العسكرية في عهد النظام السابق. انتقمت من قاتل أخويها، وهي تقضي فترة سجنها بالتفرغ للعبادة وقراءة القرآن. ولا تعتبر ما فعلته جريمة تغضب الله. وتختلف نظرة عائلة علياء لها عن باقي زميلاتها في السجن، إذ عقدت قرانها على أحد أولاد عمومتها الذي سينتظرها عشر سنوات أخرى قبل أن يتمكن من الزواج بها. والطريف أنها سمحت له بالزواج بأخرى حتى تحافظ عليه من بنات الحرام كما تعتقد. حين تسمع السجينات عليك أن لا تصدق معظم

الكلام الذي يتفوهن به، لكن في الوقت ذاته يمكن أن يكون الكلام والقصص صحيحة مئة بالمئة. واقعنا في الحقيقة فيه حكايات لا تصدق. لذلك كل شيء محتمل في هذا البلد البائس والمميت، خاصة للنساء.

أسماء تؤكد أن ما قامت به لا يخالف الشريعة الإسلامية بشيء. تزوجت زواجا عرفيا بتاجر عربي قبل ست سنوات. لكنه انقطع عنها لمدة سنتين بدون أن يرسل لها فلسا واحدا، فما كان منها إلا أن قامت بالسطو مع أخوتها على إحدى الشاحنات التجارية التي تعود للزوج الغني، لكن الشرطة كانت أقرب اليها من الحدود التي كانت تقصدها للهرب، فزج بها في السجن. تقول أسماء: لدي ورقة موقعة من طرفه، تثبت أني زوجته، فهل تسجن المرأة لأنها أخذت شيئا من ممتلكات زوجها! ورغم ملامح الهدوء التي ترتسم على وجهها، ذنب بهيجة وكونها موجودة في السجن، تقطيعها لزوجها إلى خمس قطع قبل أن ترمي بتلك القطع في نهر دجلة. هي من سكنة علاوي الحلة كما أفادتني. رمت القطع في دجلة معتقدة أن خيوط جريمتها محبوكة إلى درجة لا يمكن اكتشافها. عشيقها، وشريكها في الجريمة، كان رجلا مهزوزا، ومدمن كحول، مما جعله يفضفض، كما يقال في الشام، لزملاء الخمر بتفاصيل الجريمة، ثم ليعود مستنجدا باكيا على صدر الحبيبة قائلا لها: إن أصدقائي يبتزونني بعد أن بحت لهم بالجريمة وتفاصيلها. بهيجة قررت قتل كل من سمع القصة من عشيقها خوف الافتضاح. استلت سكينها لتقضي على الأول، بعد إغرائه بليلة حمراء في دارها. ودست السم للثاني أثناء وليمة عشاء في بيت عشيقها، لكن أمرها افتضح بعد القبض عليها

وهي تحاول التخلص من أجزاء جسد القتيل الثالث لتحكم بالإعدام قبل أن يخفف الحكم إلى السجن المؤبد، لأنها مختلة عقليا بحسب اللجنة الطبية التي أخضعت لها. زميلاتها يدعين أنها خدعت اللجنة.

أصوات غير مسموعة، هامسة، خائفة من قول الحقيقة، أسرت لنا بأن السجن يخضع إلى متناقضات فكرية واجتماعية شتى. الفكر الإسلامي المتشدد ينتشر بقوة هنا، مما يدفع ببعض السجينات إلى الانخراط بين صفوفه المختلفة للحصول على الأمان الذي توفره بعض الأطراف داخل وخارج السجن، بقوة الذراع تارة، وبقوة الجيوب تارة أخرى. بينما تنشط بشكل أكبر عصابات الدعارة المثلية التي تجبر بعض السجينات على أبشع، وأشنع الأفعال، وتغرر بالبعض الآخر، ناهيك عن تصوير الأفلام الخليعة بواسطة هواتف الموبايل المهربة إلى داخل السجن، ليتم اخراجها بما تحتويه من صور، عبر وسيطات، إلى تجار خارج القضبان. كل هذا يحدث على مرأى ومسمع من إدارة السجن التي نخرها الفساد المالي، والرشوة.

وهناك عصابات المخدرات وهي تعمل بشكل مشترك مع عصابات الدعارة. يقايضون المخدرات بأجساد السجينات. أكثر الأمور قسوة على مسامعي، أنا الكاتبة، هو وجود ظاهرة زواج المثليات في السجن التي ترعاه عصابات الدعارة التي وسعت نشاطها بالتعامل مع عصابات الدعارة خارج السجن. ويتم إخراج بعض السجينات لأيام بحجج كثيرة، وبالتعاون مع إدارة السجن. فتش عن المال هنا فهو أصل الشرور.

ملخص الأمر إن نساءنا تعيش ظروفا إنسانية صعبة، وقاهرة، من

نواحي عدة. الوجبات الغذائية المقدمة لهن فقيرة وقليلة. وتفتقر السجون إلى أبسط الشروط الصحية والطبية، ناهيك عن انتشار ظواهر الإدمان، والتحرش الجنسي المثلي، وحالات الحمل غير الشرعية، وتعرض السجينات إلى الضرب والتعذيب والعمل المضني في أعمال تجارية يدوية داخل السجن. وتطالب النساء بالنظر اليهن نظرة إنسانية، فعلى الرغم من كونهن قد اقترفن جرائم إلا أنهن يقضين فترة العقوبة القانونية مما يجعلهن مواطنات مذنبات وليس حيوانات يباح للجميع ضربهن، وتعذيبهن، واستغلالهن.

ملاحظة: لا يمكن لأحد أن يجزم بصدق ما روته لنا السجينات. إلا أن هنالك حقيقة ما لا تزال ماثلة في الزوايا المظلمة من قصصهن، لأن القانون كثيرا ما فشل في إخراجها. تلك القصص تحتاج إلى طبيب نفسي أكثر من حاجتها إلى قاض وسجان. بالفعل. همهمت مع نفسي، وأنا أتأمل فيما قرأت، وكنت أحدق إلى فضاء الشباك المودي إلى صباح بغدادي مفضض.

اتصلت فورا بسرى. كانت خارجة من حمامها الصباحي للتو. وأبديت لها اعجابي بهذا التقرير المدهش. سألتها: من كتب التقرير؟ وكيف تهيأ لها الوصول إلى هكذا معلومات؟ فضح ما يجري في السجون قد يقود أي صحافي إلى الموت.

هو سر المهنة، وضحكت، لا يمكن إطلاعك على كل شيء. سأبعثه إلى جريدة الخبر لكي ينشره مراد قامشلو وتقرأه الجالية العراقية في الدانمارك وإسكندنافيا.

إفعل ذلك رجاء، دع العالم يعرف ماذا يدور في هذا المجتمع الحقير. كانت متعجلة لإغلاق التلفون، فأرسلت لي قبلة سريعة

بالكاد سمعتها. هل وصلتك؟ نعم. وأغلقت الخط.

أين الحقيقة في هذه الغابة المتوحشة؟ فكرت أنني أميل إلى تصديق كل ما يحدث من غرائب. لم تعد تدهشني الحكايات والقصص عن الإدمان، والدعارة، والعنف في السجون، وعصابات بيع الأعضاء البشرية المكتشفة حديثا في أزقة البتاوين، والفضل، والحيدرخانة، والكفاح.

يمكن لأي مراقب أن يستنتج صحة ما يحدث من جرائم عبر تدقيق النظر والتأمل في وجوه الناس، والحركة المأزومة للمجتمع.

أكاد أجزم أننا جميعا مرضى، نقيم في مستشفى شاسع من دون جدران.

(١٨)

ومن غرابة ما عشته في شوارع بغداد هو أنني رحت أرى سرى في الأشلاء المتناثرة غب كل انفجار، وفي السماء العميقة عند نهارات الخريف، وفي النجوم التي أعشقها، وفي المويجات المتراقصة أمام تمثال المتنبي في نهاية سوق الكتب. في أهلة الجوامع، في ذرى النخيل العالية، وأسمع صوتها عند كل نداء لنورس تائه عند ضفاف أبي نؤاس. حين وصلت إلى هذه النقطة من العشق لها ارتكبت أكبر حماقة قمت بها في حياتي. أخبرت صديقي سامر بعشقي. كان ذلك في مطعم السمك إياه، المطل على القصر الجمهوري. ذلك المطعم، وما يحيط به من ممرات وأشجار ومراجيح أطفال وحقيلات ثيل، ظل طوال أشهر محورا للقاءاتنا ومواعيدنا. قبل يوم اتفقنا أنا وسامر على المجيء إلى هنا، وقمنا بمؤامرة صغيرة، هي أن يجلب سامر زوجته وأنا أجلب سرى ونأكل السمك المشوي على الطريقة البغدادية، أي المسكوف. هذا العرض أثار ريبتي، فلماذا يضع صديقي سرى بين مخالب التنين؟ أفهمني أن الغرض من ذلك أن يعقد علاقة صداقة وتعارف بين سرى وزوجته رشا، وبدون تحفظ أخبرني أن اتصالات سرى تثير مشاكل مع زوجته. وهو بهذه الطريقة سيكسر الحاجز بين الزوجة والعشيقة، وهذا التعبير ذكره سامر نصا لي ونحن نجلس في المكتب.

قصة إخبار سامر بالحب بيني وبين سرى هي من تدبيرها، صارحتني بأنها بدأت تتعب من هذه العلاقة الجنسية البحتة مع الرجل، وتريد إنهاءها بأي ثمن كان، لكن دون خسائر. قالت لي بح له بحبك لي، وحبي لك، ربما ينسحب بشكل حضاري. إنه يخنقني، هذا ما باحت به لي في وقت سابق. لم أعد أطيق ثقله فوقي. رائحة البيرة من فمه لا أطيقها، وهو يشرب قنينة بيرة واحدة قبل كل مضاجعة. قال لها إنه يستمتع بهذا الطقس جدا. بينما علقت لي سرى حول الموضوع بالقول أكيد أنه لا يفعل هذا مع زوجته. الغيرة إذن. كانت تبوح لي بهذه الأسرار، والخصوصيات، كما لو كانت تتحدث عن حذاء إيطالي ترغب في شرائه. حدث ذلك في الغرفة بعد مضاجعة حاشدة، بين قبل وضغط وتأوهات ومواء وزفرات. سرى تبوح بتفاصيل هذه العلاقة التي استمرت مع سامر، منذ تلك الأيام التي أخبرني بها وأنا في كوبنهاغن عن المرأة التي تعرف عليها وصارت عشيقته في مكتب تكوين. في وقتها كنا نضع أغنية يا ريم وادي ثقيف، لطيف جسمك لطيف، عزفناها في الكومبيوتر بصوت نجاح سلام هذه المرة. وهكذا نفذت تعاليم سرى بحذافيرها. تم الموعد وكنت في الطريق إلى جسر الجمهورية قريب من محطة تصفية المياه في الرصافة الواقعة على نهر دجلة.

من هنا يبتدئ شارع ابي نؤاس، الذي سلكته نحو مطعم السمك ماشيا، في تمام الساعة الواحدة ظهرا من نهار فاتر. في هذه النقطة المشجرة بالقيقب والزعرور البري والنارنج يحس المرء فعلا بروح هذه المدينة، تلامس نسمات دجلة وجهك، وما أن تحدق في النوارس البيض وهي تطير بين أشجار أبي نؤاس وأشجار المنطقة

الخضراء، عابرة هذا المدى المحبوك من دسائس وجرائم وإشاعات وسيارات مفخخة. في هذا المدى المفتوح مشيت نحو مطعم السمك ووجدت سرى تنتظري تحت شجرة نارنج، بوشاح حول رقبتها، وعيناها تتقافزان فوق الأمكنة مثل عصفور قلق. تجلس على مصطبة واضعة حقيبتها على الأرض، وكانت السماء ملتبسة حولنا، ثمة شمس، وثمة نوارس، وثمة أمواج نهرية خالدة تحس وكأنها جاءت من عميق السنين. نعم كنت ألهو في البدء مع سرى، كأي ذكر يتسلى بالنساء. لكنني دخلت في حلقة الموت معها، أي لا أستطيع العيش بدونها. صارت الحياة هباء بعيدا عن جسدها الصغير وعينيها. الأشجار ميتة دون سرى، العمل كئيب، من غير مشاركتها، الطعام لا يعني شيئا إن لم تكن هناك.

أحببت التقرير عن سجن النساء لأنها هي التي كتبته. أو جمعته من مصادر شتى ربما، لأنني لاحظت تباينا في الأسلوب ضمن التحقيق. أبدا، مهمتي أصبحت عشق سرى ليس إلا. هذه هي دروب الحياة التي لا يستطيع حتى الفلاسفة معرفتها وإلى أين تقود. من كل ذلك آمنت أن العشق حالة فردية، تجربة شخصية لا تعلّم.

وجدناهم هناك.

رشا بزينتها، وعيناها فضوليتان للتعرف على تلك الصحافية التي تتصل بزوجها كل يوم. ذات مرة وكنت أعيش في كوبنهاغن كتب لي سامر بتفصيل عن الحالة التي يمر بها. إن لم تتصل به سرى ليلا لا يستطيع النوم. حتى لو كان ذلك على شكل ترميشة فقط. وحين تنام رشا يظلان في حديث تلفوني حتى ساعة متأخرة من الليل. الثرثرة

مع سرى، كتب لي سامر، أصبحت مورفينا يوميا. تذكرت تلك الإشارة التي كتبها لي سامر ذات مرة في رسالة ألكترونية، فهل أعيش أنا الحالة ذاتها؟ هل يكمن السر إذن بسرى وليس بشخصي أنا؟

بعد أن أنهينا السمكة المسقوفة اللذيذة، أنا وسرى ورشا وسامر، ثم شربنا الشاي، أشار لي سامر بعينيه بشكل خفي أن ننهض ونترك المرأتين لوحدهما، لذلك قلت لهما إننا سنمضي لكي ندخن تحت شجرة الزعرور. تركنا رشا وسرى في حديثهما النسائي. اتفقنا أنا وسرى على الخلاص من الوضع الذي نحن فيه، هي لا تستطيع الفكاك من سامر لاعتبارات كثيرة، وأنا لا يمكنني الابتعاد عن سرى، وسرى وصلت إلى النقطة التي فقدت بها أي قدرة على الاختيار. هل تختار بيني وبين سامر؟ كيف؟ بالمحصلة هل هي قادرة على التضحية بأسرتها من أجلنا نحن؟ قالت ذات يوم إنها لن تقدم على أمر مثل هذا. لا يمكنها أن تدمر حياتها الأسرية من أجلي أو من أجل سامر. نحن عابرون، رغم كل فنون العشق وتهاويلها. لذلك فنحن في حيرة، أنا وسرى، وهذا ما توصلنا اليه في آخر لقاء لنا في مكتب تكوين. قل له إنك تحبني، ولا يمكن لك أن تعيش من دوني، وإنني أحبك ولا أستطيع العيش من دونك. ونحن كرجال حضاريين ينبغي أن ندع سرى تختار بيننا، وعلينا تقبل هذه الخيارات بروح رياضية.

كانت مقتنعة مئة بالمئة بما تقوله، وحين قلبت فكري بخطة سرى وجدتها معقولة، وسامر كما عرفته رجلا حضاريا وأعتقد أنه سيتقبل هذه النتيجة دون تردد. هو يهتم دون شك لكرامته الشخصية والذكورية، فثمة امرأة اختارت رجلا غيره، وعليه أن يتقبل الخسارة.

نصف حياتنا نعيش بخسارة مع الآخرين، لا في العلاقة مع النساء إنما في كل شيء. ضاجعت سرى في تلك الجلسة مرتين، ولكنني أحسست أنها فقدت الإهتمام السابق بالجنس. ثمة أمر أخطر من الجنس يشغل بالها. لم تندمج معي أثناء الممارسة. سقتني الماء من شفتيها، وداعبت شعيرات صدري، ومنحتني جسدها دون مقابل. لكنها لم تكن حاضرة. كانت متلهفة لرؤية ما تصل إليه مؤامرتنا الذكية، كما سمتها.

سننهي القضية مع سامر هذا اليوم. تحت شجرة الزعرور، في حدائق أبي نؤاس المطلة على المنطقة الخضراء، وفيما كنت أحدق بقباب القصر الرئاسي الباذخة، وأفكر باقتراحات سرى وخططها، ووجهة نظر يوسف عن هذا المكان، والتعاسة التي أعيشها برحيل نامق المفاجئ، تجرأت على البوح لسامر بما يعتمل في صدري. في البداية مهدت للحديث عنها وقلت إن رشا وسرى مندمجتان جيدا بالحديث، ولا بد أنهما تتحدثان عنا، فهذه عادة النساء. ما أن يجتمعن سوية حتى يبدأن بالحديث عن الرجال. ورأيت الإرتياح في وجهه بهذه المقدمة، وبدأت شواربه الكثة تتراقص بفرح، إلا أنني عاجلته بضربة غير متوقعة، فأخبرته بأنني بدأت أميل إلى سرى. حدثته عن جمالها ومناقبها النفسية والأخلاقية والجهد الذي تقدمه لي في مشروعي الخاص بالعنف، وكيف أن مراد قامشلو معجب بالتقارير التي أبعثها له، وأن جريدة الخبر أصبحت تقرأ جيدا بسبب هذه التقارير الحية التي أرسلها بمساعدة سرى.

هجست خلف وجهه أفكارا أخرى حول الموضوع. وراء البشرة الحنطية، ووراء الشارب الكث والعينين الواسعتين، لمحت بتجل

نادر مقدار الكره الذي تفجر نحوي، الكره الذي نتأ من مكان عميق، في ظلمات الكائن البشري بردات فعله غير المتوقعة. ومع حفيف أوراق النبق المنتشرة حول المطعم، ووشوشات أمواج دجلة، المتلاصفة تحت شمس الظهيرة، وزعقات النوارس البعيدة، أدركت أن سامر لم يعد صديقي، ولن يطيق الجلوس معي مرة أخرى. وسوف يكون الماضي وحده نقطة التقاء بيننا. سنوات الصداقة الطويلة تلونت بالغبار ذي الرائحة المنفرة. رأيت في وجهه الإهانة الضخمة التي وجهتها إليه.

إلى أن افترقنا، خلال رجوعنا إلى المرأتين، وشرب الشاي والتمشي قليلا على شواطئ دجلة، تحولت حواراتي، والنظرات، والضحكات، تحولت كلها إلى مجاملات باردة، واستعجال لقضاء وقت اللقاء، وانتظار لغد لن يكون مشابها لهذا اليوم. كنا في لحظات عري من الأقنعة. سرى من جانبها أدركت أن ثمة عاصفة انفجرت بيني وبين سامر. وهذا ما لاحظته في عينيها وهي تودعنا راكبة التاكسي في شارع أبي نؤاس متجهة إلى العطيفية. كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة عصرا، في ربيع مذهب بالشمس الدافئة.

لا لن يغفر لي هذا الإعتراف الصريح، لا لن يغفر لي، هذا ما كان يلتمع في ذهني وأنا أسير بين أزقة تربط بين شارع السعدون وأبي نؤاس، مفتشا عن محل لبيع المشروبات الكحولية. فكرت أن أزور صديقي سنان في القصر الأبيض، وتراءى لي وهو يلتف على جسده الضئيل في ذلك السرير المخلع، ثم أشاركه كأسا من عرق الزحلة، واستدرجه للحديث مرة أخرى عن سرى وسامر، إلا أنني وجدت الفكرة غير مجدية.

لن يفيدني سنان المرتبك، جسدا وروحا، وسيضاعف من حزني وقلقي ليس إلا.

كنت أحاول تركيز ذهني على واجهات البيوت القديمة وزخارفها وأبوابها، أو رصد سيماء البشر المسحوقين المتجولين والواقفين في الأزقة أو في الأبواب. صوت الإنفجار البعيد لم أعره أي اهتمام. مكتب تكوين تراءى مثل قبر. وخطواتي تغوص بلزوجة في أسفلت الأزقة القذرة. لكنني لم أستطع إزاحة تلك الحقيقة التي توصلت إليها من خلال سبري لتعابير سامر، التعابير الأعمق غورا في روحه. سامر لم يعد صديقي. وكان اتصالا سريعا وحاسما، ودون أن تسأل أو تمهد لموضوع ما قالت لي سرى بسرعة، وتخيلت أن زوجها كان موجودا قربها: سأكون عندك في الساعة التاسعة صباحا، وأقفلت الخط. لم تقل لي تصبح على خير كعادتها، ولا طيرت لي قبلة عبر الهواء.

هل نمت في ذلك الليل؟ لا أعرف. شربت ما جلبته من توبورغ وربما تجاوز العدد ستة أو أكثر. ووجدت ربع قنينة ويسكي بي جي أفرغتها بسرعة في جوفي على ايقاعات أغاني فيروز القديمة، التي نقلتني إلى مدن وشوارع ونساء وذكريات كادت أن تنمحي من مخيلتي، ووجدت بقايا لعرق توما اللبناني في قنينة كانت منزوية تحت الطاولة فاحتسيتها. هي ليلة الدروشة حسب تعبير نادر في هكذا مواقف. فتحت كومبيوتري وأرسلت ما لا أتذكر من الرسائل الألكترونية، وحاولت الإتصال بنامق، على تلفونه الأرضي، وتخيلت أنني سأسمع صوته، رغم قناعتي بموته وهو لن يعود إلى الأرض ثانية. ردت علي ربيعة، ولا أتذكر الكلام الذي قلته لها.

ورويت لها سكران، تاريخ معرفتي بنامق منذ اليوم الأول للقائنا في مقهى الزهاوي، بشارع الرشيد، حتى لحظة موته. بعدها أسدل ستار أسود على عقلي، ولم أحس على نفسي إلا وأنا أسمع باب المكتب يدق بطرقات خفيفة، فانتبهت إلى جسدي، ووجدتني أنام على حشية اسفنجية قرب باب الحمام.

إنها سرى قلت لنفسي، من يطرق بابي غيرها؟

بعطرها الخفيف دخلت عريني، وغيوم النعاس تتأرجح ذات اليمين وذات الشمال، وكنت كمن يستيقظ من رحم شاسع سديمي، إذ غاب عني ما عشته في اليوم السابق. لم أتذكر زعيق النوارس ولا نظرات رشا زوجة سامر، ولم أتذكر الوجبة التي تناولناها في المطعم النؤاسي، والحياة في روحي غبش وظلال، لكن وجه سرى كان واضحا وهي تقدم لي شفتيها لأمتص لعابها المعطر بعلكة النعناع. عادة ما أكون متوترا جنسيا بعد كل ليلة أحتسي بها الخمور، وهذا ما وجدت روحي عليه حين شاهدت جسد سرى، وشممت عطرها، وتذوقت ريقها، وسمعت لهاثها أثناء ما كانت شفتاي تخترقان شفتيها الناعمتين، وتطبقان على أنفها الشبيه بأنف الأميرة.

حملتها كما حملتها ذات يوم أمام الجريدة، واتجهت بها إلى غرفتي المعتمة، ومددتها على فراشي، وخلعت عنها ملابسها المعطرة، وكشفت عن بطنها، وداعبت ردفيها، ورضعت حلمتيها، وتنفست رغبتها، وولجت فيها والتحمت ببطنها.

بلمحة برقية تحولنا إلى كائن خرافي بأطراف عديدة ورغبات منفلتة حيوانية وبشرية.

غاب الكلام وحضر الجسد. وكانت بغداد تستيقظ في مكان ما على زعيق باعة الغاز وحمحمات الخيول الجارة لعربات النقل وأغانيها الحزينة المنطلقة من سيارات النقل الصغيرة.

لم أعد أحتمل، قالت سرى وهي تغالب شهقات بكاء صغيرة، زوجي، عشيقي، حبيبي، كيف أستطيع التوفيق بينهم؟ لم أعد أحتمل. إذا انتهيت من سامر سأفقد عملي، وأجلس في البيت كأي جارية غبية. إذا قطعت معك سأفقد قلبي، وأعيش كما لو كنت ضائعة في هذا الكون. قد تكون هذه حالة المحبين، هل سمعت خالد الشيخ، المغني البحريني، يوما، وأغنيته، كلما كنت بقربي، تنطفي نيران قلبي، زادني الوصل لهيبا، هكذا حال المحب!!! هذه هي حالتي أيها الحبيب. قالتها سرى وعيناها تقطران دمعا. أما الإحتمال الثالث، قالت سرى وهي تتشبث بصدري وتداعب الشعيرات السود والبيض النابتتين بين الثديين، لن أترك زوجي وولدي من أجلك أو من أجله. لن أخرب أسرتي انتظارا لمستقبل غامض. أنتما لا تلائمانني، أنتما عارض روحي، سأحاول اجتيازه. لن أربط الجنس مع الحب مرة ثانية. هذه غلطة الشاطر.

ومالت سرى عن صدري وتناولت موبايلها ودقدقت بأصابعها سريعا ثم انطلق صوت خالد الشيخ ليملأ فضاء الغرفة، وليزيد من معاناة سرى وحيرتها. كل ذلك يدور في تكوين، وسط عتمة الغرفة التي عشت فيها شهور اللذة والغيرة، الوحدة والإنتظار، وأفكاري الشاذة عن الموت. حين سكت خالد الشيخ كان السكون ينفرش علينا، وبدت بغداد كما لو ماتت منذ قرون. ليس هناك أي صوت يمكن سماعه. اعتبرتها لحظة شبحية من حياتي. فمن خلال هذا

السكون، هذا الإندماج الروحي بيني وبينها، وغياب بغداد عنا، في لحظة خارج الزمن، شعرت وكأنني أسمع خرخشة على الباب. خرخشة ناعمة، شبحية، لم تلبث أن تحولت إلى تجسيد واقعي حي لمفتاح يلج في قفل، يدور فيه، يعالجه، ثم يفتحه، بفضول وعنف وعدوانية. كان الأمر أشبه بالمكيدة. من يكون غير سامر؟ هو الوحيد الذي يمتلك مفتاحا إضافيا للمكان.

نطت سرى بقوة وارتدت بنطالها على عجل، ووضعت بقية الملابس بسباق مع الزمن، وكأنها لا تريد لهذا الدخيل أن يراها عارية، سواء كان سامر أو زوجها أو أي رجل آخر غيري. التففت أنا ببطانيتي وتركت الأمر إلى سرى، هي من عليها تدارك الموقف. وسرى وقفت في الباب، دون أن تنطق بكلمة. كنت أسبح في زمن يشبه الغيبوبة، لكنني رغم ذلك سمعت صوت سامر من مكان ما، ربما من الباب، أو من كرسي المكتب، وهو يقول لسرى بضمير الغائب: عليه أن يترك المكان، سآتي غدا ولا أريد رؤيته هنا، كما لا أريد أن أحتفظ بشيء منه، لا ملابس ولا كتب ولا أي شيء. خلاص، انتهى كل شيء بيننا. مفهوم؟ هو يعرف بالتأكيد أنني في الداخل وأسمع كلماته بوضوح. ردت سرى بصوت مكسور وخائف: مفهوم سموري... فقط اهدأ. وساد صمت مسموم. وبكلمة سموري، والنغمة التي قيلت فيها، عرفت أن كل شيء انتهى بيني وبين سرى. وربما بيني وبين بغداد أيضا.

(١٩)

وقد تتساءلون، ربما، لماذا أسكن اليوم في منطقة الدورة، الواقعة جنوب بغداد، وتحديدا في نهاية شارع الميكانيك؟ ليس بعيدا عن الدير، دير الرهبان الكلدانيين، رهبانية شمعون، وفي هذا الصيف الحار، الثقيل؟ روتين حياتي اليومي تغير تماما بعد واقعة مكتب تكوين مع سرى وسامر. أعود يوميا عند الظهيرة، أو المساء لا فرق، لأجد البيت الجديد يشبه تنورا معدا لتحويل العجين إلى خبز.

كنت مضطرا للمجيء إلى هنا، إلى هذا البيت النائي، بحديقته الفارهة، وأشجاره العالية، خاصة النخلة الطويلة، التي أستطيع رؤيتها قبل أن أصل البيت من مسافة بعيدة. نعم لا تتساءلوا عما أمر به من عذاب. لقد طردني صديقي سامر من مكتب تكوين للصحافة والنشر، بعد أن اكتشف علاقتي بعشيقته سرى. وبالحقيقة لم يكتشف هو الأمر إنما أقدمت أنا على إخباره، بحماقة نادرة، وقد فشلت الخطة التي أعددناها أنا وسرى. وكانت النتيجة لصالح سامر، هو من فاز بسرى، لذلك طردني من المكتب ـ الشقة.

تقبلت عرض صديقي، الصحفي هو الآخر، الذي منحني مفتاح هذا البيت كي أقضي به ما بقي لي من أيام في بغداد. بغداد لا

تختلف عن المدن التي عشت فيها. هي، مثل غيرها، محطات مؤقتة. محطات لا تقود سوى إلى الموت. الموت قد يكون هو المآل المريح الذي ينتظرني. ألم أر قبورا مختلفة الأشكال والحجوم في مدن الأرض كلها؟ في النجف، في مقبرة الدحداح الدمشقية، في كوبنهاغن، في كابريوفا البرازيلية، في منطقة فالبي الكوبنهاغنية. المقابر في كل مكان. أعود بسيارات الأجرة إلى بيتي، أستقلها من الكراج القريب عند ساحة الطيران. ركوب سيارات الأجرة، المعروفة بالكيا، أجد فيه متعة فائقة. مراقبة وجوه الراكبين، سماع حواراتهم، التلصص على ملابسهم وأحذيتهم، وأفكارهم، الأفكار المتراقصة حول أفواههم عند الحديث عن هذا الشيء أو ذاك. حوارات لبشر مأزومين حتى النخاع، دون أن يشعروا بذلك. العنف المستشري، كما فكرت، يمنعهم من الوقوف متأملين بدواخلهم وبسلوكياتهم وأفكارهم.

البيت لشخص مسيحي تركه وغادر إلى أميركا، هو وعائلته، هربا بجلده من التصفيات الطائفية والدينية التي اجتاحت منطقة الدورة، وبغداد كلها، ثم العراق. وقد حمل ذلك الرجل عائلته وما خف حمله وغلى ثمنه وخرج إلى عمان، ومن هناك عبر علاقات كنسية تمكن من الوصول إلى أميركا، ليقطن في ولاية ميشيغن تحديد. ميشيغن ذات الجالية المسيحية الأكبر في الولايات. وكان صديقي الصحافي وكيلا لذلك الرجل المسيحي المقيم في ميشيغن. لمعرفة كل هذه الملابسات ينبغي قراءة الأحداث كلها، بدءا من وصولي إلى بغداد وانتهاء بأيامي القصيرة في منطقة الدورة. طردي من مكتب تكوين الواقع في محلة البتاوين وسط بغداد هو الذي جاء بي إلى

هنا. كما في مواقف سابقة، أحسست نفسي وحيدا في هذا الكون. وهذه ليست المرة الأولى التي يخالطني فيها هذا الشعور. قال لي مراد قامشلو الجملة ذاتها حين كنا في مهرجان شركة توبورغ. قالها تحت ذلك الجملون الأسطوري، عند أطراف منطقة فيردريكسبيرغ، الكوبنهاغنية، كما لو كان يتنبأ لي بحياة أخرى ينبغي لي أن أعيشها في قادم الأيام.

أعود إلى البيت خائبا، بعد أن انقطعت علاقتي بسرى، وسامر، ومكتب تكوين، وجريدة الخبر الدانماركية التي تصدر باللغة العربية، على أمل أن تصل النقود التي ستبعثها أختي من دمشق، لكي أغادر هذا البلد كما غادرته قبل اليوم أكثر من مرة. أغادر، أعود، أقرف من مواصلة الحياة، أتحمس للخروج، أسافر إلى دمشق، إلى عمان، إلى اسطنبول، إلى لبنان، إلى كوبنهاغن، ثم أرجع مرة أخرى إلى واحدة من هذه العواصم، دون أن أصل إلى قناعة في الإستقرار. اليوم مثلا عدت من المنصور دون أن أحصل على النقود. حين سألت مكتب سفريات الجزيرة قال لي لم يصل شيء باسمك، بينما أخبرتني أختي أنها بعثت النقود، وهي خمسمئة دولار، من مكتب السيدة زينب، حتى أنها أعطتني اسم السائق. لكن، رغم هذا الجزم، لم تصل الحوالة. هكذا عدت خائبا ثانية إلى البيت. وحين فتحت بابه الأسود واجهتني حرارة المدخل كأنها تطردني هي الأخرى، وكانت المماشي المغطاة بالبلاط الإيطالي تنث حرارة، وصف الياسمين المحيط بالمماشي ذبلت أوراقه.

الأشجار قرب السياج تستغيث من وهج هذا الصيف الإستثنائي الذي ضرب العاصمة. الشمس على وشك المغيب، ورغم ذلك لم

يخفف الأمر من حرارة الهواء، وضغط الرطوبة، ولزوجة العرق المنسكب في ثنايا الأجساد. السماء زرقاء تميل إلى اللون الخمري، وليس هناك غبار في الأفق. لم تكن لي شهية للأكل، وضعت قنينة الكوكاكولا في الثلاجة بعد ان كرعت منها كأسا كبيرة، ومضيت إلى الفراش الموضوع على سرير حديدي، وأدرت المروحة، فراح الهواء الحار يخفف قليلا من ثقل العرق المنسكب على وجهي وجسمي كله. فرحت بوجود الكهرباء فهي على الأقل تضيء لي الغرف والحديقة والمماشي والدرج الصاعد نحو السطح. وهذا البيت له سطحان، الأول يطل على الشارع والحديقة ومحاط بجدران البيتين المجاورين من اليمين والشمال، والثاني يكاد يقترب من رأس النخلة وذبالات الأشجار، ولا يحيطه سوى سياج يرتفع نصف متر تقريبا، أي لا يحجب نسمات الهواء إذا ما قررت الهبوب على البيت.

هذه الليلة وضعت فراشي على السطح الثاني، لكن الفراش سرعان ما تحول إلى قطعة قماش بليلة. حرارة الجو كانت تغلف الوجود كله، وبقيت ساعات أتقلب مراقبا النجوم البعيدة في سماء بغداد، وأحلم ببرد كوبنهاغن، وثلوج القطب، وإعصارات البرازيل. ومياه المطر التي بللتني ذات يوم في شوارع لندن، تلال الزبداني. وممرات البياض في وديان كردستان التي مشيناها أنا وصديقي نامق في طريقنا إلى طهران.

كانت أبراج الإنترنيت حول البيت تتغامز باللون الأحمر، ومن بعيد جدا كنت ألمح في الأفق أضواء عمارة عالية. لم أستطع النوم. حتى بدأ جامع سعد القريب من البيت يؤذن لصلاة الفجر، في هذه

الساعة فقط بدأت نسيمات خفيفة باردة تهب على السطح، تأتي من سعف النخلة، ومن غصون الزيتون، والبرتقال، والتوت. خطرت لي فكرة سريعة قبل أن يغمض جفناي، ماذا لو أنني رششت بمروحة مائية هائلة هذه الغصون، ألا يمكن أن أحصل على هواء بارد، أستطيع فيه النوم بلذة وسلام روحي؟ أجوس بين المطبخ والغرفة، وبين الغرفة والحديقة أروم صرف الوقت، إذ لم يعد يربطني بالعالم سوى التلفون، وكنت أضعه دائما في جيب بجامتي الخفيفة كي لا تفوتني أية مكالمة. أخشى أنني تحولت إلى كائن تلفوني. أحيانا أتخيل أن مكتب الجزيرة سيتصل بي حتى لو تجاوزت الساعة العاشرة مساء.

لم ينقطع أملي أيضا باتصال سرى. سرى التي خانت محبتي وانحازت إلى سامر، لقد غيرت رقمها فورا وفقدت الإتصال بها. كانت تحبني حقا، ولا بد أن يهزها العشق والذكريات للحديث معي. متأكد أنها تحتفظ بتلفوني خلسة عن سامر. فكرة تغيير رقم التلفون جاءت من قبل سامر بالتأكيد، لكي يتخلص مني نهائيا، بعد أن طردني من المكتب دون أي اعتبار لصداقتنا الممتدة أكثر من سبع سنوات. رسائله قادتني للرجوع إلى بغداد. رسائله التي كانت تصلني عبر البريد الإلكتروني على مدار سنتين كاملتين، سماها يوميات بغداد، نقلت لي صورا عن الحياة، عن صراع الميليشيات، عن النساء، عن تقولات الشارع فيما يخص الإحتلال الأميركي والحكومة، وعن علاقته بالبطة الجديدة التي أصبحت عشيقته. حرفيا سماها هكذا.

حين التقيت سرى بعد سنة، لم أجد شبها بينها وبين البطة. أثناء

ما كنت أسكن مع نادر في حي سوذهاون الدانماركي، كانت رسائل سامر الإنترنيتية غذاء يوميا لروحي وسط برد الشمال وثلوجه. كل ذلك ذهب هباء، وها أنا أجول في هذا البيت وحيدا، أنطر صوت سرى، لينقذني من الوحدة. وليعيد لي توازني الداخلي بعد أن فقدته بسببها. في هدوء الشارع العميق كنت أشعر بالخوف.

قبل خمس سنين لم تكن الدورة ملائمة للعيش، فهي من المناطق الساخنة، وكانت الجثث، كما قال لي صديقي هشام، تنتشر في شارع الميكانيك، وشارع آسيا، وفي منطقة الطعمة، وأصبحت الجثث مناظر مألوفة للسكان، وكان الذعر يسيطر على البشر ما أن تسقط الشمس خلف أبراج الدير الكلداني، ويهيمن السكون المميت. العائلات كلها تختبئ وراء الجدران.

كانت صفحة حزينة، ومقيتة، كما وصفها لي صديقي هشام. تلك الأحداث جعلتها خلفية لكل التقارير والمقالات التي أرسلتها إلى مراد قامشلو لينشرها في جريدة الخبر الدانماركية، ضمن المشروع الذي جئت من أجله، أي مشروع (أرشيف العنف). اليوم لم يعد المشروع يثيرني، لقد انقطعت السبل مع مراد قامشلو، ولا أعرف بالضبط ما الذي حصل. توقف منذ شهرين تقريبا عن امدادي بالنقود كما اتفقنا، ولم يعد يرد على رسائلي الإلكترونية، كما أنه لم يرد على تلفوني. وحين اتصلت بنامق، قبل موته، أخبرني أن الجريدة ربما توقفت عن الصدور فهو لم يعد يراها في دكاكين نوربرو. وفيستربرو، كما أن نادر هو الآخر لم يرها منذ زمن. لكل ذلك أعيش بقوقعة من اليأس والإحباط.

الظلمة تحيط بحياتي من جوانبها كافة. ما عاد لي سوى ذكريات

بعيدة عن مدن، وأشخاص، ونساء، أسترجعها كلما نمت في سطح هذا البيت، أو في الحديقة، متقلبا من الحرارة، محدقا في النجوم، ومسافرا إليها، باحثا عن معنى لهذه التجربة الزائلة. أضواء الأبراج تبدو لي أحيانا نجوما هي الأخرى، في المسافة الفاصلة بين النوم واليقظة. نجوم على قدر قامة الجنس البشري هي أبراج الانترنيت المتغامزة في فضاءات بغداد. هذه الليلة سأقضيها في الحديقة، فكرت مع نفسي وأنا اشرب كؤوس الكوكاكولا الباردة، وأدخن الجيتان الرفيع، متنقلا بين المطبخ والغرفة والحديقة والسطح الأول والثاني، متسمعا نبض هذه المنطقة، وما تفرزه من مخاوف وحكايات.

قبل أن تنقطع الكهرباء الوطنية أخرجت التخت الخشبي من الغرفة، ووضعته في وسط الحديقة. أخبرني هشام أن البيت ليس مشتركا بمولد الكهرباء في المنطقة، لذلك ليس هناك سوى الكهرباء الوطنية. الكهرباء التي لا يمكن حفظ إيقاعاتها، هذا ما قالته خبرتي منذ أن كنت مقيما في (شقة تكوين) وسط منطقة البتاوين. جلبت الحشية الإسفنجية التي اشتريتها حينما كنت في تكوين، هي والمخدة، وفرشتها على التخت. سأنام وسط الحديقة، ولن آبه لما يحدث في الليل. كان سياج الحديقة غير عال، وكانت أشجار التوت والبرتقال والورد البري تكلكل على السياج، وتشكل حاجزا نباتيا بيني وبين الشارع، بيني وبين الجيران. الخوف من الموت اختفى من روحي إذ توصلت إلى قناعة راسخة هي أن الجميع سيموت، والفرق سواء كان بضع سنوات أو بضعة قرون، لا يعني شيئا، ما دام الموت يدرككم حتى لو كنتم في بروج مشيدة. أسوا ما سيقع لي هو

أن يتسلل لص إلى البيت ويفاجئني في الحديقة فيقوم بقتلي أو ضربي على رأسي فأفقد الوعي مباشرة، دون ألم. لكن هذه الإحتمالية بعيدة كوني غير ثري ولا أمتلك أعداء، كما أن الجيران لا يعرفون عني شيئا. اقامتي في البيت لن تطول بالتأكيد، هذه مرحلة أخرى من مراحل حياتي انتهت، وعليّ الإنتقال إلى مرحلة تالية، كما قمت بذلك واعتدته منذ ثلاثين سنة، أي منذ أن خرجت ونامق إلى جبال كردستان.

الموت لم يعد يخيفني، شاهدته يختطف نامق صديق عمري لثلاثين سنة، وشاهدته يختطف أخي كمال، وأبي وجدي، وخالتي. وعدد لا يستهان به من المعارف. لذلك لن أخاف إذا ما فرشت فراشي في الحديقة ونمت كما لو كنت طيرا ليليا حاذقا. كما لو كنت بومة تختبئ بين كتلة كثيفة من الأغصان. الهواء مفقود في الحديقة. وأسمع حركة للعصافير في أعالي الشجر، ومنذ لحظات انقطعت الخطى في الشارع، ودخل الجيران إلى حياتهم الخاصة، وكان الهدوء العميق ينتشر في حنايا الدورة وساحاتها، ويخيم على أبراج الدير وجدرانه الفخمة.

من مكان ما رحت أسمع أصوات قداس مسيحي، وأجراس كنيسة، وأشم بخورا من مكان ثان، وحشرجات لجرحى وتنهدات لأرقين فارقهم النوم وترك الكوابيس فقط بين أضلعهم.

وكنت جالسا على التخت بعد أن سقط البيت في ظلام دامس. كان بيتي هو البيت المظلم الوحيد في الشارع. في الظلام تخف الحرارة قليلا، أو هذا ما يوحي به الظلام في الصيف الحارق. النوم

مستحيل. انتظار الغد طويل. سأتصل بمكتب الجزيرة صباحا، لعل وعسى. هذا اليوم حين كنت في حي المنصور تجولت في شارع الداوودي، قلت ربما ألمح سرى صدفة، قد تكون في زيارة إلى أهلها. رغم الحرارة القاتلة تجولت أكثر من ساعة في الشارع الرئيسي والطرق الفرعية وبين البيوت. دون جدوى. أغصان البرتقال متهدلة، والصمت يلف واجهات البيوت، والمارة منكسرو النظرات، والصبات الكونكريتية تسد معظم الشوارع الفرعية. ولمحت التوجس والشك في كل العيون التي قابلتها. لم ألمح سرى.

كان الحر يتساقط علي من أغصان شجرة الزيتون، ومن سعفات النخلة، وأشعر به يتصاعد من الأرض السبخة ذات الأعشاب القليلة. الحرارة تطوقني من الجهات كلها. فكرت بالصعود إلى السطح لكنني تذكرت ما عانيته من حر وعرق وأفكار. واتتني الفكرة. الماء هنا مجانا. لا أحد يدفع فواتير ماء أو كهرباء. قمت من مكاني وجلبت صوندة المياه، وكانت مياه المنطقة قوية في هذه اللحظة. نزعت بجامتي، وبقيت في لباسي الداخلي، ووجهت المياه إلى جسدي، وأحسست بالراحة، ثم بدأت برش الآس النابت على جانبي ممرات البيت. مياه نظيفة، مياه باردة، قادمة من دجلة، تتغلغل بين أشجار الآس، وأنا أقف مثل شبح أجول في الممرات، وأوجه المياه إلى أغصان شجرة الزيتون، إلى كرب النخلة، إلى شجرة ورد الثور، إلى الممرات الخرسانية، وتقع في الجانب الغربي من الحديقة، وأسمع هسهسة الطيور الليلية، بين ثمرات الزيتون المكتنزة. لكنني أبدا لا أتغاضى عن صوت بعيد سيرن في أذني. تليفوني وضعته على طاولة المطبخ البلاستيكية. عادة ما أفعل ذلك

حين أعود إلى البيت. مهما مشيت في الصالون، وصعدت إلى السطح، وشاهدت أفلام الرعب على قناة أم بي سي تو، أنا المولع بها، إلا أن سمعي يصيخ بتركيز إلى رنة التلفون.

كانت هناك رنة واحدة أنتظرها، رنة سرى. لا الأصدقاء، لا الأهل، لا الأقرباء. هنالك امرأة واحدة في الكون اسمها سرى. وهج الغيرة يشع ساخنا في قلبي. لقد فاز بها صديقي. من المصادفات الغريبة أنني احتضنت سرى، وضممتها إلى قلبي، قبل أن أعرفها جيدا. هل كانت تلك الواقعة نبوءة غيبية بولادة علاقة حميمة معها؟ حصل ذلك بعد أيام من ترددي على الجريدة. حين فقدت الوعي. أستعيد السيناريو مرة ثانية. كان أشبه بحلم لذيذ. عطرها الخفيف لم يبرح أنفي بعد ذلك. أتنسمه الآن وأنا أحدق في عالمي الذي يمضي متربثا إلى النهاية. عالمي المشغول بمئات النساء، وآلاف العطور، وملايين المشاعر التي عشتها خلال الخمسين سنة من عمري. أركز ذهني وأستجمع قواي الروحية وأخاطبها في الهواء لكي تتصل. أستعيد همساتها، ونار روحها وهي تحدثني عن عشقها لي، وأرسل ذلك إلى المسافات البعيدة كي تلتقطها سرى، تهاتفني عن اللحظات الفائتة التي كانت مليئة بالعشق.

في زاوية صغيرة من روحي كنت أؤمن بنظرية التخاطر عن بعد. الإنسان وقواه الخفية. كنت بالمحصلة في انتظار ليلي دائم لإتصال سرى. الإتصال الذي مر عليه نهارات كثيرة لكنه لم يأت. كنت أتقى على نار هادئة من العشق، والفقدان، والوحدة. تلك حالة لم أظن أنني لابث فيها بعد أن اجتزت هذا العمر، لكنها تحدث في الواقع. كيف يمكن أن تنقلب امرأة من عاشقة إلى عدوة في يوم واحد؟ هذ

ما لم أفهمه حتى الآن. أعتقد أنه آخر حب في حياتي. الحب يرتبط بالوحدة عادة، حين يعشق المرء يتخلى عن معارفه كلهم، يظل وحيدا مع طيف تلك المرأة التي يعشقها. يصبح فقدانها توحدا كاملا، وهذا ما جعلتني سرى أعيشه. أنا وحيد في هذه المدينة القاتلة، الخطرة، المتوحشة، أرشيف العنف اللامتناهي الصفحات. لا أحس أنني أتكامل إلا مع امرأة اسمها سرى.

في محاذاة الشارع تتراص الوردة البرية مع البرتقال والتوت وكلها كونت كتلة سوداء من الأغصان، راحت المياه تتغلغل بين ثناياها، وكانت قطرات المياه تتساقط على وجهي وجسدي لأعيش تجليات مائية رائقة. أبلل جذع النخلة، وساق التوت الغليظ، وأبر البرتقال، وأزاهير شجرة الورد الحمراء، وحين أدور مرات ومرات على الشجر في الحديقة أبدأ بتنسم رائحة الأرض الطينية، وتبدأ النسمات الخفيفة تهب على وجهي. وضعت الصوندة على الأرض، وتركت الماء يبلل التراب الحار. سيبلله ساعة بعد ساعة حتى تخرج الحرارة نحو الفضاء وتبتعد عن سريري. ما زال السرير حارا. المياه تسيل في الحديقة لتكون خلال الساعات القادمة بحيرة مائية ينفرش عليها سريري الخشبي. نامت سرى بالتأكيد، ولا بد أنها اتصلت بسامر قبل أن تودع الليلة، هل تكلما عني؟ هل ضحكا من عواطفي الجادة والعميقة؟ وهل عرفت رشا زوجة سامر بالعلاقة الحميمة بين زوجها وهذه المرأة الصغيرة الشبيهة الوجه بالأميرة دايانا؟ هل أتصل بها وأخبرها بالحقيقة بدافع الإنتقام؟ لكن هل يمكنني النزول إلى هذا المستوى من الإنحطاط البشري؟

ما فتئت التساؤلات تدور في رأسي وأنا أستجدي النوم فلا أفلح.

كلما غفوت لحظة نبهني العرق وسخونة الفراش إلى ليل الدورة الشبيه بالنفق الطيني، إلى الحيوات الغامضة المنتفضة في قاع الحديقة. كل ما يحيط بي مبلل لكن الهواء ظل ساخنا، رطبا، لزجا. قلت لنفسي بلل السرير. وهكذا فعلت، ورششت المخدة والحشية الإسفنجية، وخشب التخت، ووضعت علبة الدخان والقداحة على طرف التخت اليابس. وضعت جسدي في هذا البلل، في هذا الحيز الرطب، وكان الحيز منعشا، وكانت النجوم تتغامز في السماء، وثمة أصوات لسيارات شرطة تتردد في مسافات بعيدة، وثمة كلب ينبح قادم من منطقة آسيا. وفم سامر الضاحك يرشني بالشماتة. جاءت إلى خيالي الرطب تلك الصورة العتيقة التي أخرجها نامق من أرشيفه العتيق، وكنا جالسين في مطبخهم ذات يوم، وتأملت شكلي فيها. أخذت الصورة لي وأنا أدخن سجائر البهمن في أوردكاه كرج، أرتدي لباسا كرديا فضفاضا، وعلامات الضجر واللامبالاة ترتسم على وجهي. أخذت قبل يوم واحد من استلامنا لموافقة السفر إلى سوريا، أخبرني نامق. كم تغير شكلي اليوم عن تلك السنوات. قال لي نامق لقد صورت أكثر من صورة، لك ولنا مجتمعين أنا وأنت ونادر، لكن بعض الصور ضاعت خلال انتقالاتنا من بلد إلى آخر، ومن مدينة إلى أخرى. كانت سرى فتاة صغيرة في ذلك الوقت.

سمعت، ذاهلا، نهيق حمار صادرا من ثنايا عصر رعوي غائر في القدم. ضوء شحيح قادم من الجيران كان ينعكس على البحيرة الضحلة المحيطة بي. برق خبا في رأسي، ثم أعقبه ضباب كثيف لفّع كل شيء.

(٢٠)

في الليلة الثانية كررت السيناريو ذاته، إلى أن أصبت بالتهاب في أذني اليسرى من الرطوبة. يوما بعد يوم أنام في فراش بليل، أترك الماء نهارا وليلا تغمر أرض الحديقة، وأستعيد حياتي، وموت نامق، وأخي كمال الذي قتله انفجار مباغت، وقطيعة مراد قامشلو، حتى تحولت فعلا إلى ريشة في مهب الريح. فقد جسدي ثقله المعنوي، ووجدتني ألتم وأتقوقع تمهيدا للوصول إلى نقطة الصفر البشري. نقطة الصفر المتلازمة مع فقدان الكثافة والوزن والحركة. لا أريد أن أصبح مثل صديقي الشاعر سنان، إذ من الإجحاف أن يحيا المرء بهيئة دودة عملاقة. صدق حديثه حين وصف سرى بالقفّاصة، التسمية التي تعني النصاب بذكاء. هذه المهنة انتشرت في العراق بشكل مرعب. قال لي أيضا بحرقة في ذلك النهار، بغرفته في منطقة القصر الأبيض، هذا بلد لم يخلق للبشر، إنه واحة القتلة، فلماذا تعود إليه كل مرة؟

وفي ظهيرة حارة، خانقة، دبقة، اتصل بي مكتب الجزيرة، الواقع في شارع معرض بغداد الدولي، وكنت أتجول حينها في سوق الصدرية متفقدا أنواع السمك، وحركة البشر، تائها بين الكائنات العجيبة بملابسها، وتعابيرها، وروائحها، وأصواتها، مثل

ممسوس. وقال لي صوت ناعس لامبال: لقد وصلت الحوالة. بوصول الحوالة من أختي انغلقت دائرة حياتي. سأرحل. الحياة التي امتدت ما يقرب السبعة أشهر، أم هي سنة كاملة؟ كانت مليئة بالحكايات.

لن أخرج عن طريق الجبل هذه المرة.

لم يعد هناك شخص يدعى نامق لمرافقتي ثانية.

لكنني قبل أن أغادر مسرح هذه الحياة لا بد لي أن أروي حكايتي الطويلة مع نامق. الفترة التي قضيتها معه في كوبنهاغن لم تكن سوى فصل صغير من رحلة طويلة. قبل يوم من مغادرتي لكوبنهاغن أخبرني نامق أنه يفكر بزيارة العراق، غير أنه هذه المرة لا يود البقاء عند أخيه في حي العامل، إذا ما وجدت سكنا ملائما في بغداد سيقضي فترة زيارته معي في الشقة. وسنستعيد أوقاتنا البهيجة في بارات السعدون وأبي نؤاس والكرادة، سوية مع سامر والشاعر سنان وباقي المعارف.

الرحلة انتهت به إلى الموت، ذلك البياض المجهول العصي على المعرفة. ورحلتي أنا قد لا تطول أيضا، حيث أنني فقدت الإحساس بالزمن، واختلطت عندي الأمكنة. فمثلما كان خبر موت نامق مباغتا، غير متوقع، كانت لحظة لقائه أيضا. اللحظة الحرجة. والغريبة، التي لا تحدث إلا كل قرن مرة. كانت الحرب مع إيران في سنواتها الأولى. وحياتنا في تلك الأيام تغلي مثل قدر من المياه. بعد رحلة استمرت حوالي أسبوع، من بغداد إلى السليمانية، مرور بالقرى الجبلية، مقادا من قبل مهربين وثوار لا أعرفهم، وصلت إلى فسحة واسعة بين جبلين، ولفت المرافق نظري ونحن ننحدر من جبل

إلى سفح، إلى بناية من الحجر، لم تكن ضخمة كما أنها لم تكن صغيرة. قربها أشجار عالية وواد صغير يسيل فيه الماء من عين جبلية لا ترى، وقال لي ذاك هو المقر. مقر الثوار الذين يقاتلون جيش الحكومة، ويلتجئون إلى هذا المكان رافضين الحرب، والظلم، والتمييز القومي. ستبقى هناك.

المنطقة كردية مئة بالمئة. والمسلحون كما شاهدناهم في طريق الوصول إلى المقر ينتشرون بين الصخور وعند الأشجار، وعلى حافة الجدول. قال لي المرافق ستعيش هنا فترة، اذا أعجبك البقاء تبقى وإذا نفرت من الحياة يمكنك البحث عن طريق آخر. لم يوضح لي المرافق ما يعنيه بالطريق الآخر. كنا اثنين فقط، أنا ومرافقي، وحين اقتربنا من المقر جذب وجودنا معظم الحاضرين فاحتاطوا بنا لإستطلاع الأمر. تكلم معهم مرافقي باللغة الكردية، أخبرهم عن المصدر الذي أوصلني اليهم، ومقدار الثقة التي أتمتع بها من الناحية الأمنية. كان معي حقيبة سفر صغيرة، وضعت بها ملابسي المدنية المتكونة من بنطال وقميص صيفي وجوارب وحذاء خفيف، مع هويتي الشخصية ومبلغ ضئيل من المال للظروف الطارئة.

شكلي كان كالتالي: رجل يحمل حقيبة معلقة على الكتف بحزام طويل، يرتدي ملابس فلاحية كردية، فضفاضة، فلا يمكن لشخص قادم من بغداد ارتداء الملابس الحديثة بين هذه الطبيعة الجبلية القاسية. شعر الذقن خفيف، والرأس محلوق والعينان سوداوان فيهما خوف وترقب وقلق. عدا ذلك، يمكن لأية مفرزة جيش تراني بين الجبال تظن أنني واحد من الفلاحين.

ارتحلت إلى الجبال صيفا. شاهدت كثيرا من بساتين العنب والتين

في القرى التي عبرنا منها. وأشار لي المهربون والمرافقون، الذين تناوبوا على قيادتي نحو المقر، إلى آثار حرائق أحدثها قصف الجيش، وشاهدت القرى المهجورة والقرى التي ما زالت تعيش في مساكنها. كنت خلال تلك الأيام الخمسة التي استغرقتها الرحلة للوصول إلى المقر وكأنني أعود إلى الماضي عبر آلة زمن غير مرئية. وسط تلك الجبال يخرج المرء من الحاضر تماما. وكان ذلك الحاضر، في مكان ناء عني. تلك سنة وضعت فيها بين حقل من الألغام: كانت هناك حرب. وكان هناك قتال بين الأكراد والحكومة المركزية. وكان هناك موت يتجول على الجبهات وفي الشوارع وداخل السجون. هربت من الجبهة بأوراق مزورة إلى جبال الأكراد محاولة ناجحة للتملص من مخالب الموت. الأيام الخمسة التي عشتها مسافرا في عمق الجبال وسعت كثيرا من مداركي البصرية وأحاسيسي في النظر إلى البشر. وكأنها اختصرت سنين الكوابيس التي قضيتها في جبهات القتال.

آخر ما كنت أفكر فيه هو أن ألتقي بنامق، وفي ذلك المقر المنزوي بين الجبال.

ونامق من سكنة علاوي الحلة، في محلة الدوريين، قضى طفولته هناك، وشبابه، وتعرفت عليه في مقهى الزهاوي في شارع الرشيد. ذات يوم بعيد. عقدة حياة نامق ومأساته، هو أنه كردي فيلي. اعتبرته السلطات إيرانيا فسفرت بعض من عائلته إلى الحدود واستطاع هو الإفلات بطريقة ما، ونفذ إلى جبال كردستان. تعرفت على نامق في بداية الحرب مع إيران، وكان مع أصدقاء آخرين رفاق مقاه وبارات وشوارع، لم أستطع تحديد اللحظة التي جعلت الثقة

بيننا مطلقة لا تخضع للظروف. ربما كانت الحوارات التي دارت بيننا في مقهى الزهاوي ومقهى البرلمان ومشرب جبهة النهر لاحقا، وربما لحظات الثمل الشديد حين ترفع الستر وتزول الموانع ويعرض الشخص روحه عارية. جرى ذلك في بار السعدون وجبهة النهر ومقهى البرلمان وصالات السينما التي ارتدناها سوية بعد السكر الشديد في بارات شارع الرشيد. بعد اكتساب تلك الثقة أخذ يحدثني عن خطط خرافية للخروج، لم يحددها لي بدقة، لكنه كان يحدثني عن الأهوار والمتمردين هناك، ويحدثني عن الجبال، والمعارك بين الثوار وجيش الحكومة، ويحدثني عن أشخاص غامروا بالهروب عبر الصحاري إلى الكويت أو سورية، ثم وصلت بهم المغامرة إلى سهوب هولندا وجبال السويد وميتروات لندن.

ظل طوال سنتين من معرفتي به مهووسا بحديث الخروج من البلد. كنت أنا أنهيت دراستي التي استغرقت ثماني سنوات في كلية الآداب، تلك الكلية الواقعة في باب المعظم، وفي بداية التحاقي جبهة الحرب. أما نامق فأكمل كلية الآداب فرع التاريخ في جامعة الموصل ولم يلتحق بالجيش، وظل هاربا يحمل أوراقا مزورة. وذات يوم عدت من إجازتي في الجبهة وبحثت عن نامق في كل مكان أعرفه فلم أقع له على أثر. سألت عنه المعارف المشتركين، إلا أن احدا لم يرضني بجواب شاف. توغلت في سوق السراي، وأنا أنظر الوجوه، وأتوسم العيون التي تدلني عليه. كانت هناك حقائب الأطفال، وكتب التلاميذ، والمماسح المصنوعة من البلاستك. كانت هناك أقلام الرصاص والماجك والدفاتر الملونة، وذلك العالم الساحر الذي يغري التلاميذ. وكان هناك بائع الكبة في

زاوية الشارع، تناولت في مطعمه قرصا تفوح منها البهارات، وتمتعت بالطرشي الحاد، وتأملت بأفواه الآكلين وهي تتلذذ بطحن الكبة. مصريون، عراقيون، صوماليون، أرتيريون، سودانيون وكأن أطياف بغداد تجتمع في هذا المكان، المسمى كبة السراي. الجميع هناك. ونامق لم أقع له على أثر.

بحثت عنه في بارات شارع السعدون وفي صالات السينما وعند المقاهي الشعبية في ساحة المربعة، وفي سوق الشورجة وسوق الصدرية عند محلات بيع الباجة ومعاليق الغنم، لكنه تبخر مثل حبة برد في صيف ساخن. تلك السنة فقدنا فيها أي ثقة بيننا، فكان إذا التقيت صديقا لم تره منذ سنة أو سنتين لا يمكنك أن تبوح له بأسرارك، أين تنام وأين تعمل وكيف تقضي أوقاتك. كانت الحرب، وزواياها العنيفة، قد محت الثقة من أرواحنا تماما. وبعد ما يقرب الشهرين من اختفاء نامق من حياتي رتبت أنا خروجي من بغداد نحو جبال كردستان. حين أقول، رتبت، وهي كلمة واحدة، لكنها تختزل الكثير. من الذي رتبت معه، وأين، وكيف تعرفت على الشخص المعني، وأين التقيت به، وكيف منحني الثقة، ولماذا، وكلها أسئلة تختفي وراء كلمة رتبت. لمن يهتم بالتفاصيل كلمة رتبت لا تعني شيئا في ذلك العام، أي العام الذي سبق الحرب.

صديقي الذي رتبت معه الهروب إلى كردستان كان من مدينة خانقين. تحرير. هذا الاسم سيظل عالقا في ذاكرتي حتى أموت. هل يمكنك مقابلة شخص يحمل اسم تحرير كل يوم؟ خاصة إذا كنت تعيش في العراق، وفي بغداد تحديدا؟ تحرير كردي من خانقين. مهندس مدني. ولكنني طوال رحلتي في الجبال لم يغب نامق عن

ذاكرتي، أناجيه مع روحي عند عيون الماء وعبر المنحدرات الجبلية وفوق ذرى الجبال، وأخبره بفرح أنني أنجزت ما كان يحلم هو به، أي المغادرة. حتى تلك اللحظة كنت متيقنا أن نامق مختبئ في منطقة من مناطق بغداد، إذ له أقرباء في مدينة الشعلة، وفي البياع، وحتى في المناطق النائية القريبة من بعقوبة.

كان لقائي بنامق في ذلك المقر كمن يلتقي بشبح شخص مات منذ سنين، ثم تجسد أمامه بلحم، ودم، وعظام. حدث ذلك حين تم تعريفي للموجودين أمام باب المقر، وسط الساحة الصغيرة، وبعد أن طلبوا مني الدخول دلفت وراء أحد المسؤولين، إلى الصالة الواسعة المعتمة. لقد وصلنا ظهرا تقريبا، وكانت شمس النهار ساطعة. وضعت الأفرشة على طول الجدران، ووجدنا بضعة أشخاص ممددين هناك، لكنهم ما إن سمعوا الضوضاء والضجة حتى استيقظوا. استيقظوا مذعورين، وهم يتلفتون حولهم يراقبون الوجوه الداخلة. لم أستطع التعرف على نامق، لأول وهلة، وهو واحد من الذين كانوا ممددين على الأفرشة، لكنني بعد أن دققت جيدا جذبت نظري عيناه اللتان أعرفهما جيدا. تعرفت عليه من عينيه المنتفختين البارزتين في وجهه، مع أنه أطلق لحيته، لكنني ميزت تلك الجبهة الضيقة والعينين التتريتين، وميزت شعره السرح الكث، فصحت بغتة بصوت عال نامق نامق، وتعانقنا بقوة وسط ذهول الحاضرين.

روى لي بعد ذلك قصة اختفائه من بغداد ووصوله إلى هنا، وكنا جلوسا على حافة ساقية جبلية تمر قريبا من مقر الثوار. ليلة مقمرة، تظهر الجبال من بعيد وكأنها عماليق نازلة من السماء، وعدا أضواء

النجوم المتناثرة في سماء قريبة منا لم يكن ثمة ضوء في الجوار. حتى المقر أطفئت أضواؤه لأسباب أمنية، وكنا نسمع أحيانا صوت الحرس وهو ينبه على حيوان ليلي أو ضيف مفاجئ من القرى المجاورة. حدثته عن رحلتي التي ابتدأت من بغداد مرورا بالسليمانية ثم المسير عبر الجبال مع المهربين والأدلاء. كانت رؤية نامق للوضع أنه ميئوس منه، وهو يفكر بالذهاب إلى إيران، هناك قسم من عائلته ويود الإلتحاق بهم. من جانبي كنت متحمسا للبقاء هنا وانتظار انتهاء الحرب ثم الرجوع إلى بغداد.

المقر هامد، الموجودون حسب ما قال لي نامق ينامون باكرا، لكي يفيقوا في الفجر للذهاب إلى العمل. قال إنهم يبنون مقرا شتويا على بعد عدة كيلومترات، وهو يساهم معهم في البناء. وأخبرني عن بعض الأشخاص الذين توطدت معهم علاقته وصاروا أصدقاء. يقضي معهم الليالي في مناقشة ما يجري. بين الجبال الهدوء هو السائد، لولا الخرير الخافت للمياه تجري بين الصخور، وخشخشة حيوانات برية تفتش عن طعام. نامق كعادته يدخن كثيرا، ويطقطق بمسبحته ويتنحنح بين فترة وأخرى كما لو كان يتأهب لقول أمر مهم. هو ذاته نامق الذي عرفته، فيما تخمر الحزن في صوته إلى حد يشعرك بعجز الكلمات من الخروج. نامق لم يكن يعرف صديقي تحرير الذي أوصلني إلى السليمانية. نامق غادر إلى المجهول قبل أن تتعمق علاقتي بتحرير الخانقيني. ومن جانبي شعرت وكأنني في حلم.

الليل الجبلي يحيط بي، وفي الهواء برودة خفيفة رغم أننا في آب، ونحن نجلس بعيدين عن الحضارة مئات الأميال، تحيط بنا عرائش العنب وأشجار التين التي لا نراها لكنها موجودة عند

السفوح وفي مهاوي الوديان السحيقة. والزمن بطيء يسير بين الصخور والكهوف غير عابئ بالبشر وحروبهم. أنظر إلى السماء وأستغرب من وجود هذا الكم الهائل من النجوم والمجرات، كم لم نره يوما في سماوات المدن، وهذا ربما ما يجعل المرء يسمع الأفكار تترى في رأس جليسه، ويشم رائحتها من بعيد. الصباحات هنا رائعة وكأنك في جنة خيالية، والبشر يبدون ضعفاء، ومساكين، وسط ضخامة الجبال واتساع السهول والسفوح. لكل جبل حكاية ولكل صخرة تاريخ، كما أن لكل شجرة تين قصة طويلة، هي قصة هؤلاء الناس الذين استقروا هنا منذ آلاف السنين. لكنها ليست حياتنا. نحن عشنا في مدينة، ولا نستطيع العودة إلى الطبيعة. حتى لو استمتعنا فترة لكن نداء المدينة يظل في أعماقنا. الكتب هنا نادرة. والخمور ممنوعة. حديث الثورة يطغى على كل شيء. إما النساء فصفر مجرد.

في تلك الليلة غصت ونامق في حديث طويل عن جمالية الطبيعة والعيش في أحضانها، والهدوء الروحي الذي يستولي على الإنسان حين يعيش أياما وشهورا في هذا المكان. وقال لي قبل أن ننام: إن هناك حياة جديدة ينبغي علي معرفتها وتعلمها وتذكرها، حياة تختلف عن التي عشناها في هذا البلد. الحياة هي في مكان آخر، وما علينا سوى البحث عنها، المغامرة لنيلها، وأحيانا يمكن للمرء أن يموت كي يحقق هذا الحلم. روى لي قصصا عن مهاجرين نجحوا في الخروج من الشرق ووصلوا إلى أوربا وأميركا وكندا وأستراليا. وأخبرني أنهم سيأخذونني معهم فجرا إلى المقر الجديد لكي أشارك في البناء، على الأقل كي أحس أنني أصبحت ثائرا في هذه البقعة

المنسية من العالم. لكن في الليلة الثانية من وصولي، وضعت على المحك. قال لي آزاد، وهو مسؤول في المقر، عليك تجهيز حالك الليلة لكي تحدث الثوار عن بغداد، وعن المحافظات الجنوبية، والأهوار وثورتها، وتعطي صورة عما يجري هناك في الداخل.

وبين التردد والخوف والواجب وتشجيع نامق قبلت بالمهمة وهيأت نفسي لها. تجمع في صالة المقر الواسعة معظم الموجودين، عدا الحراس والمرضى، ورحت أعطيهم ملخصا عن الوضع: هناك تذمر واسع بين فئات الشعب من الحرب. العراقيون في الجبهات والأغراب يستمتعون بخيرات الوطن، ويحولون العملة الصعبة إلى بلدهم. ثمة حركة معارضة عسكرية في الأهوار الجنوبية، وهناك مناطق لم يعد للنظام سلطة عليها، وقد أصبحت تلك الأماكن نقطة جذب للهاربين من الجبهات، وللمعارضين. آلاف القتلى المجلوبين من الجبهات بدأوا يثيرون تذمرا لدى الشعب، فالحرب عبثية لا تعني أي شيء. المقابر امتلأت، الأرامل صرن في كل زقاق وشارع، الأسعار شرعت ترتفع بشكل صاروخي، الوشايات وكتابة التقارير سادت حتى ضمن الأسرة الواحدة. الرعب شعار الجميع. هذا هو الإحساس العام. كما أن أخبار الثوار، تصل إلى كافة المناطق، وهناك من يستمع إلى إذاعة الثوار من كردستان، باللغة العربية، ويحلم بالمشاركة في العمليات ضد السلطة.

كان نامق يجلس جنبي، وكانت العيون تتطلع الي بفضول، أنا القادم من بغداد، الرافض للحرب، الرافض لحكم البعث، الرافض لهذه الحياة التي نحياها، الباحث مثل نامق عن مدينة الحلم.

حديثك عما يجري في الداخل أبعد أي شك بولائك للثوار، قال

لي نامق. إن المرء يكشف من خلال كلمة، وجهة نظر، رمشة عين، تعبير وجه، وهذا ما استطعت تحقيقه لدى المقاتلين. رأوا الحماس الكبير للثورة القائمة في الجبال، ولمسوا كرهك للحرب، ولمسوا من خلال تحليلاتك النظرية ذلك العداء الشامل، الآيديولوجي لكل التشكيلة الحاكمة. الثوار وثقوا بك مئة في المئة، ولا تستغرب أنهم سيحاولون الإحتفاظ بك هنا. هكذا بدأت حياتي الجديدة بين الجبال. أنا ونامق متلازمان منذ الصباح وحتى ساعة النوم قرب مطبخ المقر. لم تكن الحياة سهلة، وشعور أننا في المكان الخطأ ظل طاغيا على كلينا. ثمة شيء ناقص في ما نحياه. لا ندري ما هو.

ننهض عند بزوغ الفجر، ونرى ظلال الصخور البعيدة، ومغاور الكهوف حول المكان، نسمع تغريد طيور في الأشجار المبعثرة حول النهير الصغير الجاري. ونشاهد الحرس الليلي جالسا على صخرة تبعد خمسين مترا عن بنايات المقر، ويستيقظ المكلفون باعداد الفطور، وعادة ما يكون الشاي والخبز عنصره الأساسي، إضافة إلى اللبن الرائب وبعض الجبن، المجلوب من قرى الفلاحين القريبة. وقال لي نامق هم يطبخون شوربة العدس في بعض الأحيان. في كل صباح، وبعد أن نتناول فطورنا نمضي بمجموعة تزيد على العشرين في طريق يتغلغل بين الجبال، على مسافة ساعة تقريبا. وهناك خطط القادة بناية المقر الشتوي. الصخور من الجبل، والملاط طين الأرض المخلوط بالتبن، والسقوف قضبان خشبية من البلوط أو السنديان أو العفص، وهي أشجار متوفرة في الجبال، تستخدم أيضا للنار في الشتاء.

فعلا بدأت إشارات الشتاء تظهر في السماء. تظهر على شكل

غيوم بيض، في البداية تتطاير فوق الرؤوس الصخرية البعيدة، ثم لتختفي عند ساعات العصر. أنا ونامق نشارك برفع الحجارة أو خلط الطين أو تهيئة القضبان المستخدمة لسقوف الشبابيك والأبواب، فيما ينشغل الجميع بعملهم حتى الظهيرة. في الظهيرة ينتهي العمل ونعود إلى المقر الصيفي لكي نتناول الغداء، وعادة ما يكون الجوع قد فعل فعله في أجسادنا المنهكة. حياة روتينية تتشابه يوما بعد يوم، خاصة وأننا لم ندخل في الفصيل العسكري الذي ينفذ مهمات خاصة ضد القوات الحكومية المنتشرة على شكل ربايا في رؤوس الجبال، وعند أطراف المدن. كانت المجالس الليلية هي الأمتع في هذه الحياة الجديدة.

يجلس المقاتلون جماعات جماعات حسب العلاقة المتينة بينهم ويسمرون وسط الليل والأشجار والنجوم، فيما دخان سجائرهم يتصاعد إلى الفضاء حاملا معه هموما كثيرة تتوزع بين السياسة والسفر والجنس والحوارات المتشعبة عن أوضاع الحرب الدائرة وحركة النزوح الواسعة التي تجري من المدن نحو الجبال والدول المجاورة. أسر لي نامق في أكثر من جلسة أنه غير مقتنع بهذه الحياة، وهو يرغب في مواصلة طريقه باتجاه ايران، فلا فائدة، حسب تعبيره، من البقاء خارج المدن. حياة عقيمة كان يقول، لا تلائمني. كان يفكر بالوصول إلى أهله وأقربائه في مدينة كرمانشاه. ولا يمكنه تنفيذ ذلك إلا بالوصول إلى طهران. سئمت من الحروب والخوف وأرغب في الاستقرار بقية حياتي، كان يقول لي مرارا وتكرارا. لا أريد أن أدفن بين هذه الجبال.

وذات يوم انتشر خبر بيننا حول سفرة إلى سوق قريب عند

الحدود، سيقوم بها الفصيل، ومن يرغب بالذهاب يمكنه تسجيل نفسه لدى المسؤول عن المقر. أول المسجلين كنا أنا ونامق، والسوق سمعنا أخبارا مثيرة عنه. سننتهز الفرصة ونمر على قريب لي يسكن مؤقتا في قرية تجاور السوق اسمها بيوران. سيدبر لنا طريقة للذهاب إلى طهران. وافقته الرأي، ومع نفسي قررت أن أجعل نامق قائدا لي في مسيرة حياتنا الغريبة هذه. فعلا تمت السفرة وتمت الموافقة علي وعلى نامق للذهاب إلى هناك. طلب مني نامق حمل حاجياتي كلها، فلن نعود إلى هذا المكان. ربما من هناك، من السوق، يمكننا الهروب إلى ايران. لا داعي للرجوع ثانية إلى المقر أليس كذلك؟ نحن ثوار كلام لا ثوار أسلحة. لا أملك سوى هوية أحوال مدنية ومئتي دولار، وقليل من الدنانير العراقية. لم أسأل نامق عما يملك، إلا أنني لاحظت تردده في الدفع حين نشترك بشراء شيء، فخمنت أنه لا يملك إلا القليل من النقود.

مشينا عند الصباح نحو السوق، ووصلناه عصرا. كنا حوالي عشرة أشخاص من الفصيل. ثمة من يرغب بشراء ملابس شتوية، وثمة من يريد الوصول إلى طبيب في السوق، وأنا ونامق تحججنا بزيارة قريب نامق. الأرض التي قطعناها خارج العالم، ليس هناك سوى الهدوء وبعض الطيور المحلقة في الفضاء وآثار قرى متروكة أو محروقة. كانت هناك بساتين للعنب والتين تركها الفلاحون في السفوح. قيل إن الجيش هجر كل الفلاحين في المنطقة، وأعلنها منطقة محرمة. أي أنه يقتل أي كائن حي يتواجد فيها. سرنا بين وديان وقمم وسفوح، وغرد طير أسود في رؤوس العفص، وتسللت أفعى في أشجار عين الذئب، وجلسنا أكثر من مرة نأكل البسكوت

القديم ونشرب الماء من عيون منزوية تحت شجرة جوز عتيقة، وكانت بنادق الرفاق تلصف في أشعة شمس تشرين، وهي تسافر في نهاية الخارطة التي باغتها البرد قبل الأوان.

قال لنا الدليل نحن أمام السوق ولم نصدق.

ليس حولنا سوى الجبال، ونحن نسير في واد يجري فيه نهر ماؤه بارد جدا، وتمتد على طول السفوح أشجار عفص وجوز بري وتوت ضخم معمر، لكننا ما أن انعطفنا إلى اليمين حتى وقعت أبصارنا فعلا على السوق. هذا سوق مشهور في كل المنطقة. سوق قاسم رش. أي قاسم الأسود. من هو قاسم، ولم هو أسود، ولماذا سمي السوق باسمه؟ أسئلة رحت أنا ونامق نتناقش فيها على عادتنا بينما كنا ننحدر من المضيق الجبلي إلى قنطرة السوق. هل وجد السوق قبل الحرب؟ هل صاحبه إيراني أم عراقي؟ هل أسسه لوحده أم مع مجموعة من المهربين؟ كيف بدأ السوق؟ هل كان دكانا واحدا ثم تنامى عبر سني الحرب الطويلة حتى وصل إلى ما وصل إليه؟ نتساءل جادين مرة، ومرة ساخرين ونحن نتفرج على البغال، والرجال، والماعز، والبنادق المركونة في الدكاكين للبيع، والبضاعة المتنوعة التي تبدأ بالسجائر ولا تنتهي بأنواع الملابس الشتوية التي بتهيأ لشرائها معظم المقاتلين في الجبال، من حدود دهوك في الغرب وحتى السليمانية في الشرق.

الجلوس في وسط السوق يشبه الفرجة على فيلم سينمائي خرافي. هنالك ما لم نره في حياتنا. وهنالك ما هو غريب حتى عن المنطق، مثلا رؤية شخص يبيع قذائف آ ربي جي على بسطة قرب مياه الجدول. رأينا معزى تذبح في ظل كوخ خشبي، وامرأة تسدل نقابا

على وجهها وتتناول طعاما من صحن بين رجليها. ثمة أرانب وطيور قبج جبلية وديوك رومية مربوطة من أرجلها الحمر وحيوانات محنطة وجلود ثعالب منشورة على سواري خشبية. أكلنا صحني كباب في مطعم صغير بعد أن انفردنا عن أصدقائنا، وقد اتفقنا على اللقاء صباح غد في المقهى للرجوع، وكانت أول وجبة مشوية ألتهمها منذ غادرت. الطماطم المشوية كانت حلما، وكذلك رائحة الكباب، والبقدونس والطرشي، وكنا نلتهم الطعام دون أن نتحدث بشيء كما لو كنا نقوم بواجب مقدس. دفعت ثمن الكباب وطلبنا شايين ثم دخنا سجائر أجنبية من نوع دينهل، اشتريته أول ما دخلنا السوق ورحت أضيّف نامق منها، وكان نامق يدخن سجائر سومر عراقية، وهي ذات رائحة لا تطاق.

أثناء تجوالنا في السوق قال لي نامق فجأة: لنذهب إلى قرية بيوران، إلى خال عبده، أعرفه من بغداد، وقد التحق بالبيشمركة منذ سنوات لكن أخباره ظلت متصلة معنا، ويسكن اليوم في القرية تلك، بعيدا عن الانتماءات السياسية. توصل إلى قناعة برداءة معظم الأحزاب التي تقاتل في الجبال. نامق لم يوضح قصده بالرداءة. فعلا جميع الأوراق مختلطة. ليس في الجبال وحدها بل في المدن كذلك. الرداءة ربما أن لا تقتنع بأي برنامج أو نظرية. وهذا ما كنا عليه. وعند التلة، ونحن نغادر السوق باتجاه قرية بيوران، حدقت مليا في قاسم رش. لم أستطع إلا مباركة ذاك الحشد من البغال التي تجمعت عند القنطرة وهي لا تدرك مصيرها غدا، وإلى أي الطرق تسلك بين الجبال.

ورأيت الدخان الأزرق يتصاعد من محلات الكباب ومطاعم

تشريب اللحم والباجة، ولاحظت الآكلين وهم ينثون رغبة في ملء المعدة ثم ليأت بعد ذلك الطوفان. شاهدت المياه اللاصفة للنهر وهو يخترق السوق، كانت تبدو كما لو أنها أشعة خالدة لن تزول، وهي تحمل بالتأكيد رغبات حيوانات الماء الرخية في ذلك الطين البعيد عن الحضارة.

ودعت الحوارات البشرية العاجة بالحياة، واختلطت في أنفي روائح البشر ومآكلهم وملابسهم فوجدت كل ذلك خالدا. ما لا نراه ثانية سيتحول إلى طيف في الذاكرة، يظل هناك حتى ساعة الموت.

نامق يقف عند السفح هو الآخر بعد أن تكلم مطولا مع فلاح يروم الوصول إلى السوق، ودله الأخير على الطريق السريع الذي يصلنا بالقرية، وتبين أن الفلاح يعرف الخال عبده. قال لنامق: هو في بيته رأيته اليوم صباحا، ولم يكن في نيته الذهاب إلى أي مكان. لا تستغرق رحلتكم سوى سويعات من المشي وتصلون القرية. لا تحيدوا عن الطريق فثمة ألغام قديمة.

وهكذا قررنا الإنفصال عن رفاق المقر والسفر نحو المجهول. اتفقنا أن لا نبلغ الرفاق عن خططنا. نامق لم يعد يربطه بالعراق شيء، هذا ما فهمته من خلال حواراتنا ونقاشاتنا. إذن لا نفع من البقاء هنا. لا نفع من الدخول في حركة الأنصار التي تسعى لإسقاط النظام. لنا وجهة نظر أخرى. سلطة تملك كل هذا الجيش الجرار والطائرات والمال والنفط والقدرة على غسيل الأدمغة وتشويهها واستنفار خزين العنف المتراكم منذ قرون في النفوس المهانة كيف يمكن اسقاطها بمئات من المقاتلين الموزعين بين الجبال؟

وتبين لي أن هناك طريقا آخر علينا سلوكه. إما نهاية ذلك الطريق

والهدف منه، فلا أنا ولا نامق استطعنا تحديده أو الوصول اليه. الحياة في مكان آخر. وكان طريقنا موحشا، بوجهة واحدة فقط، هي قرية بيوران الحدودية. هكذا وجدنا أنفسنا في طهران، أنا ونامق سبنسر ابراهيم. كيف؟ وجدنا خال عبده في تلك القرية التي قادنا اليها نامق، بيوران، ثم نمنا في ليل صقيعي، وحدثت البنت الصغيرة جنب المدفأة بلغتي العربية عن الذئب الذي أكل ليلى، وهي لا تفهم العربية، فكان أبوها عبده يترجم لها حكاية ليلى والذئب، ولكنني كنت أحس الخوف في عيني الصبية مهاباد، الصبية التي لا يتجاوز عمرها الخمس سنوات. حملنا أربع رسائل كي نجتاز المسافة الفاصلة بين بيوران وأول مدينة ايرانية.

مررنا بمهاباد، بأرومية، قطعنا طرقا تسير بين الثلوج، ساءلتنا نقاط تفتيش عن وجهتنا ولكننا كنا نمشي مع الباص الطويل المثلج نحو طهران. وكان الثلج يتكاثف على بلور الباص، ليشكل طبقة سميكة تحجب الرؤية. نسير في ثلاجة كونية إلى مصير مجهول. ها أنا ازور أول بلد غير بلدي، وأعتبره مكسبا. كان نامق طوال الطريق يحلم بلقاء عائلته، وأقربائه، ومعظمهم يسكن في مدينة كرمانشاه الايرانية. كان يقول لي أثناء الرحلة، إن وصولنا إلى طهران معناه خلاصنا نهائيا من حياتنا الماضية. سنعيش حياة جديدة، سنصل أوربا، يؤكد لي. كيف نصل أوربا لا أعرف، وكنت أنظر إلى شقائنا وفقرنا المادي وافتقادنا إلى جوازات سفر، وأقارن ذلك مع قناعة نامق بالوصول إلى أوربا، ما كان يجعلني أشعر فعلا باليأس. الحلم لا ينسجم مع الواقع. وخلال هذه الفترة كان ما استجد في وجه نامق المدور هو اللحية الكثة، اللحية التي حولته إلى شبيه واضح للممثل بودي سبنسر، فنال منا هذا اللقب.

(٢١)

في مخيم كرج، أوردكاه كرج بالفارسية، تعرفت على نادر، وهذا ما أعطاني فهما عميقا لدواخل هذه الشخصية. المخيم يبعد عن طهران حوالي أربعين كيلومترا، تحيط به أشجار السنط، وتزعق الغربان السود في فضاءاته، وهو مخيم للعراقيين تحديدا، الهاربين من الحروب والسجون والإعتقالات، والباحثين عن فرصة للخروج إلى عالم آخر غير هذا الشرق التعيس. كان مخيم كرج مصنعا لأحلام بشرية كلها تروم الذهاب إلى الجنة، أي أوربا، الأسطورة التي تعيش بيننا في ذلك البناء الحجري الكامد. أوربا الفتيات الشقراوات، والخمور، والمقاصف، واللغات، والحدائق الفارهة. من هذه الدقيقة أنت في لجة العالم، فكرت وأنا أدخل ذلك المخيم المحشور بين الجبال. نعم أنا في لجة العالم، ودعت الحروب، والثورات، والجبال، والمدن الكسيرة، ودخلت إلى عالم التاريخ، عالم المدن التي لم أزرها يوما وكنت أحلم برؤيتها، ابنة الحضارة الفارسية، المجوس عبدة النيران، والنور الذي ما بعده ظلام. وتخيلت مدنا مثل برلين وكوبنهاغن التي لا أراها الا عبر بقرة حلوب مرقطة، في حقل فسيح. تلك الصورة المرسومة على الأجبان الدانماركية والزبدة المجمدة التي تأتي إلى الشرق وهي تحمل كلمة يورباك.

وجدنا أنفسنا وسط ثلوج، وغربان، ولغة غريبة، شما قشندي أغا، من نا مدني فارسي، مرك بر أمريكا، مرك بر شوروي، والطيور التي تنعق تذكرنا بالمدن، بالحروب التي غادرناها، بالجبال التي عشنا فيها ذات يوم. تذكرنا بتفاح قاسم رش، بتين السفح، بعنب بيوران التي كانت تتغلغل بين أشجار العفص والجوز البري.

من ذلك الشباك المعلق في الطابق الثاني رأيت شخصا يتمشى في الفسحة القريبة من السياج، يحمل مذياعا يضعه لصق أذنيه، يذهب حتى نهاية الشبك الحديدي ويرجع حتى الساحة. رصدت حاله يوما بعد يوم، صباحا مساء، حتى نال مني الفضول وقلت لا بد من التعرف عليه. بحت لنامق عن هواجسي، لا سيما وأن الجنون راح يتفشى بيننا مثل وباء. قال لنذهب اليه، وحدث الأمر في ذلك العصر الشتوي المرقش بالثلوج والغربان. كانت شمس ناعمة تلقي أشعتها على مصطبة خشبية قرب السياج الحديدي العالي الفاصل بين المجمع والغابة الكثيفة. هناك جلسنا أنا ونامق، وكنا نفكر بطريقة للخروج من إيران، خاصة ونحن لا نملك جوازات سفر، وكان نادر راديو كالعادة يتمشى في الطريق أمامنا، الطريق الممتد بين بناية المطعم ونهاية السياج، فاتحا جهازه على إذاعة مونتكارلو.

جسد صغير، وجه أسمر، عينان شاكتان، صغيرتان كأنهما عين جرذ، وبنطال قطيفة حائل اللون، وجاكيت عسكري يميل إلى اللون الرمادي، مع شعر أسود كث، يشبه عشا من أعشاش الغربان التي تتناثر في أعالي شجر البلوط في الغابة المجاورة. في لحظة صمت. لا نسمع خلالها سوى نعيق الغربان، التقطنا صوت مذيع مونتكارلو وهو يتحدث عن هجوم واسع للجيش الإيراني على القطعات العراقية

في جبهة قصر شيرين. سمعنا ذلك في اللحظة التي حاذانا فيها نادر فما كان من نامق إلا أن قال له فجأة: ما هي حصيلة الهجوم اليوم؟ مئة غراب وعشرون بومة من الطرفين. توقف نادر جنبنا، وألقى التحية، ثم أفردنا له مكانا على المصطبة. لفنا ذهول من رده، واعتقدنا أنه يسخر، لكن وجهه كان جادا أكثر من اللازم. جلسنا ثلاثتنا نتابع أخبار الهجوم من إذاعة مونتكارلو.

لم نعرف وقتها أن تلك اللحظة، لحظة التعرف بنادر، ستمتد أكثر من عشرين سنة بيننا. أصبحنا ونادر راديو أصدقاء دائميين لم ننفصل بعدها. في مخيم كرج نأكل في المطعم سويا، نتمشى في الساحات معا، نتبادل سجائر البهمن وننزل في الإجازات الأسبوعية إلى طهران، فزرنا حدائقها وشوارعها وأسواقها، لننتهي عادة إلى سوق كوجه مروي الغاصة بالعراقيين.

لم نتوقف عن البحث عن طرق للخروج من (الحفرة)، كما كنا نسميها، وكانت كوجه مروي بيئة غنية بالمزورين الذين يتاجرون بجوازات السفر وكارتات الإقامات وعصابات تهريب الراغبين إلى كل من أفغانستان وتركيا وباكستان وحتى الدول الأوربية. وفي يوم بارد، وكنا نجلس أنا ونامق ونادر على أسرتنا المتجاورة في إحدى القاعات، جاء مراقب القاعة وأخبر نامق أن هناك زائرا في الإدارة يطلب رؤيته. غاب نامق نصف ساعة تقريبا، كنا أنا ونادر نفكر ونتناقش عن صفة هذا الزائر، عسى أن يغير حضوره مصائرنا.

القاعة فارغة، مضى اللاجئون إلى الساحات يلعبون الكرة الطائرة أو يتمشون في الهواء الطلق، وكنا نسمع أصوات غربان الغابة وهي تنعق في الخارج. وكانت مذيعة مونتكارلو في الراديو تتحدث عن أثر

المنبهات على المرأة الحامل. رجع نامق باسما وأخبرنا أن الزائر هو خاله، وهو تاجر يسكن في طهران، وقد اتفق مع إدارة المخيم لأخذه على مسؤوليته إلى بيته لحين اكمال إجراءات الكفالة. الإجراء تم فوريا بسبب أهمية الخال في بيئة طهران التجارية. لملم نامق أغراضه كلها، واتفق معنا على اللقاء في سوق كوجه مروي. ووعدنا بأنه لن ينقطع عنا، وسيحاول مراسلة صديق أخيه في دمشق لكي يرسل لنا موافقات لدخول سورية، ثم أوصانا بالصبر ولا نتهور في البحث عن مخرج. لا تذهبوا إلى ميناء بندر عباس للخروج في السفن المغادرة، ولا يغرنكم واحد من المهربين بحلم الوصول إلى باكستان، انتظروا ما سأقوم به لاحقا. نحن في حفرة اذن، وينبغي التفكير بصنع السلالم للخروج منها.

وهكذا مضى نامق تاركا إيانا في هذا المخيم البارد. تركنا يائسين من امكانية خروجنا من الحفرة. ليس هناك سلالم همس لي نادر. نحن مفلسون ولا نمتلك جوازات سفر وليس لدينا أقرباء أو معارف.

مرحلة الضياع التي عشناها، وفقدان الأمل بالحصول على جوازات سفر، حتى لو كانت مزورة لأن الأمر يحتاج إلى نقود، قادتنا إلى الهروب من المخيم، والبقاء في طهران حيث اشتغلت صباغي ملابس في معمل صغير، وباعة سجائر آزادي وبهمن وشيراز، على أرصفة كوجه مروي. فشلنا. ثم زورنا كارتات إقامة ورحلنا إلى الأهواز للبحث عن عمل ثم فشلنا أيضا، ومضينا إلى بندر عباس للهروب مع إحدى السفن، لكننا أخفقنا بالدخول إلى الميناء كذلك. لم نسمع نصيحة نامق لأن الأبواب كلها سدت أمامنا. وفي هكذا حالات ستحضر المغامرة حتما. هناك، في بندر عباس.

شاهدنا النساء المنقبات، والوجوه السمر، وعشنا الحرارة الخانقة، وكدنا نقع في أيدي الشرطة لولا الحظ الذي حالفنا، إذ كان نادر يعرف قليلا من اللغة الفارسية.

عدنا أدراجنا خائبين، إلى غرف كوجه مروي الضيقة، وصدف أن التقينا بنامق في مقهى بغداد، وهو مقهى ومطعم يرتاده العراقيون. وجدنا نامق يتناول وجبة من الآب كوشت، وترجمته ماء اللحم. دفع عنا ثمن طعامنا وأخبرنا أنه بعد غيابنا استطاع الإتصال بصديق أخيه في دمشق واستحصال موافقة لدخولنا سورية نحن الثلاثة: خلال أسبوع ينبغي لكما الذهاب إلى السفارة السورية لاستلام الموافقة. كنا نأكل مذهولين من الأخبار التي يرويها لنا نامق. عرفنا أن خاله أكمل له الكفالة لكنه بقي مصرا على الخروج من الحفرة. ما الذي أفعله بين هؤلاء العمائم، كان يردد لنا ونحن نحتسي ماء اللحم ونزدرد قطع البطاطا والخبز الإيراني الثخين. صديقنا علي الكحلي، الذي ننام في غرفته الضيقة بإحدى أزقة كوجه مروي، وكان يشتغل ببيع الحلويات التي يصنعها في غرفته وهي تشبه البقلاوة، نصحنا بالرجوع إلى المخيم وتسليم أنفسنا. فرصة الخروج من إيران فرصة لا تعوض. ينبغي عليكما استغلالها. أنتما لا تمتلكان جوازي سفر ولا تعرفان أقرباء هنا، ولا تمتلكان النقود. جربتم العيش خارج القانون ولمستما صعوبة ذلك. قد يحسبونكما جاسوسين إن وقعتما في يد الشرطة. قبضوا على كثير من الجواسيس العراقيين في الفترة الأخيرة.

وهذا ما قمنا به أنا ونادر. الهروب من المخيم ليس من الأمور النادرة بين اللاجئين. البعض كان يغيب يوما أو يومين وربما أسبوعا

ثم يعود ليحقق معه سريعا ويسجن بضعة أيام ثم يعود إلى روتين الحياة في المخيم. والبعض يمضي ولا يعود، إذ يجد له طريقا تقوده إلى أفغانستان أو تركيا وحتى الإتحاد السوفيتي، وكانت هناك قصص تروى ومغامرات أبطالها يعيشون في المخيم أو تنقل عنهم بعد أن وجدوا حياة مغايرة. وثمة من استطاع الوصول إلى أوربا وراح يرسل صوره من ستوكهولم وكوبنهاغن وروتردام ولندن. صور تظهرهم واقفين جنب سيارات أنيقة، وفي مسابح مختلطة مع الفتيات، ووسط بخار ساونا مع نساء عاريات، ووسط غابات خضراء تشبه السحر، وعلى بلاجات بحار ملونة بواقيات الشمس وملابس النساء وأمواج البحر الفضية، وفي مطارات أنيقة مكتظة بالمسافرين. أما كيف نجحوا في ذلك فظلت الأمور أساطير تتداولها الألسن في المخيم، الذي أصبح خلال وجودنا مصنعا للحكايات، والإشاعات، والقصص الخيالية.

وكانت الصور تشعل فينا الرغبة الجامحة بالخروج من إيران، ومتابعة الرحلة حتى الوصول إلى واحدة من مدن الخيال تلك. عدنا إلى المخيم خائبين، وسجنا أسبوعا، ثم سمح لنا بالنزول في أيام الإجازات مما أعاد لنا لحمة الوصل مع نامق. عرفنا منه خلال غيابه في السجن، والأيام التي لم نصادفه فيها في كوجه مروي، وصول أسمائنا إلى السفارة السورية وأنه جلب منهم رقما وتاريخا موثقا للدعوة، ويتوجب علينا المراجعة للحصول على كتب مشابهة تسهل منحنا تأشيرة الخروج.

أول ضربة حظ لنا، حين وافق المحقق القادم من وزارة الداخلية إلى المخيم على الدخول إلى سورية. وكانت الضربة الموفقة الثانية

حين غادرنا نامق إلى دمشق، والثالثة حين جهزونا بورقة عبور المطار، والرابعة حين ساعدنا صديقنا علي الكحلي في شراء بطاقة الطيران، والخامسة حين نفذنا من مطار مهراباد نحو الطائرة السورية، والسادسة حين تركونا نخرج بسلام من مطار دمشق، فصارت دمشق تحت أنظارنا للمرة الأولى، وسيستقبلنا نامق في غرفته الواقعة فوق مشغل أمير في مساكن برزة، جنب صيدلية نورس. تلك ضربات حظ نادرا ما تحدث في حياة الشخص، كما قال نادر ونحن نتوغل في شوارع مساكن برزة باحثين عن مشغل أمير جنب صيدلية نورس.

لم ينس نادر جلب راديوه العتيق معه تذكارا من حياة الحفرة التي كان عاشها لسنة كاملة تقريبا. لبثنا أسابيع في غرفة نامق، وكانت أحاديثنا كلها تعود إلى الماضي، إلى طهران ومخيم اللاجئين ومغامراتنا حين هربنا من المخيم أنا ونادر، وحياتنا الجبلية التي عشناها أنا ونامق في كردستان، وذلك المعسكر الشتوي الذي بنيناه أثناء ما كنا مقاتلين في الجبل. وكان راديو نادر هو الشاهد الرابع على الماضي الذي استرجعناه بتفاصيله المملة. نحن خارج نطاق التأثير على الأحداث، وكان ظل الحرب يتراءى لنا من بعيد لكننا اتفقنا ضمنيا على وجوب التفكير جديا بمصائرنا. ينبغي البدء بالعمل، وينبغي البدء في ذلك على الفور، اذ لا يمكن البقاء في غرفة نامق إلى الأبد.

الغرفة، وحسب ما أوحى لنا نامق، كانت مكانا لقريبه أمير كي يمارس فيها الجنس مع عاملاته في مشغل الخياطة. هي مكان للخلوة، ونحن دخيلون على مشروع أمير الجنسي. كان أمير متزوجا

وله طفلان، وبيته يقع في منطقة المزرعة وسط دمشق. الغرفة الضيقة فيها سريران مفردان، كان نامق ينام على واحد منهما وأنا ونادر نتناوب على الثاني، وثمة فراش يمتد في الأرض عندما يحين وقت النوم. يطل الشباك الوحيد على شارع مساكن برزة، وكنا منذ الفجر نسمع صوت الأذان فنفيق متذمرين كون السماعات مسلطة على الشباك رغم أن الجامع يقع في الجهة المقابلة. بعض الأحيان نكون جالسين في الغرفة فنسمع صوت أمير يهتف لنامق فينزل مسرعا إلى الأسفل، يلبث دقائق ثم يعود ويدعونا للنزول إلى الشارع. هناك اجتماع لأمير مع أصدقائه السياسيين. وهكذا نقضي ساعة نتجول في شارع المساكن، نتفرج على محلات الملابس أو نتناول سندويجات فلافل أو نظل ماشين حتى نبلغ حي ركن الدين. نطيل النظر في مركز دمشق تحتنا، ببساتينها وعماراتها وجسورها، ونعاقر أحلامنا في السفر إلى بلاد الخيال التي سكنتنا في مخيم اللاجئين.

وبما أن أمير لا يحبذ السكر في بيته، لذلك كانت غرفتنا ملاذا له ولبعض أصدقائه. ورغم ضيق الغرفة وحرجنا من الإفلاس إلا أن ليلة السكر تظل حلما لنا كل أسبوع. فنحن هوامش الوليمة ودخيلوها. يجلب أمير قناني عرق الريان وبعض قناني البيرة البردى ويوصي عند انتصاف الجلسة على طبق من المشاوي، عادة ما يكون اللحمة المشوية والكباب وأحيانا الفروج المسحب. الفروج المسحب أتناوله أول مرة في حياتي بتلك الغرفة. عندها تتناثر صحون التبولة واللبنة والحمص والزيتون والمخلل، أي الطرشي باللهجة العراقية، وشيء جديد علي كل الجدة هو الشنكليش. كان حسب تعبير نادر: فكرة سورية بامتياز. هو كما عرفته مع نفسي طبق بين الجبنة واللبنة، يخلطه السوريون بالبصل ويغمرونه بزيت الزيتون.

في تلك الغرفة يرتفع الدخان إلى السقف مع الضحك والحوارات والنكات، وعادة ما يكون العراق على الطاولة، نغوص في شؤونه يمينا ويسارا، لننتهي في ساعة متأخرة من الليل سكارى منهكين لا ننشد سوى الفراش. ما كان يميز سهراتنا في غرفة مساكن برزة هو الحرية المطلقة التي نناقش فيها الأفكار والأحداث، وهو أمر لم نعشه سابقا. تصب الأخبار في تلك الغرفة من جهات الأرض كلها. من جبهات القتال بين العراق وإيران، من كردستان حيث المعارضة المسلحة والثورة القائمة لإسقاط النظام، ثم أخبار المهاجرين واللاجئين في إيران، والدارسين في الدول الإشتراكية، المغادرين إلى بلدان اللجوء. فرص العمل وأنواعها في سوريا.

وكانت الغرفة مثل بلورة سحرية نرى من زجاجها حركة العالم في القارات كلها. ولكن لكل مرحلة فترة انتقالية، وكانت الفترة الإنتقالية في دمشق شاقة فعلا، والمشقة تأتي من كيفية الحصول على النقود. كان أمير مرجعنا في كل شيء. قال لنا أمير ذات يوم وكنا نجلس في مشغله، وصوت ماكينات الخياطة يجلجل في الصالة: الخطوة الأولى لكم هي العمل، ثم صمت برهة. وجدت لكم عملا مع واحد من أصدقائي. وعرفنا أن العمل سيكون في معمل لصناعة البلاستيك، يقع في حي القابون، الحي الذي لا يبعد كثيرا عن مساكن برزة. وكان يوم السبت أول يوم نرى فيه المعمل، ثلاثتنا، أنا ونامق ونادر.

(٢٢)

في بيت واسع، على أطراف منطقة القابون، يقبع ذلك المعمل، ببنايته العتيقة، المشادة من البلوك الخرساني، واجهته عتيقة ويعتقد أنه بني في السبعينيات، ليكون دارا واسعة وربما منشأة صناعية. أول ما دخلنا نامق ونادر وأنا واجهتنا أمام المدخل، في ساحة الحديقة، مجموعة مختلفة الأحجام من الصواريخ، لونها أبيض، تتمدد على الأرض كما لو كانت معدة للتفجير. تتمدد قرب الحشائش الجافة والأشواك البرية. كان الجو ربيعيا، يوشك أن يدخل في متاهة الصيف. استقبلنا أبو نضال، مالك المعمل، بحفاوة، وأدخلنا إلى البهو الواسع. وجدنا عددا من العمال يزيد على العشرة، وعرفهم بنا وقال سيبدأون العمل منذ اليوم، وطلب من المشرف على العمال، وهو شاب طويل ملتح بعينين واسعتين، إرشادنا إلى خطوات العمل.

كانت رائحة العرق تفوح من أبي نضال رغم أن الساعة لم تبلغ الثامنة صباحا. وكنا نرتدي بناطيل جينز وقمصانا عادية، وبدأ المشرف سعيد فورا يعرفنا على تفاصيل العمل. على مساند حديدية يتمدد قالب حديدي بين يدي ثلاثة عمال، يدهنونه بمادة غرائية تميل للخضرة، كانوا يمسكون فراشي ضخمة يمسحون بها القالب فلا يتركون جزءا منه دون طليه بذلك السائل. بعد انتهائهم من الطلاء

قربوا آلة تشبه المسدس ترتبط بأنبوب مرتبط بخيوط بيض تنسل من وشيعة ضخمة، قال المشرف إنها المادة الأولية للمطاط. تقوم الآلة بفرم تلك الشرائط إلى نثار صغير يرشونه على قالب الصاروخ. بعد أن ينتهي الرش، ويغطي السائل تلك الشرائط المفرومة، تبدأ المرحلة الثانية. وكانت تلك المرحلة سهلة لغير الإختصاصيين فشاركنا فيها.

أمسك كل واحد منا بفرشاة ضخمة ورحنا نغرق نثار البلاستيك ذاك في السائل الغروي، وشاهدنا الشعيرات البيض تنحل في السائل لتصبح عجينة لدنة علينا تشكيلها على ضوء انحناءات القالب. وركز المشرف، وأعاد التركيز على إخراج كل الفقاعات الهوائية من العجينة بواسطة الفرش. كانت تلك هي المرحلة الأولى من صناعة الصواريخ.

تنتشر في جو الصالة رائحة قوية حادة تخدش القصبات الهوائية، هي خليط من رائحة بنزين، ونفط، وغاز الكلور. ولهذا السبب أعطانا المشرف كمامات بيضاء لكي نغطي أنوفنا أثناء العمل. لن نكون معلمين في هذه المهنة، هذا ما اتفقنا عليه ثلاثتنا. عند الظهيرة تناولنا مع العمال وجبة من الفول مع البصل الأخضر والفليفلة الحادة، وعدنا إلى العمل ذاته حتى الساعة الرابعة عصرا، حيث أنهينا صاروخين بلاستيكيين. حين جفا ركناهما في الحديقة، ثم اغتسلنا بالصابون والماء وغادرنا إلى مساكن برزة.

في الطريق أخذنا نتناقش العمل الذي نؤديه، فلم نفهم المغزى من ورائه. قال نادر: لابد أنهم يصنعون ذلك لغرض اللعب. إنه عمل عبثي فما فائدة صاروخ بلاستيكي، ولم هي بأحجام وأشكال

مختلفة؟ ربما يحشونها بالمتفجرات ويطلقونها على إسرائيل. ولم نصل إلى رأي مقنع عن صناعة الصواريخ تلك حتى وصلنا الغرفة. وصلنا متعبين، لكننا كنا سعيدين، فمنذ اليوم ستنتظم حياتنا ونستطيع رسم خارطة طريق لحاضرنا. ألم يقل أمير إن الخطوة الأولى في أي حياة جديدة هي العمل؟ وبمناسبة بدئنا بالعمل أقام أمير وليمة ليلية لا تختلف عن ولائمه السابقة. جلبنا قنينتي عرق ريان أنا ونادر من بقالية العائلات، واشترينا من سوق مساكن برزة الزيتون الأخضر والمسبّحة واللبنة والجبن القشقوان، والطماطم والخيار، وجرزتين من الطرخون الذي يحبه أمير، كونه ينشط الرجل في ممارسة الجنس. أعد نامق الطاولة الصغيرة وسط الغرفة، وجهز الصحون والسكاكين والملاعق، ونامق عادة هو من يقوم بتجهيز السلطة، فهو بارع فيها، وكان يعمل ألذ سلطة في مساكن برزة حسب قول نادر. لم يبق سوى الطعام الذي يتكفل به أمير حين يغلق معمل الخياطة ويصعد للسهر في غرفتنا. في تلك الليلة شرح لنا أمير سر الصواريخ. ولأنه شرب كؤوس ريان أكثر من المعتاد باح لنا بأسرار أخرى.

أخبرنا ونحن نتبادل الأنخاب عن قرب رجوعنا إلى بغداد، وانتهاء الحرب، وانتصار قوى الخير والسلام، أن مشروع الصواريخ البلاستيكية يعود إلى الجيش السوري. أبو نضال كان ضابطا في الجيش برتبة عقيد، وهو شركسي الأصل، لكنه بعد تصفيات غامضة أثناء دخول الجيش إلى لبنان لإيقاف الحرب الأهلية أحيل إلى التقاعد، فأسس ذلك المعمل. كان ينتج في البداية خزانات مياه، وأواني بيتية من البلاستيك، ثم عن طريق علاقاته الواسعة مع الضباط حصل على هذا العقد. صواريخ سام بأنواعها، صواريخ

مضادة للدروع، صواريخ بعيدة المدى، كلها من البلاستيك. كل ما يملكه الجيش من صواريخ حقيقية صنع لها نسخا من البلاستيك. ما هي الحكمة من وراء ذلك؟ هذه النسخ البلاستيكية تصنع وتصبغ بدقة لكي تحاكي الصواريخ الحقيقية، فتنصب على الناقلات والمحطات الأرضية لإطلاق الصواريخ على أنها صواريخ حقيقية موجهة إلى اسرائيل. والحقيقية، سأله نادر وعيناه الصغيرتان تنظران بنفاذ ساخر. تخبأ بأماكن سرية. أية ضربة عسكرية إسرائيلية ستستهدف الصواريخ البلاستيكية المكشوفة. هذا دهاء شامي قال نامق وهو يعب كأس الريان ويتناول ملعقة ضخمة من السلطة التي عملها بيديه.

كنا ندخن جميعنا عدا أمير، فتحولت الغرفة إلى قطعة بيضاء من الدخان. طلب أمير من نامق الجالس قريبا من الباب فتحه، إنه يختنق قال. أردت أن أعرف المزيد من أمير عن أحوال أبي نضال، قلت له: شممت اليوم رائحة عرق منذ الصباح تفوح منه. نعم هو مدمن، يبدأ الشرب ما أن يفيق من النوم، ربما لهذا السبب أخرجوه من الجيش. رجل يعشق اللذات، رغم تجاوزه الخمسين لكنه مدمن على اصطياد النساء مثلما هو مدمن على عرق الريان. يعتقد أن الحياة دون لذات لا تعني شيئا، فنهايتها الموت كما يجري للضفدعة، والصرصور، والحمار. مع أنه يبدأ شربه منذ الصباح لكنك في الليل تجده حتما مع شلة أصدقائه في مقاصف دمر. ونوادي باب توما. يسهر أحيانا حتى الصباح. أين يسكن؟ سأله نادر. في حي القصور قرب ساحة العباسيين. دعانا أكثر من مرة إلى بيته. رجل كريم جدا، وله فلسفة خاصة حول الحياة. يذكرني ببعض

الشخصيات البغدادية في فترة الخمسينيات. رومانسية ثورية، عبثية، حب للذات، وعشق للنساء والخمرة. أعتقد ان أم سعيد عشيقته. من هي أم سعيد؟ ما هو اسم مشرف العمل لديكم؟ سعيد. هي أمه. إنها أرملة، زوجها ضابط من معارفه قتل في حرب تشرين بين العرب وإسرائيل، وهو يساعدها منذ ذلك الوقت. هي امرأة جميلة رغم أنها شارفت على الخمسين. جاءت معه أكثر من مرة إلى المعمل، طويلة ممتلئة قليلا ذات شعر يميل إلى الشقرة ووجه خمري وعينان سوداوان مليئتان بالشهوة. حقيقة دخلت إلى مزاجي، لكن احتراما لعلاقتي بأبي نضال لم أتحرش بها.

من تلك الغرفة، وشباكها المطل على الفضاء الغربي، كنا نرى جبل قاسيون من بعيد، شاحبا، صخريا، نائيا، وكأنه ذلك المستقبل الذي نحلم به ثلاثتنا. أين نجد أنفسنا بعد سنة، سنتين، ثلاثة؟ ما الذي يستجد لنا في بلاد الشام؟ ما الذي سيحدث في العراق خلال الأيام والأشهر والسنوات القادمة؟ هذه الأسئلة وغيرها كنا نتداول بها أثناء الإستراحة بعد الغداء، أو حين نعود من معمل الصواريخ إلى مساكن برزة. ونتداول بها مع أمير باعتباره أكثرنا حكمة في جلسات الخمرة عند المساء.

ذات صباح أراد نامق أن يجرب أسلوب أبي نضال في الحياة. جلس منذ السادسة صباحا وجلب قنينة العرق الريان وبدأ يحتسي. ولأن أبي نضال يشرب صرفا جلب نامق قنينة العرق معه وكان يحتسي منها بين الحين والآخر، ونحن نقطع مساكن برزة صعودا نحو القابون، من خلف مدرسة الشرطة. نادر عند كل خطوة يحدق فيه ويبتسم، ونظراته الخبيثة تتنقل بيني وبين نامق. وكأنه يقول أنظر

ما يفعله الرجل بنفسه. وأثناء مشينا فاجأنا نامق بالسؤال ورائحة عرق الريان تتطاير من أنفاسه المتلاحقة: أتعرفون ما أحسه الآن؟ لا لا نعرف، جاوبه نادر بضحكة مجلجلة. أنا ملك. أنا حر. صحيح مئة بالمئة، خاصة وقد شربت نصف القنينة، قال له نادر. أرى قاسيون كما لو أنه جبل بيره مكرون، المطل على السليمانية. وأرى نفسي سابحا في غيوم الفضاء. كل شيء جميل. أنظروا إلى تلك التوتة كم هي فخمة وسامقة، هي أيضا تفكر بنا نحن صعاليك الأرض الدائرين من مكان إلى آخر. من بغداد إلى طهران، إلى دمشق، كل الطرق تقودنا إلى أوربا. علينا أن نفكر بالقضية على النحو التالي، ما دمنا خرجنا من بلدنا لماذا نقف عند تخوم دمشق؟ ودمشق على المتوسط أو قريبة منه، وأوربا في الجانب الآخر من المتوسط. ألا ترون نساءهم يشبهن الأوربيات، لكننا لم نرد ذلك النبع. أريد أن أرى الحضارة التي حلمت بها عشرات السنين. أن أتعلم رقصة الفلامنكو، ورقصة السامبا البرازيلية، ورقصة زوربا اليونانية في فيلمه الذي رأيته ببطولة أنطوني كوين. أريد أن أضاجع النساء أجمع، وأشرب خمور الأرض كلها، وأرى المدن ابتداء من بوينس آيرس في الأرجنتين إلى مجاهيل افريقيا. أريد أن آكل المحار في مطعم فرنسي، وأتسلق ايفيرست، وأنادم ملكة بريطانيا، وأتسكع في حدائق البيت الأبيض، واتأمل حريق الرايخشتاغ في برلين.

ويهمس لي نادر راديو، ذو العينين البدويتين المليئتين بالسخرية: لا أفهم ما يقول، لقد سكر صاحبنا. قريبا سيجد نفسه في السجن. فضيحة. يعتقد أنه يتمشى في محلة الدوريين ببغداد، أو على جسر الشهداء. سيأتي على القنينة كلها حتى قبل أن نصل المعمل.

ويواصل نامق وهو يرتشف من فم قنينة الريان، مقلدا أبا نضال، وصباح دمشق مليء بالطيور والأصوات وأغاني فيروز: أرى مثلما يرى النائم أننا سنشاهد حقولا خضر ونساء شقراوات، وندخل حانات من خمر وأغنيات ونمشي في شوارع تفتح أبوابها على السحر، ونتمشى على سواحل العراة، ونصارع أمواج المحيط والبحر البعيد. أرى أننا سنموت في أرض غريبة. بهذا أنت صادق، سنموت بأرض غريبة. وبدأ نامق يبكي ونحن نقترب من المعمل. يبكي ويقول: تذكرت أمي، وأخوتي، وأزقة الشواكة ومقهى البرلمان ونوارس دجلة. قلنا له بكل جدية: نامق تماسك أمامنا يوم عمل طويل. لقد تذكرت الخال عبده، وابنته مهاباد، وكل ذلك الثلج الذي قطعناه بعيدا عن الجبال.

دخلنا المعمل وكان نامق سكران لا يستطيع الوقوف على رجليه، فكان سعيد يحاول امتصاص الموقف أمام العمال السوريين، وأخيرا اتصل بأبي نضال، فقال له إرسل نامق إلى البيت، وسيتعامل مع الموقف لاحقا. وهكذا تطلب مني مرافقة نامق بتاكسي إلى مساكن برزة، ثم العودة سريعا بعد أن مددته على الفراش، وأخبرت أمير بما حدث. أنهينا اليوم بفراغ ومجاملات، ولكنني خمنت أن وجودنا في المعمل على كف عفريت. ما جنيناه أثناء عملنا في المعمل حصيلته هو أنني ونادر استطعنا الخروج من غرفة نامق واستأجرنا غرفة في حديقة أم حسن، عند تقاطع مساكن برزة مع القابون. تركنا نامق في غرفته وحيدا ويممنا حديقة أم حسن الأرملة التي تؤجر غرف بيتها إلى المغتربين من عراقيين وأبناء الحسكة ودير الزور والقامشلي. استأجرنا الغرفة ذات الباب الخشبي، الواقعة في نهاية الحديقة الداخلية.

كنا عادة ما نفتح بابنا على شتلات النعنع وأشجار التفاح والعنب وورود لسان الثور التي كانت أم حسن الستينية تعتني بها كل يوم. ولم يتغير في حياتنا شيء يذكر. كل صباح نمضي إلى العمل في صناعة الصواريخ البلاستيكية، ونلتقي بنامق هناك، وأحيانا نجلس ليلا في غرفته كالعادة مع أمير وأصدقائه، ونحتسي العرق الريان ونأكل الدجاج البروست أو المسحب أو الشقف مع الكباب، ونتداول في شؤون العراقيين الذين يعيشون في دمشق. نتذاكر حول من سافر إلى أوربا ومن رجع إلى طهران أو كردستان. تصلنا صحف وأخبار وأشخاص يأتون من الداخل أو من كردستان أو من مخيمات اللجوء، فنسمع كل ليلة جديدا. نسمع إشاعات وأخبارا وحقائق وأكاذيب. تتحول الغرفة إلى غيمة بيضاء بسبب النقاشات والحوارات والدخان، وندرك اليوم الثاني فجرا ونحن سكارى. ويزورنا نامق أيام الجمع في غرفة أم حسن، وقد ترك عادة الشرب الصرف كما كان يفعل أبو نضال، ترك تلك العادة منذ أن وصل سكرانا في ذلك اليوم الربيعي إلى المعمل.

انتهى عقد أبي نضال مع الجيش في منتصف الصيف. أخبر أمير أنه لم يعد بحاجة الينا، وهو الخبر الذي وقع مثل صاعقة علينا. كيف نعيش في مدينة مثل دمشق من دون مصدر مالي؟ هناك صفة لدى المغتربين هي أنهم يصطادون الفرص، دون اصطياد الفرصة سريعا لا يمكنك أن تعيش. أنت في بيئة غير صديقة، في بيئة تجهلها، في بيئة ترفض الغريب أحيانا وتستريب به. تلك واحدة من نظريات نادر، لذلك عليك الإستفادة من أي شيء تقع عليه يداك أو عيناك. لا تستخف بشخص مهمل أو حاجة عتيقة أو مسمار، فذات يوم تحتاجه، وقد يغير وجوده مصيرك. كانت مناسبة هذه النظرية

حين كان نادر يريد البحث عن مصلح لمذياعه العتيق الذي توقف عن البث، وقلت له ونحن نجلس في غرفة أم حسن ضعه في حاوية النفايات، إنه راديو مستهلك وعتيق واشتر واحدا جديدا. هو رمز لانقضاء مرحلة مظلمة من حياتنا، إلا تدرك ذلك؟

لكنه ألقى علي تلك المحاضرة وهو يعتزم الذهاب إلى شارع الحرامية قرب ساحة المرجة عله يجد مصلحا للراديو، وإن تعذر ذلك سيبيعه. كنت أعتبر مذياع نادر علامة شؤم في حياتنا، هو يذكرني بساحة مخيم كرج، ويعيد لي أصوات الغربان الصباحية وهي تنعق في أشجار السرخس، ومسارب النمل الضخم الداخلة والخارجة من المخيم إلى الغابة وبالعكس. ونادر يجول صباحا في ساحات المخيم، لاصقا الراديو بإذنه اليمين، متوغلا في متاهة الحرب الدائرة، غائبا عن أبراج الحرس وضوضاء المطعم وعيوننا المحدقة به من شباك القاعة فكان أن اكتسب لقبه بجدارة.

تلك الأيام الثقيلة التي عشناها في طهران. تلك الأيام التي أريد أن أحذفها من حياتي، من ذاكرتي على وجه الخصوص. وكان المذياع دائما ما يحيلني إلى الحفرة.

لكن لنادر وجهة نظر أخرى.

كان يحاججني بالقول: كيف ذلك ونحن رأينا تلال الثلوج في الشتاء، وحدقنا في تماثيل حضارة فارس المحاذية لكرج، وتناولنا الوجبة الشهية المسماة آب كوشت والجلو كباب، وسافرنا إلى شمال طهران لرؤية الجبال التي تمتلئ بعيون الماء. وتمشينا في شارع ولي عصر الذي تظلله الأشجار طوال أكثر من خمسة كيلومترات ومسائل الماء تسيح على جانبيه. رأينا بندر عباس وشيراز

وتبريز وكرمان، وتنفسنا هواء التاريخ الذي يمتد إلى أيام الموبذان. إلى أيام معابد النيران في كهوف سنندج ورشت وعبادان. كل ذلك لا يمكن نسيانه، وهو تجربة جديدة على حياتنا. وكنت أحس بالعجز مع نادر. هو ينظر إلى الحياة بعدسة مختلفة، أحيانا أجدها منفعية، حين يريد تسخير كل شيء لفائدة ما في حياته، مثلما يقول عن مذياعه الشهير. ما هو صغير هو الذي يصنع ما هو كبير يقول لي. ألم تسمع بقصة سد مأرب، السد العظيم الذي سبب انهياره فأر يمني ضئيل.

دامت عطالتنا حوالي الشهر، حتى جاء نامق إلينا ذات صباح، وكنا نائمين في غرفة أم حسن الأرملة، وأخبرنا أن ثمة عملا ينتظرنا.

ما هو؟ القطاف. ما هو القطاف؟ بساتين الغوطة. ما هي بساتين الغوطة، لم تقطر علينا المعلومات مثل تاجر يهودي؟ كل يوم خمسين ليرة، ونقطف التفاح والمشمش والدراق وسواه، ونعود عند الظهيرة. المقاول عراقي وهو من أصدقاء أمير، فما رأيكم يا شباب؟ موافقون، قال نادر وهو يرتشف فنجان قهوته السورية المعطرة بالهيل، ويمتص سيجارته الحمرا الطويلة التي يفضلها كما قال أكثر من مرة على المارلبورو، والكلواز، والروثمان. تعالوا عند معمل أمير غدا صباحا الساعة الخامسة فجرا. لكن الوقت مبكر جدا. هكذ الإتفاق، يريدون الرجوع عند الظهيرة، لا تنس هناك عاملات يمتلكن أطفالا ويردن العودة باكرا إليهم.

القطاف، هذه الكلمة الجميلة الموحية بالخضرة، الموحية بالحياة، بالطعام، ظل يرددها نادر طوال اليوم الذي سبق ذهابنا إلى

العمل. رددها في سوق الحرامية، وفي مقهى الندوة المطل على المتحف الحربي، وفي السرفيس الذي نقلنا من تحت جسر الرئيس إلى مساكن برزة. ورددها حين وقفنا أمام مطعم الشاورما الواقع في تقاطع برزة مع القابون. كان يذكرها ويضحك: سنتحول في الغربة إلى قطافي فواكه، يقول ويضحك، لكن أفضل من قطافي رؤوس، على الأقل نتعامل مع ثمرة مشمش ودراق وتفاح وتين. ولكن إلى متى تستمر هذه الحياة، إلى متى نظل مرتهنين إلى العمل اليومي، وإلى لفة الفلافل والشاورما والمسبحة والفول وجبنة القشقوان؟

وكان هذا السؤال يشغلني ويشغل نامق أيضا، طوال حياتنا التي تدور بين مقهى الندوة، ومعمل أمير، وغرفة أم حسن، وبار فريدي الرخيص الذي كنا نحتسي فيه العرق أيام الجمع. وعلى صوت فيرز وهو ينشد لذهب أيلول وانت بعيد، رحلنا فجرا إلى الغوطة، جالسين في الجسم الخلفي لحافلة صغيرة مكشوفة، نساء ورجالا، كلهم من العراقيين. عراقيون قدموا من إيران، من كردستان العراق، من الدول الإشتراكية، من لبنان، من الموصل، من البصرة، من الناصرية، من بغداد، نساء ورجالا، رغم الرحلة غير اللائقة كانت النساء لم ينسين وضع قليلا من الحمرة على شفاههن وخدودهن، يلبسن الجينز، متأهبات لقطف الثمار. ونامق يدخن بنهم، ويحدق إلى النساء بشهوة عارمة.

اجتزنا الشوارع عند اختلاط الظلام بأول إطلالات الصباح، وصوت فيروز القادم من مسجلة السائق يفتح لنا أفقا إلى عالم حلمي بعيد. الحياة في مكان آخر. ربما تكون خلف المتوسط، وربما تكون في الجانب الآخر من الأرض، ثمة هاجس داخلي يقول بذلك.

الرحلة التي ابتدأت مع نامق ذات يوم في معسكر للمقاتلين لن تنتهي هنا في بساتين الغوطة. أكيد. تذكرت مياه النبع، وأسواق قاسم رش المليئة بالغرابات، وتذكرت بسكويت القرى الجاف والأبقار المركونة في أسفل البيوت، وثمار التين اليابسة التي نمت على السفوح. وتذكرت طير شجرة الجوز، وحمامات قاسم رش المحلقة بين ذرى الجبال، وتذكرت قصص الذئب والصبية التي رويتها ذات ليلة لفتاة كردية اسمها مهاباد، والثلج المعلق في جبال تعانق الغيوم.

وكانت هذه الذكريات والهواجس تدور في رأسي ونحن نتأمل ببساتين المشمش والتفاح، وكان الفلاحون يستيقظون من خلف الأجمات متجهين إلى سواق سرية وأشجار خالدة، وألواح خضراء من النعناع والطرخون والكزبرة. النعاس يصبغ الوجوه. ضباب ناعم يدرج على التيجان الخضر. بكورة الطبيعة النائية، المتسامية في بعدها عن الحروب وفظاعات البشر.

الريف يمتلك سحره، وأصوات غامضة لحيوانات وطيور تغني ليوم جديد، لأشعة شمسية سافرت ملايين الكيلومترات لتسعد البشر.

إلى أين يقودنا كل هذا؟ سألت نفسي والسيارة تدخل في بستان شاسع للمشمش. خضنا في لجة الخضرة، أكياسنا في يدنا، نتسلق الأدراج بين الغصون باحثين عن الثمار، والساعات تمضي. والصناديق تمتلئ، والنكات تترى، والضحكات تعانق السماء.

يوما بعد يوم، أسبوعا بعد آخر، حتى انقضاء الموسم.

نامق التقى بصديق أخيه، وتعودت أنا الجلوس في مقهى الندوة للعب الشطرنج مع نادر، وتابعنا سهراتنا فوق مشغل أمير. وكانت

أيامنا ولياليا تمضي برتابة. ولكننا كنا نحلم بحياة أخرى غير هذه، أنا ونامق ونادر، وربما عشرات ممن جاءوا إلى الغوطة بصفة قطافين، وعشرات ممن يدخلون إلى دمشق هربا من الحرب.

قال لنا أمير ذات مساء، ونحن نحتسي العرق الريان في الغرفة المطلة على جامع الحسنين: تابعوا الرحلة، امضوا نحو مدن الثلج والنساء، ولا تلتفتوا إلى الوراء. أمامكم كوبنهاغن، بدأت تستقبل اللاجئين العراقيين.

وهكذا فعلنا سوية، أنا ونامق سبنسر ونادر راديو، في نهاية موسم القطاف، وعند بداية الشتاء.

لكن تلك الرحلة حدثت قبل خمس وعشرين سنة، بالتمام والكمال.

هذا الكتاب

سمعت خطواته وهي تتنقل من الغرفة الثانية إلى المطبخ، ومن المطبخ إلى الحمام، بعد أن فتح التلفزيون على قناة عربية راحت تبث أخبارا عن الشرق. فلسطين، العراق، لبنان، الصومال، أفغانستان، مع مشاهد لحوارات وانفجارات ومواجهات مسلحة، لم تكن جديدة عليّ بكل الأحوال. فأنا، ومنذ زمن، وطنت نفسي على حقيقة هي أننا اليوم نعيش في غابة، وهذه الغابة تحاول أن تجد لنفسها نظاما معقولا للعيش، إلا أنها تخفق كل مرة، وكل مرة تعاود الكرة من جديد. وهذا شيء جيد من وجهة نظري.

رسمة الغلاف: جبر علوان

ISBN 978-9933350369